

مَبْكِي العُشَّاق

في موكب الهوى



يوسف السباعي

مؤلفات يوسف السباعي

قصص
قصيرة

■ مبكى العشاق

■ في موكب الهوى

مبکی العشاق

الاهنءاء

إلى كل مقلة ذابلة وجفن مقروح
إلى كل ساهر جفاه المرقء
مسهد نبا به المضجع
إلى كل مكروب يزفر وجدا
ملتاع يلهث جوى
إلى كل عاشق باك
أهدى مبكى العشاق
ليجد ما يسكب فيه دمة ويريق عبراته

« يوسف السباعى »

مقدمة

لا تسقنى ماء الملام فإننى
صب قد استعذبت ماء بكائى

أحقا بكاء الصباة عذب ؟
أذكر أننى عشقت فتاة ما رأيته مرة إلا وأحسست بميل شديد إلى البكاء .
كنت أعشقها من بعيد .. دون أن آمل منها فى أى شىء .. لا حب
ولا وصل ولا لقاء .. بل إن مجرد رؤيتها كانت أمرا متعذرا فما كنت أراها
إلا فى فترات متباعدة . ولكنى مع ذلك لم أكف عن حبها .. ولم تصدنى عنها
تلك الحواجز القائمة بيننا من اليأس والبعد والحرمان .. بل استمررت أحبا ..
واستمرت تصببى من رؤيتها نشوة العشاق الممتعة واضطرابهم اللذيذ .. ولكنها
نشوة مصحوبة بذلك الميل إلى البكاء .. والرغبة فى أن أضع وجهى فى صدرها
وأغرقه بالدموع .. كأنى طفل باك موجد .

لم كانت هذه الرغبة فى البكاء ؟
أهو الإحساس بوطأة اليأس الذى يرزح تحته ذلك الحب العجيب ؟ أم هو
الشعور بالحرمان الذى تثيره رؤيتى لها ؟

أم ترى نشوة العشاق تندى مآقيهم وتبيج مدامعهم ؟
وأن للبكاء نشوة وأنى ككل صب . « قد استعذبت ماء بكائى » ؟ أيا كان
سبب ميلى إلى البكاء .. فلا شك أن الدموع دائما تصحب الحب .. ولا شك
أن أكثر الناس ميلا إلى البكاء هم العشاق .

إن الحب يرهف الحس ويرقق المشاعر ويترك النفوس والهة والقلوب ذائبة
تؤثر فيها كل سائحة بارحة . وتبكيها كل ورقاء هتوف .. ويهيج شجنها كل بلبل
صداح وحمامة نائحة .

وإن أشهر قصص الحب : مآسى تثير المدامع .. ولا أظنها قد خلدت على
 الدهر إلا لما بها من حزن ولوعة .. فالهوى البائس الباكي أبقى على الزمن . وفيه
 يتلمس العشاق عزاءهم .. ويجدون صورة من أحزانهم ولوعتهم .
 وقد ضمنت كتابى هذا قصصا يحملها الهوى المستعر الملتاع ، أقدمها
 للعشاق — وكلنا عشاق — عليهم يجدون فيها بعض العزاء ويسكبون بعض
 الدموع .

ولقد كنت أسبقهم إلى البكاء فى مبكى العشاق .
 إن فى البكاء نشوة .

والدموع ضريبة الحب يدفعها العاشق راضيا مختارا منشدا مع الشريف
 الرضى .

الماء عندك ميسدول لشاربهه وليس يرويك إلا مدمعى الباكي

« يوسف السباعى »

أريد الحياة

هذه قصة امرأة تريد الحياة .

تريدها لأنها تحب وتحب .

ولقد تمكنت عندما سمعتها أن أهبها نصف عمري لتعيش به .

ما الحياة ؟ وبم يقاس عمر الإنسان فيها ؟

أيقاس بالأيام والسنين التي تمر بنا ونحن على قيد الحياة نتنفس ونتحرك ؟

ونظهر بمظاهر الكائنات الحية ؟

أيقاس عمرنا بتلك الفترة من الأعوام التي نقضيها في الأرض منذ نخرج إليها

إلى أن نتوَّى في باطنها ؟ أيقاس العمر بفترة من الزمن ؟ أم بعدد من الأحداث

والمتع ؟

أيهما أطول عمرا وأكثر وجودا في الحياة : إنسان يعيش مائة عام جوفاء

خالية . أم إنسان يعيش بضعة أعوام حافلة زاخرة ؟

أيهما أكثر ربحا من الأرض : طاوى السنين في صحراء جرداء قاحلة مقفرة ،

لا ماء فيها ولا رواء ولا ظل ولا ثمر بل ملل وسآمة وفراغ وعدم ؟ أم عابر

روضة فيحاء مورقة ناضرة لا يجاوزها إلا وقد أطفأ من مائها غلته وأشبع من

ثمارها نهمه ؟

أيهما أقر عينا وأنعم بالا : طاوى الصحراء أم عابر الروضة ؟

كم طافت بذهنى المكدود هذه الأسئلة ، وكم حمل الجواب إلى نفسى عزاء بدد

منها اليأس ورفع عنها الخور والضعف .

أجل .. وماذا أريد بطول العمر ؟ وماذا أبغى من تلك السنين الطوال ؟

ماذا يضيرنى أن تكون أيامى في الحياة معدودات ، مادمت قد جعلت من

— ١٠ —

نفسى فيها عابرة روضة مليئة بالمتع والملذات ؟
 ماذا يضيرنى مادامت نفسى لن ينتهى بها الأمل إلا وقد عبت من اللذات
 أقصى ما يستطيعه إنسان ؟
 ماذا أخشى من قرب النهاية ؛ مادمت سأجنى فى أيام قصار ، متع الأعوام
 الطوال ؟

كيف أخاف قصر الأجل ، مادام العمر لا يقاس بفترة زمن ، بل بعدد من
 المتع . إننى أستطيع أن أنال من المتع فى أجلى القصير ما يعجز غيرى الحصول عليه
 فى آجال طويلة !

* * *

أنا إنسانة محدودة الأجل ، إنسانة مريضة بذات الرئة ، أعرف تماما أنى أقف
 على عتبة الموت ، وأن بينى وبين النهاية خطوات معدودات !
 هل تدركون معنى أن يحس الإنسان الذى يموت أنه سيموت ؟
 هل تستطيعون أن تتصوروا كيف ينظر المرء إلى الحياة وهو يعلم أنه خارج
 منها بعد هنيهات قصار ؟
 لا أظن ! فهذه أحاسيس من الصعب تصورها ، أحاسيس لا يدركها
 إلا من مسه الضر فعلا .
 إنى لأذكر كيف عرفت جلية الأمر ، وكيف كان وقعه فى نفسى أول مرة .

* * *

أنا مريضة بالسل !
 لم أصدق نفسى بادئ الأمر . لقد شاهدت فى المسرح وقرأت فى الكتب
 كثيرا عن مريضات بالسل . وكان يدولى إذاك أن تلك المآسى لا تحدث إلا فى
 الروايات وأنها تخلق لكى يحرك بها الكتاب نفوس النظارة والقراء . ثم سمعت بعد
 ذلك عن امرأة تعرفها أصيبت بالسل ، فتملكنى الجزع ، وكنت أنظر إليها فى
 دعر كنتظرنى إلى ميت يتحرك ، وأحس برعدة فى جسدى كلما ذكرتها .

تلك هى كل علاقتى بهذا المرض قبل أن أقع فريسة له . فقد كنت فتاة غريبة مدللة مرفهة . موفورة الصحة ، لا تبدو عليها مقدمات مرض ولا بوادر سقم ، اللهم إلا رقة فى الجسد ونحول طبيعى لا يثير الشكوك .

كنت فتاة ملاً نفسها الأمل ، وملأت ذهنها الأمانى العذاب الطوال العراض التى لا حد لها ولا نهاية . فتاة وهبها القدر كل ما تشتهيه الفتيات . وحيدة أب جم الثراء ، لا هم له إلا إرضائى وإسعادى .

كنت أرى الحياة مرتعا خصبا ، لا تلوح فيها بادرة حرمان ، ولا يخشى أن ينضب لها معين أو يجف نبع . بل كل ما فيها يتدفق بالرضاء والهناء .

تصوروا بعد كل هذا أننى وجدت نفسى الغريبة الحسنة الظن بالحياة ، وقد أصيبت بالسل !

* * *

بدأ الأمر فى يوم شعرت خلاله ببعض التعب ، وانتابنى سعال خفيف انتهى بأن بصقت دما .

ولم أنزعج ، ولم يصبنى أقل ذعر ، فقد كان المرض الخفيف أبعد ما يكون عن ذهنى . وكنت أعتقد أن الأمر لا يزيد على جرح أو خدش فى الفم .

حتى رآنى أبنى .. فبدأ إلى كائنات قد سُدَّ إلى صدره سهم مسموم ، وأذهلنى ذلك الجزع الذى أصابه !

كان هو أدرى منى بما حدث . فلقد كانت تلك هى الطعنة الثانية التى يسددها إليه القدر . أما الأولى فكانت حين أصيبت أُمى وهى فى ريعان شبابها بذلك الداء الخبيث !

وحاول أبى بعد ذلك أن يسيطر على نفسه ويكبت جزعه ويخفى مخاوفه . ولم أكن حتى ذلك الوقت قد استطعت أن أتبين حقيقة ما بى ، فقد كنت أجهل أن أُمى ماتت بذلك الداء ، فعملت ارتياح أبى وفرط خشيته على بفرط حنانه وحب وعطفه على وحيدته فى الحياة .

وأمرت بالرقاد والراحة ، وتوالى على الأطباء . وبدالى من جو التوتر الذى أحطت

به أن الأمر أخطر مما أظن وخيل إليّ من ذلك الهزال الذى أصاب أبى أنه يعانى قلقلًا شديدًا . وأن الأيام القليلة الأخيرة التى تلت ذلك قد فعلت به ما لم تفعله عشرات السنين .

ومرت الأيام . وبدأت أستمع من وجوه الأطباء ومن همساتهم أنه لم يبق هناك أمل ولا فائدة من العلاج !
ولم يكن هناك شك فى أن أبى قد أدرك ذلك أيضًا ، فقد صرخته الصدمة ، وألقت به طريح الفراش فاقد الوعي !
وبعد بضعة أيام ، فارق الحياة !

* * *

وهكذا تركنى أبى وأنا فى شبه ذهول من أثر الضربة القاصمة التى نزلت بى ، لا أكاد أستبين موقفى فى الحياة .

ثم أخذت أفيق لنفسى شيئًا فشيئًا ، فإذا بى أراى فى موقف عجيب !
لقد وهبتنى الحياة كل متاعها ، إلا شيئين : العمر ، والحب !
وجدت نفسى فى مطلع الصبا ، ذات جمال ، ومال . أملك القصور والضياح ، وعندى الخدم والأتباع وأستطيع أن أفعل كل ما أريد وأجلب لنفسى كل ما أشتى ، إلا شيئين : بضع سنين من العمر ، وبضع نفحات من الحب !
كنت أعرف أن الشفاء لا أمل فيه ، وأن كل ذلك الجهد الذى يبذله الأطباء لا غرض منه إلا تأجيل النهاية المحتومة !

يا للغباء ! ويا للحمق ! أى جنون هذا الذى أفعله . أضع ما تبقى لى من عمر ، فى قيود الأدوية والعلاج والنظم الثقيلة ؟ فأعيش إن عشت وأنا والأموال سواء ؟

أنفق العمر القصير فى مضجع داجى الظلام ، طمعًا فى بضعة أيام أقضيها فى نفس المضجع ؟ أأحرم نفسى من متع الحياة لأستزيد من حياة كأنها العدم ؟
وبدأ السؤال يطوف بذهنى المكدود ويترك نفسى الحائرة :

ما الحياة ؟ .. وبم يقاس عمر المرء فيها ؟
أيقاس العمر بفترة الزمن التى يقضيها الإنسان حيا ، أم بعدد المتع التى
يستطيع الحصول عليها ؟

ووصل إلى الجواب يحمل العزاء والسلوان .
لا تضق هما بأمس وغد — أمس ولى ، وغد : لم يولد !
ويلتا إن ضاع يومى من يدى

أجل . إن يومى ملء يدى ، فويلتا إن ضاع منها ومضى !
إنى وحيدة فى الحياة ، ولا أمل فى حب إنسان ، ولا أثق فى حب إنسان ! أى
أحمق يقدم على حب مخلوقة مصدورة على خطوة من الموت أو خطوات ؟ ماذا
أرجو من الحياة بعد ذلك أكثر من أن أشبع من لذاتها نهمى ، وأعب من متعتها
ما استطعت ؟

لقد وجدت نفسى محرومة ولم تبق أمامى إلا لحظات خاطفة سريعة الزوال ،
فمن الجنون أن أتركها تمر ، وأنا مستسلمة لذلك الحرمان ؟
وألحت الأفكار على نفسى التعسة الحائرة ووجدت هاتف الموت يصيح لى :
اتركى الفراش ، فرى من هؤلاء الأطباء الحمقى المجانين الذين يضيقون عليك
الحناق ، لا تدعى بقية العمر تذهب سدى ، ماذا تحشين وأنت لا بد ميته ؟
انطلقى . انطلقى !

وهكذا استقرى رأى على أن أستمتع بما تبقى لى من عمر ، وألا أخرج من
الحياة إلا وقد أفرغت كأسها فى جوفى حتى الثمالة !
لقد صممت على أن أتحدى القدر ، ولا أطأ طيء له رأسى . إذا كان قد أبى على
الحياة فلماذا لا أنتزع منه متعة الحياة ؟ وإذا كان قد حرمنى لذة السنين الطوال ،
فلماذا لا أستخلصها كلها من برائه فى ليالٍ قصار .

أيها القدر الغشوم : إنى الراجحة فى النهاية .. وسأعرف كيف أسخر منك أيها
الساخر الشامت . فما عاد لى من طمع إلى طى السنين فى صحرائك القاحلة ،

وحسبى هنيهات خاطفة أقضيها عبر الرياض ذوات الأفنان والثمار !

* * *

وانطلقت في الحياة انطلاقة عجيبة ! وما أحسب أن من السهل أن أصف
نفسى أو مشاعرى خلالها .

ترى كيف كنت وقتذاك ؟

هل تستطيعون أن تتصوروا إنسانة فاقدة الوعي منهكة القوى مبهورة الأنفاس
محطمة الأعصاب ، تعدو ، وتعدو ، وتعدو . لا تهدأ ولا تستريح . لا تحس
حولها إلا بأشباح ضاحجة صاخبة ، ولا تبصر أمامها إلا فوهة فاغرة لقبر قائم
الظلمات ؟

كان أول ما فعلت أن استغيت عن الأطباء ، وحطمت تلك القيود التى
كبلونى بها ، وأنبأتهم بأنى سأسافر للعلاج فى الخارج ، ثم حولت كل ما أملك
إلى نقود يسهل على صرفها . وبدأت رحلتى إلى الخارج فعلا . ولكن
لا للعلاج بل للأنهالك فى كل متعة تحرم على مخلوقة مثلى .

وأخذت أنتقل من بلدة إلى بلدة . أبعثر الأموال بغير حساب ، لا هم لى
إلا أن أمتع نفسى بلا قيد ولا حد . لقد ركلت العقل والتقاليد ، وجردت
نفسى من كل شىء إلا الرغبة فى المتعة . واندفعت فى استهتار وجنون أفعل كل
ما يحلو لامرأة مطلقة السراح ، وفيرة الثراء .. لا يعوقها عائق ولا يقف فى
سبيل شيطانها حائل !

لقد شربت حتى ثملت ، وغنيت ورقصت ، وتقلبت فى نعيم القبلات
والعناق .. ولكن : أى نعيم هو ذاك ؟

أية متعة تلك يمكن أن تصيبها حطبة جامدة الحس فاقدة الشعور ؟
كلا ! .. إننى لم أستشعر أية متعة فى كل ما فعلت . ومع ذلك ظلمت أندفع
فيه بلا تفكير !

وكأنما اشتدت اللهفة على الخلاص من الحياة ، فرحت أستحث النهاية

وأتعجل الموت !

لقد بدت لى الحياة كريمة بغیضة ، ولم أجد سببا یحملنى على التعلق بها . حتى اللذات والمتعات التى ظننت أنى أستطيع أن أسترقها قبل الرحيل ، بدت لى زائفة تافهة !

أتدرون ما یحملنا على التعلق بالحياة ؟ .. أتعرفون ماذا یشدنا إليها ویخيفنا من الخروج منها .

إنه شىء واحد : هو صلتنا بمن حولنا . هو حبهم لنا ، وحبنا لهم !

إننا نحب الحياة لأننا نحب من فيها ویمینا من فيها !

إننا نكره أن نغادرها لأننا نخشى ألم الفرة ومرارتها !

سلوا الأب : لماذا یخشی الموت ؟ یمیکم بأنه یخشاه لأنه یمحب أولاده !

سلوا الأم : لماذا تفزعها النهایة تمیکم بأنها تفزع من أن تحرم فلذات كبدها .

سلوا المحب : لماذا یمحب الحياة ؟ یمیکم بأنه یمكره أن یمارق من یمحبهم فى

الحياة !

وأنا : ماذا یخيفنى من الموت ویمحب إلى الحياة ؟ .. لا شىء .

إننى لا تربطنى بإنسان ما فى الحياة سوى صلة النفع والمادة .

كلا .. أنا لا أريد الحياة .. لا أريد حياة لیس فیها قلب یمحق لى ، ولأ صدر

یمحو على ولا عین تبكى من أجلی !

لقد حاولت بالمال أن أبتاع متع الحياة ، فوجدتها متعا زائفة باطلة ،

ووجدتنى فى حاجة إلى شىء واحد هو الذى یمستطیع أن یشد أزرى ویمیننى فى

البأساء : هو قلب محب !

ولكنى للأسف لم أستطع ابتیاعه .. وأسوأ ما فى الحياة أن الإنسان لا یمستطیع

ابتیاع الحب .. الحب الذى هو ألزم له من الماء والهواء !

وهكذا استمررت فى إغراق الجنونى وإفراطى الیائس ، حتى أحسست أنى

قد شارفت النهایة ، وأصبحت حطاما بالیا ولم یمق لى سوى أن أرقد وأنتظر

الموت .

وبدأت أعود أدراجي إلى الوطن ، فقد شعرت بالحنين إليه والرغبة في أن
أموت بأرضه !

* * *

وسارت الباخرة تمخرى عباب اليم وقد تملكني من فرط الضعف والتعب
ما أشعرنى بأني أرقد في نعش يحملني إلى مثواي الأخير !
ولم أعد أحس حزنا ولا ألما ولا يأسا .
إنني لا أريد الحياة ، وهي الأخرى لا تريدني ! .. ولقد هيأت نفسي تماما
للخروج منها ، ولم يبق إلا أن تصل السفينة فأصل إلى شاطئ القضاء .
هذا كل ما أردته من القدر . نهاية صامته ساكنة ، فهل تراه قد وهبني
ما أردت ؟

متى كان القدر يهب الإنسان ما يريد ؟ لقد بخل على حتى بهذه النهاية
البسيطة !

ونخيل إلى أنه يهتف بي ساخرا قائلا : « لن أتركك تذهبين هكذا بسهولة
أيتها الحمقاء » !

وكأنما بعثني سخريته ، ونفخت في روحا جديدة ، فإذا بي أتعلق مرة
أخرى بخيوط الحياة ، بعد أن زهدت فيها وأعددت نفسي للخروج منها !

* * *

في منتصف ذات ليلة ، كنت مضطجعة على مقعد طويل فوق ظهر
السفينة ، وقد سادت وحشة رهيبة واشتدت حلكة الظلام فلم أعد أبصر سوى
نجوم تضاعل بريقها ، ولا أسمع سوى عصف الرياح وزجرجة البحر وأنين
محركات الباخرة الخافت الرتيب .

وأخذتني نوبة سعال حادة ، وأحسست أنها تكاد تودي بالبقية الباقية مني ،
وارتميت على أثرها مبهورة الأنفاس ، خائفة القوى . فلما أفقت أحسست يدا

تمسح على جبينى فى رفق وحنو ، وسمعت صوتا يهمس لى فى رقة :
— ماذا بك ؟

ولم أجد داعيا لأن أقول لذلك الغريب ماذا لى . وماذا يملك هو أو غيره
لينقذنى مما لى ؟

وهكذا ما كدت أفتح جفنى الثقيلين حتى أغمضتهما وأطبقت شفتى من
جديد مستسلمة لما اعتقدت موقنة أنه النزع الأخير !
وأفقت مرة أخرى ، فإذا لى أشعر وأنا مازلت فى شبه غيبوبة بأن ذلك
الغريب نفسه يحملنى بين ذراعيه فى حنان .

وفى الصباح استيقظت على صوت طرقات خفيفة ، ثم لحت وجهه يطل من
الباب ، فما أن أدرك أننى أفقت حتى وقف متهلل الأسارير ، وقال فى صوت
رفيق .

— لعلك بخير الآن ؟

وتذكرت ذلك الوجه ، فقد لفت نظرى قبل ذلك مرات على ظهر السفينة .
وجاهدت لكى أجيب : « شكرا لله ولك ! » .

ولبت لحظة واقفا صامتا ، حتى أوامأت إليه بأن يجلس فاقرب من سريرى ،
واستأنف حديثه باللهجة الرقيقة نفسها ، فواسألى بكلمات لطيفة مشجعة ، ثم
عرفنى بأنه طبيب عائد من بعثة طويلة فى إنجلترا . وتفضل فأمضى فى تمرىضى
والترفيه عنى أكثر ذلك النهار .

وفى المساء كنت قد شعرت بغير قليل من التحسن فغادرت حجرتى ،
وجلس فى المكان الذى تعودت الجلوس فيه . وسرعان ما رأيته مقبلا فحيانى
وجلس بجانبى وهو يهمس قائلا :

— إن الجو رطب ، ويحسن أن تعودى إلى حجرتك ..

وكدت أقهقه ساخرة ثم أجيبه قائلة : « أنا الغريق فما خوفى من البلل » .
ولكنى أجبته قائلة :

(مبكى العشاق)

— شكرا ، . لن أطيل الجلوس هنا أكثر من دقائق .

وعاد هو يقول :

— لا ، لا ، إما أن تعودى الآن ، وإما فاسمحي لى أن أضع سترقى على كتفيك .

ولم ينتظر إجابتى ، بل قرن القول بالعمل فترع سترته ولف بها كتفى . ثم راح يحدثنى . وأنا أشعر بارتياح يشوبه الأسف ، إزاء صوته الرقيق الحنون ونظراته المليئة بالإخلاص .

لقد أحسست أنى أندفع نحوه كشهاب يهوى ، وبت أخشى أن أجده فيه ذلك الشيء الذى طالما افتقدته . الشيء الذى يستحق أن يعيش الإنسان من أجله ، ويجعلنا نتعلق بالحياة !

أجل ، لقد أوجست منه خيفة لأنه قد يجعلنى أريد الحياة ! وأوصلنى إلى حجرى بعد قليل ، ولم يتركنى حتى اطمأن إلى أننى بخير . وفى اليوم التالى زادت ملازمته لى ، فجاء وصحبنى إلى مجلسنا بالأمس ، وراح يقول :

— إن خير ما يحصل عليه الإنسان فى هذه الحياة .. شريك يعينه على حمل أعبائها !

وسارعت إلى الإجابة قائلة :

— أجل .. ما من شك فى ذلك .

وندمت على تسرعى ، إذ استأنف حديثه يقول :

— ولكن هل من العسير علينا أن نجد الشريك الملائم ، الشريك الذى خلق من أجلنا وخلقنا من أجله ، أو ما يسمونه النصف الآخر ؟ وأطرقت برأسى ، وشعرت بدقات قلبى تشتد وتسرع .. وعاد وهو يتم حديثه قائلا :

— إنهما قد يلتقيان ، ولا تعود هناك قوة تستطيع التفرقة بينهما .

ووجدتني أردد قوله كأنما أحدث نفسي :

— قد يلتقيان ..

وعاد هو يهمس في صوت عميق يخرج من حنايا صدره :

— كما التقينا .

ومضيت أنا على غير إرادة مني أردد عبارته « ولا تعود هناك قوة تفرق

بينهما » . ثم أردفت قائلة : « إلا قوة واحدة » .

ومضت لحظة صمت فيها كلانا حتى عدت أتمم حديثي فقلت :

— تلك هي قوة الموت .

وهنا نهض من مجلسه ، وربت على كتفي في حنو قائلاً :

— لا تحدثني عن الموت .. تحدثني عن الحياة والحب والأمل !

وهزئت رأسي في يأس ، ثم نظرت إليه نظرة شكر عميقة وقلت :

— إنني مع الأسف لا أصلح لأن أكون نصفاً لأحد إنى مخلوقة فانية .. لقد

أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النهاية !

وبدأت أقص عليه قصتي البائسة ، ومضى هو يصغى ويحاول بكل براعته

ورقته أن ينحى عني أشباح اليأس والظلام .

ولست أدري كم من الوقت مضى ونحن في ذلك الحديث . ولكن لحظة

الصمت التي أعقبت ذلك الحديث ، لم تطل إذ أحسست بيده تضغط يدي في

رفق ، ثم رفعها إلى شفثيه وشعرت بقطرات من دمع تبللها وسمعتة يهمس :

— ماذا فعلت بنفسك .. كيف أقدمت على كل هذا ؟

— ليس هناك ما يستدعي الندم ، لم يكن هناك مفر من النهاية . لقد كانت

آتية لا ريب فيها . فسلكت إليها أقصر الطرق .. لقد فقدت الأمل ولن يعود !

وسارع إلى قطع حديثي قائلاً :

— من قال هذا ؟ من يجسر أن يقول إنه ليس هناك أمل . أليس في السماء إله

رؤوف رحيم ؟ .. كيف يستطيع مخلوق أن يفقد الرجاء ويحكم بنهاية الحياة ؟

— ٢٠ —

ثم ضمنى إلى صدره في رفق ، وهتف لى في صوت ملؤه الحرارة والإيمان :
— لن تموتى ! ستبقين من أجلى ومن أجل نفسك ! أنت تستحقين الحياة
ولا بد من الحياة !

* * *

أجل .. إني أستحق الحياة . ولا بد لى من الحياة .. ألم أشعر بالحياة تسرى في
جسدى كله وهو يضمنى إلى صدره ويهتف لى :
(إنى أريدك) .

إنى أريد الحياة ، أريدها كما لم أردّها من قبل ، وكما لم يردها أى إنسان ..
أريدها بكل قواى !
أريدها لأنى أحب وأحب .

ألا يكفى هذا سبباً لكى يريد أى إنسان الحياة ؟ .. فما بالكم بإنسانة محرومة
لم تذق الحب قط ؟ !

وعدنا إلى اليايسة فأنزلنى فى أحد المستشفيات ، وفرض على أوامره فرضاً
فقد أصر على أن ينتزعنى من برائن الموت .

إن الأيام تمر وهو لا يفارقنى لحظة فقد بت أنا كل شغله فى هذه الحياة .
ما أجمل أن يجد الإنسان إنساناً يحبه لنفسه ويضحى براحته وبكل ماله من
أجله ، دون أن يسأله مقابلاً !

هل يمكن أن يطعم الإنسان من الحياة فى أكثر من ذلك ؟ وهل هناك
ما يوهب للإنسان أئمن من الحب ؟

أجل .. لأننى أريد الحياة ، فأنا أكره أن يمر منى الموت مما أنا فيه من متعة ..
أريد أن أبقى للحب !

* * *

هذه هى قصة الفتاة التى أرادت الحياة ، فكيف كانت خاتمتها ؟
لقد تمنيت — كما قلت لكم — أن أهبها نصف عمرى لتعيش به . وتتمتع
بحياتها وبحبها . ولكن هل يسمح لنا القدر بأن نوزع أعمارنا حسبما نشاء ؟

— ٢١ —

لو فعل ، لانتحيت من الدنيا المآسى ، وعم الهناء .
ولكن ماذا يمنعها من أن تعيش ؟
أهو حكم الداء ، واستفحال العلة ؟
ولكن الحب ، وما فى الحب من إيمان وأمل ، ألا يعاونها هذا على مناضلة
الداء ؟
وهذا الطبيب العاشق المؤمن المكافح : ألا يستطيع أن ينتصر على المرض
وينتزعها لنفسه من بين برائن الموت ؟
ثم أمر آخر كدت أنساه : أأست أنا صاحب القصة وخالق بطلها والمتصرف
فى مصيرهما ؟
إن المرأة تريد الحياة ، وهى عندى تستحق الحياة . لذلك سأهبها الحياة !

سكينة

استعان بالله وملائكته ورسله وبذكرى زوجه
الراحلة .. وبمركزه كرجل محترم .. وبكل شيء يمكن أن
يخطر على البال .. ولكن الصدر المكتنز المتأرجح داخل
القميص المبتل وباطن الفخذين الأملس اللين الدافئ ..
كان أشد فتكا وأمضى سلاحا ..

أيمكن أن يكون ذلك حقيقة ؟

أبمثل هذه السرعة ينتهى كل شيء .. ؟

إن المسألة كلها تبدو له كحلم مزعج أو كابوس مخيف فمن العسير عليه أن
يقنع بأن ما حدث كان من الواقع في شيء . وأنه يعود إلى الدار وحده بعد أن
شيّعها « لنوى لا يرتجى منها ارتجاع » .

إنه موقن تمام اليقين أنه سيجدها في الدار .. وأن صوتها سيعلو في غضب
مستحب سائلة إياه عن سبب تأخيرها وهل أحضر لها ما طلبته أم نسي كعادته .
ثم تبدأ في قص نوادر نبيل وتصحبه إلى فراشه الصغير حيث يقفان يتأملانه معا ..
إن الموت أمر من العسير قبوله أو التسليم به . أفي لحظة يكون أحباؤنا ملء
أبصارنا وملء أسماعنا .. وفي اللحظة التالية يصبحون وكأنهم « شعل البرق
خبث بعد التماح » .. !

لقد قضى يومه وكأنه في غيبوبة .. يذهب ويحيى .. وينظر ويسمع ويتكلم
وكانه ليس هو .. وكأن الأمر لا يعنيه .. والمصاب ليس بمصابه . والميت
غريب عنه . وكأنه مجرد مشاهد يرقب مسرحية ..

كان مأخوذا مشدوها .. لم يبك ولم يصرخ . فقد رفض ذهنه أن يقبل فكرة
موتها وما يعقبه من فرقة أليمة مريرة . لقد جمدت مشاعره وتبلد حسه . ولم

يحاول قط أن يفكر في أن الميتة هي هي .. ولا أن يتصور أن هذا النعش الذي يتحرك أمامه قد طوى جسدها الغض .. وأن هؤلاء المشيعين المعزين قد أقبلوا لتعزيتة هو . ومن أجلها هي .. كل هذا لم يحاول أن يتصوره أو يفكر فيه .. بل كان يرمقه في صمت وجمود .. منتظرا أن ينتهي هذا المشهد الكريه .. وينتهي هو من تأدية دوره في استقبال الوفود والشد على أيديهم .. منتظرا أن يصمت هذا الفقيه وتطفأ هذه المصابيح ويهدم هذا السرادق حتى يعود إليها لتستقبله في غضبها اللذيد وتسأله لم تتأخر . وتمد ذراعيها لتحيط بهما عنقه وتطبع على فمه قبلتها الحلوة ..

كان ينتظر أن يستيقظ ليجدها بجواره وينبئها عن هذا الحلم البغيض .. ولكن لا .. لا .. إنه لن ينبئها . فهو يكره أن يمس نفسها حزن أو يصيبها ضيق . لن يحدثها قط عن هذا الكابوس الخفيف ..

والآن وقد صمت صوت الفقيه وانفض الجمع وأزيل السرادق وعمت الظلمة .. ما باله يجد نفسه ما زال مستيقظا .. يتحرك على ساقيه ويشعر ببرودة الجوف من حوله ، ؟ ما باله يطرق الباب فلا يجيبه سوى صوت سكينه الخادمة .. ؟

أيمكن أن يكون حقا قد شيعها إلى مثوى أخير ورقدة أبدية .. ؟ أيمكن أن يكون قد تخلفها في حفرة ببطن الأرض وعاد وتركها وحيدة وسط المقابر الموحشة والرمم البالية ؟
أجل .. ممكن جدا !

فهو لا يرى لها أثرا في الدار . لقد فتحت له سكينه مطرقة الرأس مقروحة الجفن متشحة بالسواد .. ووقفت أمامه صامتة لا تنبس بمنت شفة ..

وقفز على شفتيه ذلك السؤال الذي كان يطن في رأسه وهم بأن يسألها إياه :

« أين سيدتك » ؟

ولكن السؤال الأحق جمد على شفتيه ..

ما الفائدة ..؟

ما فائدة المغالطة والإنكار ؟ كل شيء ينطق أمامه ليصرخ به في نحيب وأنين
إنها لم تعد هنا . ولا حتى هناك .. حيث تركتها .. فهي لا تملك أن تكون هنا
ولا هناك لأنها أضحت شيئاً غير كائن . أو على الأصح لا شيء .. لقد فرغت ،
انتهت ، لا صوت ولا شبح ولا أثر ..

وبلا إرادة ولا وعى ساقته قدماه إلى حيث تعودت أن تسوقه هي .. إلى
فراش نبيل .. وعلى الضوء الخافت وقف يتأمله في صمت ..

أجل .. في صمت مطبق أليم .. فقد خفت الصوت العذب الحنون الذي
تعود أن يقص عليه طرائفه ونوادره . والذي تعود أن يفرقه بأرق ألفاظ التدليل
وأعذبها ..

ووسط السكون الموحش والصمت المخيف وصلت إلى أذنيه أنات متقطعة
وصوت بكاء متحشرج مكبوت . وتلفت بجواره فإذا بها سكينه وقد جثمت
على الأرض بجوار الفراش وأخذ جسدها يرتجف ويتنفض ..
أمرها بأن تكف عن البكاء وتذهب إلى فراشها . ولكنها لم تتحرك بل أنباته في
ذلة أنها ستنام حيث هي .. عند قدمي نبيل .. فقد يستيقظ في الليل ، وقد يسأل
عنها أو يطلب حاجة ..

وتركها ترقد حيث تشاء . وذهب هو ليضطجع بملابسه على الأريكة ..
لقد كان من العبث أن يحاول النوم .. وأن يرقد في الفراش ليجد مكانها بجواره
موحشا خاويًا .

* * *

ومضت بضعة أيام كان يتحرك فيها كأنه شبح أو خيال لا يكلم أحداً
ولا ينصت لأحد .. دائم الشرود والذهول . ثم بدأ يفيق لنفسه ويتخلص من
تلك الغيبوبة الجاثمة على ذهنه ويفكر فيما أضحى عليه .

لقد بدأ يعترف بأن امرأته ماتت .. وأن عليه أن يحتمل الفراق . ولقد كان

الأمر محتملا بالنسبة إليه .. فهو يستطيع ان يصبر ويتجلد . ولكن عندما كان يفكر في ابنه كان يجد العبء أثقل من أن يحتمل .. والمصاب أفدح من أن يهون ..

كانت المسألة — حتى إذا جردت مما بها من أحزان وأشجان — مشكلة عويصة .

لو كانت أمه أو أمها على قيد الحياة لأصبح الأمر محتملا ولاستطاع أن يعهد بالطفل إلى أحدهما لتتولى تربيته ورعايته وتعوضه عن حنان أمه .. أو حتى عن بعض منه ..

وهو كذلك لا يستطيع أن يبقى دائما بجواره .. فإن طبيعة عمله تقتضى منه أن يقضى نصف الأسبوع في المرور على مختلف المناطق والبلاد .. فإما أن يأخذه معه — وهو في الثالثة من عمره — في كل جل أو ترحال . وإما أن يستقيل من عمله ليموت الاثنان جوعا ..

لم يبق أمامه سوى حل واحد هو إحضار امرأة غريبة لتتولى أمر هذا الطفل ورعاية شئون البيت ..

والمرأة الغريبة لا تجلب إلا بطريقتين : إما بأجر أو بعقد، وإما مربية أو زوجة ..

أما الطريق الأخير وهو الزواج فقد كان أبعد ما يكون عن ذهنه . فما كان يستطيع أن يحتمل مجرد التفكير فيه . ولا كان يستطيع أن يتصور أن تحمل امرأة محل زوجته الراحلة العزيرة لأى سبب مهما كان .. إن مكانها يجب أن يبقى شاغرا إلى الأبد .. إن ذكرها أعز من أن يضحى بها في سبيل أى إنسان حتى ولو كان ابنه ..

إذن فلم يبق أمامه سوى الطريق الأول وهو استئجار مربية . ومن الخير أن تكون مربية أجنبية عجوزا يستطيع أن يعهد إليها بتربية الطفل وهو مطمئن .. ومرت الأيام وهو يبحث دون أن يجد المربية المطلوبة .

وفي ذات يوم عقب الغداء سأل نفسه السؤال الذى لم يحاول أن يسأله أو يفكر فيه من قبل ..

كيف يعيش الآن وكيف تدبر شئونه ..
لقد مضى عليه ما يقرب من شهر والحياة تسير .. لم تعطل أو تتوقف . وابنه على خير .. لم يجمع ولم يمرض ولم يموت ..
إنه ينتظر المربية لتدبر أمره .. ولكن لم يحاول أن يسأل نفسه كيف دبر حتى الآن ..

مخلوقة واحدة هى التى دبرت أمره وأمر ابنه وأمر الدار . وجعلت الحياة تسير على قدر جهدها ..

حقيقة أنه أعفى مؤقتا من السفر . ومكنه ذلك من البقاء بجوار ابنه .. ولكن ذلك لا يعنى أنه قام بأمر داره وأنه كان يفعل لابنه كل شئ ..

لقد كانت سكينه تطبخ وتنظف البيت وتعد الطعام لنيل وتطعمه وتدلله وتهبى له فراشه .. فلم تشعره بعبثه مرة واحدة .. بل كانت تعمل كل ما تعمله فى استكانة وصمت كأنها آلة تتحرك ..

عجبا .. إنه لم يكن يظنها بهذه المهارة .. لقد كانت تبدو له دائما شديدة البله قليلة الحيلة سيئة التصرف .. وهو لا يزعم أن مظهر البله قد ذهب عنها .. ولكنها مع ذلك لا تكل ولا تمل .. كأنها حيوان مخلص أمين ..

ولقد أصبح طبخها مستساغا . رغم أنها حرقت بضع مرات .. وبدأت تعرف مطالبه وحوائجه . وذهب عنها الكثير من الغباء والبلادة .

إنها هى التى جعلت حياته مستمرة فى السير . ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يركن إليها إلى الأبد .. فلا بد له من المربية .. من أجل نبيل على الأقل إذ من الجنون أن يعهد به إلى مثل هذه البلهاء مهما كان إخلاصها ونشاطها . وهو لا يستطيع أن يسافر ويتركها وحدها فى البيت ..

ومع ذلك فقد أجبرته الظروف على تركها .. فقد فوجئ فى اليوم التالى بأمر

بالسفر العاجل .. ولم يكن هناك مفر من السفر وترك الطفل والبيت لسكينة وحدها .

وعاد من سفره على عجل وقد تملكه الخوف والقلق .. ولكنه وجد الحال على خير ما يرام .. ورأى كل شيء مرتبا والطفل نظيفا ضاحكا . والدار لا تكاد تفترق عما كان يجدها عليه عند عودته في كل مرة سوى أن المخلوقة الحلوة الضاحكة النبيلة الجميلة قد استبدل بها مخلوقة صامتة واجمة مطأطئة الرأس قد انزوت برثائها وبلاهة منظرها داخل المطبخ منهمكة في الطبخ أو في الغسل . واستقر رأيه نهائيا على ألا يحضر مربية .. بل يكل أمر البيت إلى سكينة — وخاصة بعد ما رأى من تعلق الطفل بها — وصمم على أن يستبدل بالمربية خادمة صغيرة تساعد سكينة في أعمال الدار ..

وهكذا استقرت به الحال ومرت الأيام وسكينة تدبر شئونه وبدأ هو يطمئن إليها رويدا رويدا .. وازدادت ثقته بقدرتها وأمانتها على مر الأيام حتى أصبح يسلّمها مصروف الدار كاملا ويترك لها حرية التصرف دون أن يناقشها الحساب .. وكان في قرارة نفسه راضيا عن عملها كل الرضاء .. فقد كانت أشبه بحيوان دعوب مخلص وفى . لا تعترض ولا تتبرم . ولا تمل ولا تكل .. شيء واحد هو الذى لم يكن يرضيه .. وهو فرط رثائها وانطوائها وغباء مظهرها ..

لقد ظن أن الأيام ستصلحها وأنها ستستمد من ثقته بها ثقة بنفسها واعتدادا بشأنها وأن مركزها الجديد في بيته ومعاملته الحسنة لها .. سيجعلانها تصلح من مظهرها وتعنى بثيابها .. ولكن الأيام كانت تمر وهى على حالها من الضالة والرثاءة والجبن والانكماش ..

وتركها وأمرها .. فما كان يهيم بمظهرها في كثير ولا قليل .. حتى فوجئ ذات يوم بمرآها وقد جلست أمام طست الغسيل شبه عارية .. لا يستر جسدها سوى قميص خفيف ممزق قد كشف عن ساقها إلى ما فوق الركبتين : وأظهر

جزءا كبيرا من باطن فخذيه .. وعجز تماما عن أن يلم صدرها فبرز منه عاريا نافرًا في أكثر من موضع .

وكان الجو باردا فأذهله مرآها على هذا الوضع من العرى .. وسألها ناهرا متعجبا فيم بقاؤها بهذا القميص الممزق الخفيف .. ولم لم تضع على جسدها ثوبا يسترها ؟

وتملكها خجل شديد وأطرقت برأسها وحاولت أن تشد القميص على ركبتيها وأحنت جسدها حتى تخفى ما ظهر من صدرها .. وأجابت في استحياء بأنها تغسل ثوبها .

وعاد يسألها في دهشة :

— ولم لم تلبسى ثوبا آخر ؟

فكانت إجابتها : أنه لا ثوب لديها سواه ..

وتملكه الحنق من إجابتها وانهاى عليها باللوم والسباب وأنبأها بأنه ليس فقيرا حتى تحاول أن توفر له ثمن ثوب لها ..
إنه يعطيها نقودا كافية لكي تشتري ما تشاء .

ولكنه أدرك بينه وبين نفسه أنه هو المسئول عن ذلك .. لأنه كان يجب أن يفكر فيها . وأن يتناع لها الثياب .. فهي مجنونة بلهاء لا تستطيع أن تخرج إلى السوق لتبتاع ثيابها ..

وكانت نتيجة الحادثة .. أمرين : أولهما أنه انطلق لبتاع لها بضعة ثياب تستر بها جسدها . وثانيهما .. أن ذهنه انطلق به — لأول مرة — يفكر في سكينه .. أجل .. لأول مرة وجد سكينه تتسلل — برغمه — إلى ذهنه وتقتحم عليه تفكيره .. وتشق طريقها إلى رأسه كامرأة ..

ورقد على فراشه وأغمض عينه وحاول أن يغمض ذهنه .. ولكن ذهنه كان قلنا متيقظا .. محملا في صورة لا يبغي عنها حولا صورة سكينه جالسة أمام طست الغسيل .

عجبا .. إنه لم يكن يتصور الفتاة قط .. بمثل هذا الجسد الرائع .. لم يتصور أن تلك الأسماك .. القذرة الرثة .. تضم بينها هذا الصدر الصلب المكتنز الفائز وما ظن أن تلك الأقدام المغرقة في مياه الغسيل تحمل فوقها هاتين الساقين الممتلئتين الناعمتين الصافيتين ..

وأحس بحمى الشوق تعصف برأسه .. لقد كان منظرها بالقميص الخفيف الممزق المبتل وصدرها يتأرجح من خلال فتحاته وهى مطرقة برأسها فى استحياء أشد إثارة من ملكة جمال عارية ..

ومضت به فترة وهو يحاول المقاومة أمام الصورة المثيرة التى تهاجمه فى عنف وأخذ يستعين بكل أسلحة المقاومة .. ويستدعى إلى ذهنه كل وسائل الصد .. استعان بالله وملائكته ورسله وبذكرى زوجه الراحلة .. وبمركزه كرجل محترم .. وبكل شئ يمكن أن يخطر على البال .. ولكن الصدر المكتنز المتأرجح داخل القميص المبتل وباطن الفخذين الأملس اللين الدافئ .. كان أشد فتكا وأمضى سلاحا .. فصرع أمامه كل وسائل المقاومة .. ووجد نفسه فى النهاية يسير كالمحموم إلى فراش سكينه .

لم تقاوم سكينه . لقد كانت دائما بالنسبة لسيدها حيوانا مطيعا وفيا .. يفنى نفسه فى خدمته .. ويذل كل ما يملك فى تأدية واجبه نحوه .. بأمانة ووفاء ورغبة وحرارة .. وفى تلك الليلة أدت سكينه واجبها كأخلص ما يؤدى الواجب .

وهكذا اتضح له أن سكينه تستطيع أيضا أن تدفع عنه عبئا طالما أقلقه وأن تؤدى له خدمة — فوق خدماتها — كان فى أشد الحاجة إليها . وتبى له المطلب الوحيد الذى كان ينقصه .. والذى كان يخشى من أجله .. أن يجعل لابنه امرأة أب .. تنغص عليه حياته ..

ولم يطرأ على الدار جديد بعد أن اتخذت سكينه وضعها الجديد .. وبعد أن أضيف إلى واجباتها الواجب الجديد بل استمر الحال على ما هو عليه ..

واستمرت سكينه هي .. هي . بانطوائها وذلتها لم يزد عليها سوى جددة في الثياب . ونظافة في المظهر .

ووجد الرجل فيها نموذجاً لما يريد .. ولم يعد يقلقه أمر ابنه الحبيب .. فقد كانت سكينه أحن على الطفل من أمه .. وأبر من أبيه .. ولم تحاول قط أن تستغل صلته بها لكي ترفع رأسها وتجعل من نفسها ربة للدار آمرة ناهية .. بل استمرت كما هي الحيوان الدليل الدعوب المطيع الوفي الأمين لا هم لها في الحياة ولا غرض سوى خدمته وخدمة ابنه ..

وكان أكثر ما يطمئنه من ناحية سكينه . هو استحالة زواجه بها .. وضمانه الأكيد بأنها ستبقى دائماً في وضعها الخفيض فقد كانت المسألة من ناحيته هو .. أبعد من أن يفكر فيها مجرد تفكير .. أما من ناحيتها .. فقد كانت بحالتها الراهنة راضية قريرة .

ولاشك أن الحال كان يمكن أن تسير في طريقها الهادئ المنتظم .. لولا أن فوجيء ذات يوم بملاحظة ظاهرة أقضت مضجعه ..

لقد رأى دلائل حمل ..

وجن جنونه .. فقد كانت دلائل حمل غير قريب .. إذ بدا انتفاخ البطن جلياً واضحا حتى لكأنها في الشهر الرابع أو الخامس ..

وسألها ناهراً : لِمَ لم تنبيه في وقت مبكر .. ؟ فنبين له أن المخلوقة البلهاء لا تأبه كثيراً لما بها .. بل إنها راضية سعيدة .. بما قد حملت ..

وبدأ يفكر في الوضع الجديد فأقلقه أيما قلق ..

لـو وضعت سكينه منه ابناً لاضطر إلى زواجها ولاتخذت مكانها في البيت كسيدته . وزوجة أب لابنه .

فإن أمكن التجاوز عن مبلغ ما يشينه من زواج خدام .. فإنه لا يمكن أن يتجاوز عن وضعها الجديد بالنسبة لابنه. إنها لاشك ستغير كثيراً .. فستحول حنانها إلى الوليد الجديد .. وسيصبح ابنه .. ككل أبناء الأزواج .. عدو والدودا

— ٣١ —

لها .. وستنمر في البيت وتستأسد .. ولا تعود سكينه الذليلة المطيعة ..
لا .. لا .. لن يمكن أن يبقى على حملها .. يجب أن يتخلص منه في أقرب
فرصة !

لا بد من عملية إجهاض .. مهما كانت نيتها ..
وناداه إلى حجرته وقال لها بلهجة آمرة :
— ارتدى ملابسك .. لأننا سنذهب إلى الطبيب ..
ولم تتحرك سكينه ولم تغادر مكانها وأطرقت برأسها ثم أجابت بصوت
خفيض :

— إني بخير يا سيدى .. وليس لى ما يستدعى الطبيب .
— سيجرى لك عملية إجهاض ..
وهزت المرأة رأسها .. وبدا عليها أنها لم تفهم ما يعنى فعاد يقول :
— سيخلصك مما فى بطنك .
وتملكها دهش شديد . ووضعت يدها على بطنها فى خوف وتساءلت :
— يخلصنى منه .. ؟ لماذا يا سيدى .. ؟
— لا يجب أن يكون هناك أثر لما بيننا ..
— سأخفيه عندما يولد .. لن يراه أحد قط ..
— إني لا أريده ..
— ولكنى أريده يا سيدى .

— منذ متى كنت تريدن شيئا أيتها البلهاء .. ؟
— هذه هى المرة الوحيدة التى أريد شيئا .. لن أطلب شيئا بعدها .. إني أحبك
يا سيدى .. وأريد أن أحتفظ بما فى جوفى منك .. لن أقلقك من أجله .. سيكون
ابنى وحدى . وسيكون خادمك كما كنت خادمك دائما .. لن أقول لأحد إنه
ابنك .. سأقول إننى حملته من أى عابر سبيل .. هبنى إياه . فهو الهبة الوحيدة التى
سأسألك إياها .. إني أحبه كما أحبك وكأ أحب كل شيء يتعلق بك ..

وفوجئ الرجل من قولها المليء بالحرارة والإخلاص .. كيف تأتى لهذه البلهاء أن تقول مثل هذا الحديث المتأجج الحار .. لقد كان صادرا من أعماق قلبها .. ويحه .. إنه ما ظن أن لمثل تلك الحيوانة الغبية .. قلبا يفيض بالحب .. ولكن .. كان من الجنون أن يضعف أمامها .. يجب أن يكون حازما لا من أجل نفسه .. بل من أجل ابنه .

أجل .. يجب ألا ينساق وراء العاطفة .. يجب أن يكون رجلا عمليا .. إن سكينه يحملها عبء ثقيل .. وإنها بغيره خير ألف مرة منها به .. ونظر إليها وأطرق برأسه .. ثم قال بلهجة صارمة :

— إنى لا أريده .. فإذا كنت تحبيننى فيجب أن تريدى ما أريد .. يجب أن تتخلص منه .. — أمرك يا سيدى .

وكان يعرف أن عملية الإجهاض — وخصوصا فى مثل هذا الوقت المتأخر — ليست بالمسألة السهلة .. وأنه من العسير عليه أن يجد الطبيب الذى يقبل عملها .. وأنه يجب أن يجد طبيبا صديقا يثق به ويطمئن إليه .

وتذكر الدكتور سيد إبراهيم .. ابن خالة زوجته لقد كان الطبيب الوحيد الذى يمكن الاطمئنان إليه .. والذى سيقبل — من أجله — أن يجريها .. فهو رجل شهم كريم .. ولا شك أنه سيقدر ظروفه .. وسيعتبر الدواعى التى تجبره على إجراء العملية ..

وسارت سكينه بجواره مطرقة صامتة .. وقد ظهر الجمود على وجهها وخلا من أى حس أو تعبير .

ونظر إليها الرجل وهما يقتربان من عيادة الطبيب ... وقال لها فى لهجة عطف :

— إن شاء الله سليمة يا سكينه .. وإنها عملية بسيطة .. إنى لم أكن أصر عليها .. إلا من أجل ابنى .. إنى لا أريد أن تشغلى عنه بغيره ..

— أمرك يا سيدى ..! — ٣٣ —

ودخل الرجل وحده إلى الطبيب وجلست سكينه تنتظر في الخارج ..
وجلس الدكتور يستمع إلى حديثه وقد بدت عليه علامات الدهش ..
وأخيرا قال وهو يهز رأسه :

— خمسة شهور .. إنها عملية غير سهلة ..
— أعرف هذا .. ولكن لا بد من إجرائها .. من أجل نبيل ..

* * *

وأجرى الطبيب العملية ورقدت سكينه مغمضة العينين مسجاة على فراشها.
لقد تخلصت من حملها . ولكن بثمان غير زهيد .. بحياتها ..!
أجل .. لقد لفظت حملها ثم بدأت تلفظ آخر أنفاسها .
وفتحت عينيها وأخذت تقلبها فيما حولها بنظرات زائغة استقرت أخيرا على
وجه الطبيب الشاحب الذى كان يرقبها فى صمت .
وعلا شفتيها شبح ابتسامة ساخرة ثم تمت بصوت ضعيف متقطع :
— دكتور ..

— ماذا تريدن ..؟

— هل انتهت العملية ..؟

— أجل ..

— هل تخلصت مما فى جوفى ..؟

— أجل ..

— آه .. لو يعرف ...!

— يعرف ماذا ..؟

— يعرف أنه تخلص من ابنه .. من أجل ابن رجل آخر ..!

— اصمتى .. يجب أن تكفى عن الكلام حتى تستريحى .

— سأستريح بعد هنيهة .. سأشبع راحة .. تصور .. يا دكتور يتخلص من

(يبكى العشاق)

— ٣٤ —

ابنه من أجل ابنك أنت .. يطلب منك قتل ابنه .. في سبيل رفاهية ابنك ..
تصور هذا !

— اصمتي .. كفى عن الهذيان ..

— لست أهذى .. أنت أدري منى بالحقيقة .. إني الوحيدة التي كنت
أعرف ما بينكما .. إنك تعرف جيدا أن نبيل ابنها منك أنت .. لقد سألته أن
يبقى لى ابنه الحقيقي .. الذى حملته منه فى جوفى .. لأنى لم أخنه ولم أخدعه ..
ولكنه رفض .. لأنى سكينه الخادمة البلهاء المطيعة الذليلة .. !

— كفى عن الهذيان أيتها المجنونة ..

وفتح الباب بهدوء .. ودخل منه الرجل بوجهه الشاحب وقد ارتسم عليه
الفرع وتساءل فى خوف وإشفاق ..

— ماذا بها ..؟

وأجاب الطبيب :

— لا شئ .. إنها تهذى !

ونظرت سكينه إلى سيدها ومدت يدها فأمسكت يده ووضعتها على شفتيها
المطبقتين وأغمضت عينيها .
ولم تنبس بعد بينت شفة ..

حديث أعمى

وبجها .. إنها ما تغيرت قط .. لقد كانت تلك هي
طبيعتها صامته صابرة .. ما أجابتنى على لطمتها الأولى في
الصغر ولطمتى الثانية في الكبر .. إلا بالصمت
والصبر !..

في العين ظلمة .. وفي القلب ظلمة ..
آه من تلك الأكداس الخالكة من اليأس والعجز التي تجثم على نفسى .. فتبهط
بها إلى أغوار سحيقة لا قرار لها ولا نهاية ..

إنى لأجلس وحيدا وسط هذه الظلمة الموحشة وريح الشتاء الباردة تلمح
وجهى وتنفذ في عظامى .. لا أبصر أمامى بصيص ضياء ولا أميز هيكلًا
ولا شبحا .. أغلق العين وأفتحها .. فلم أر مما حولى أى شىء .. ولكنى مع
ذلك أحس بكل شىء .. وأعرف كل شىء !..

أعرف صفير الريح في أذنى والأوراق الجافة الصفراء تهبط مترنحة على الأرض
في يأس واستسلام .. وأعرف الأغصان المهترئة المتأرجحة الممتدة من الجذع
الغليظ الراسخ في الأرض .. الساخر من الريح الباقي على الزمن .

أعرف المقعد الخشبي الذى أجلس عليه .. بتعاريفه وثنياته .. والمسمار
الذى ما زال ناتئا في ظهره .. أعرف الحجر الجاثم على يمينه وأستطيع أن أسند إليه
قدمى .. كما كنت أفعل فيما مضى ..

كل شىء أحس به كما عهدته .. حتى هذا الصنبور التالف ما زلت أسمع
قطرات الماء تهبط منه إلى أرض الحديقة .. ما تغير شىء في المكان ولا تبدل ..
لأستطيع أن أرى السور الممتد والدار القائمة بعينى . ولكنى أراهما بذهنى
وأتحيلهما كما كنت أراهما في الليالى السالفة .

ما تغير شيء مما حولي .. ولكن أنا الذى تغيرت .
 إني لا أنكر المكان .. رغم أنى لا أراه .. لقد كنت أراه فيما مضى بعين
 الرضا .. والآن لا أستطيع أن أراه حتى بعين السخط .. ومع ذلك فإنى لا أنكر
 منه شيئا .. لأنى أحبه . ولا أجد قرارا إلا فيه .
 إني لا أنكر المكان .. وأنا لا أراه .. ولكنه لا شك ينكرنى وهو يرانى . إن
 الشجرة الرعوم .. لا تستطيع أن تعرف فى صاحبها القديم ، لقد كانت تعرف
 فى قلبى المضى وعينى المتلاثلتين .. اللتين يشع منهما بريق الأمل والرجاء ..
 ونفسى التى تفيض بحرارة الحب والوفاء والإيمان .
 أما الآن .. فكيف تميزى وقد خبا كل ما بى .
 كيف تميزنى فى ذلك الجسد الواهن والقلب المظلم والنفس المكتبة والعينين
 الخائيتين ؟.

لينكرنى الجميع . فما عاد لى بقية أمل فى شيء . وما عدت أرجو أن يذكرنى
 أحد . حتى هى . معبودة الروح وصنو النفس .. لقد أنكرتها فيما مضى .. فإن
 هى أنكرتنى الآن فلا حرج عليها ولا لوم .. ولا تأنيب ولا تثريب .. واحدة
 بواحدة والبادئ أظلم .
 لقد أنكرتها .. وهى هى الحلوة الناضرة اليانعة .. الوفية الطاهرة النقية ..
 جزيتها عن الوفاء غدرا .. وعن الحب هجرا .. كيف أستطيع أن آمل منها بعد
 هذا أن تذكرنى .. بعد أن أصبت بما أصبت به ؟ .
 عرفتها جزءا من هذا المكان الذى أجلس فيه فما أذكر أنى رأيها فى مكان
 غيره .. حتى لكأنى بها قد نبئت فى الحديقة مع بقية الزهور والأشجار .. وكان
 ذلك منذ زمن بعيد قريب: بعيد فى الوقت . قريب من الذهن . وهكذا كل
 ما يتعلق بها من ذكريات لا تكاد تدخل فى حساب الزمن .. ولا تملك كف
 القدم عليها أى تأثير .. فهى أبدا جديدة ناضرة ..
 لا أستطيع أن أحدد متى أحبتها .. ولا كيف . فقد تسلل حبها إلى نفسى مع

الزمن . إذ نشأنا منذ الطفولة سويا وكنا نقطن حتى الإنشا في دارين متجاورتين تشاركنا في الفناء الأمامى والحديقة الخلفية وأحاط بهما سور واحد . كانت دارهم هى الدار الأصلية .. أما دارنا فقد بنيت فى الطرف الآخر من الحديقة الواسعة وأصبح الداران بحكم موقعهما كأنهما دار واحدة .. وكان لا بد والأمر كذلك من توثق عرى الصداقة بين الأسرتين . حتى بتنا على مر السنين كأننا أسرة واحدة .

و كنت وأخى وأخوها نكوّن صحبة لا نكاد نفترق . فقد كانت تجمعنا فى طفولتنا مدرسة المنيرة . وكان يضمنا فصل واحد . وكنا نتخذ من الحديقة ملعبنا المختار . نشق فى أرضها الأنهار وتسلق الأشجار لا نكاد نفترق إلا ساعات النوم .

كيف كانت هى وقتذاك ؟

إلى لا أكاد أذكر عنها سوى صورة باهتة .. فما كانت تثير فى نفسى وقتذاك أقل اهتمام . بل كانت كرة القدم والنبلة والنحلة وغيرها من ملاهى الطفولة لا تترك لى مجالاً للتفكير فى أمثالها من الصغيرات العاجزات .

كل ما أذكره منها هو جسد نحيل ضئيل وشعر ذهبى قصير ينسدل على جبينها ويغطى أذنيها .. ووجه أصفر دقيق التقاطيع وعينان خضراوان صافيتان .. وكانت تبدو لى وقتذاك مخلوقة ضعيفة مسكينة .. تثير الشفقة والرثاء لوقفتها المتباعدة فى الشرفة أو أمام الباب ترقبنا فى خوف دون أن تجسر مرة واحدة على الدنو منا أو مشاركتنا لهونا .

ولا لأظننى أنسى قط أول احتكاك لى بها .. عندما لطمتها لطمة أسالت الدماء من أنفها .. لأنها وطئت — عن غير قصد — بيتا شيدته فى الحديقة من الطين فهدمته ، ولم أرها تصرخ ولا تولول .. بل قالت فى صوت باك : إنها لم تقصد هدمه . واغرورقت عينها بالدمع وسارت إلى البيت صامته .. وقد وضعت كفها على أنفها .

ويحها .. إنها ما تغيرت قط .. لقد كانت تلك هي طبيعتها صامته صابرة ..
ما أجبنتني على لطمتها الأولى في الصغر ولطمتي الثانية في الكبر .. إلا بالصمت
والصبر ..!

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أحس فيها بشيء يسمى الندم .. فما أظننا في
طفولتنا نندم على هفواتنا وأخطائنا . ولكنى في تلك الليلة ظلت فترة طويلة
مفتوح العينين محملاً في السقف قبل أن أنام .. وأنا أفكر حزينا .. لم ضربتها ؟
أعزى نفسي بأننى عندما أستيقظ في الصباح سأذهب إليها وأهبها قطعة من
الشيكولاتة وأعطيها الكرة لتلهو بها قليلا .

واستيقظت في الصباح .. فنسيتها ونسيت كل ما نويت ولم تعد تشغل ذهني
بعد ذلك أكثر مما يشغله طير يحلق في الجو أو قطعة تسير في الطريق .

ومرت بنا السنون بعد ذلك وأنا مغرق في لهُو الطفولة .. وهى مغرقة في
تباعدها وخشيتها وحذرهما .. حتى وجدتنى ذات يوم — لا أدري كيف — قد
أصبحت أحس بها ..!

أقول أحس بها .. ولا أقول أحبها .. فلقد بدأ الأمر .. مجرد إحساس
بوجودها .. بعد أن مرت بى السنون وأنا لا أحس لها بكيان ..

لقد أصبحت أحس بوجودها في الشرفة وأنا ألعب الكرة .. فإذا ما دخلت
أحسست بغيابها .. وإذا لم تعد بدأت أفقدها .. وأحس لغيبتها بضيق
ووحشة ..

كيف حدث هذا ..؟ أتغيرت أنا ؟ أم تغيرت هى ؟ أغلب الظن أن التغير
كان مزدوجا .. فقد نما كلانا .. ولست أقصد بالنمو أنها أضحت امرأة .. وأننى
قد أضحت رجلا .. فما أظننا كنا قد تجاوزنا حد الصبا .. فما زلت أذكر
جسدها ضامرا نحىلا .. جسد صبية صغيرة ومع ذلك فقد بدأت أحبها .. وهى
على حالتها تلك .. بنحوها وشحوبها ورقتها . ودقتها ..

كانت أشبه بالفراشة .. وكان كل إحساس نحوها ينحصر في الرغبة في وقايتها

الشر .. وفي حمايتها والدفاع عنها . وكانت كل تصوراتى إذا ما خلوت إلى نفسى لا تزيد على أنى أنقذها من المخاطر . والمهالك .. أتصورها غريقة فأقذف بنفسى فى اليم وراءها وأظل أسبح حتى أنقذها من الغرق .. ثم أتصورها مرة أخرى بين أيدي الوحوش أو اللصوص فأهجم عليهم وأصرعهم وأفر بها ..

كان أقصى ما أتلهف عليه هو أن أمس شعرها أو أضغط على كفها أو أدثرها بدثار ثم أضممها إلى وأرقدها على صدرى ..

ولم أحاول قط أن أقرب منها أو أن أنفذ ما يجول بذهنى .. رغم أنه لم يكن هناك أسهل منه .. فقد كنا كما قلت أشبه بأسرة واحدة وما أظن أحدا كان بلائسى .. أو حتى بشاعرى .. لو أنى فعلت ما كنت أتلهف عليه .. من لمس يدها أو لثم شعرها .

ولكنى أنا نفسى لم أكن أجسر .. أو لم أكن أرغب .. فقد كنت أحيط نفسى بالأوهام والأحلام .. وكنت أضعها فى مستوى الشمس .. والملائكة .. والأشياء التى لا تملك نحوها إلا مجرد التطلع والتفكير ..

ولا أدرى ماذا كان رأيها فى .. فما كنت أفوز منها بغير النظرة الصامتة .. والتطلع الهادئ الساكن ..

وأخذنا فى النمو .. وبدأ جسدها يستدير وينمو .. ولكننى لم أك ألقى إليه بالا .. فقد استمرت نظرتى إليها كما هى .. النظرة السامية العلوية الملائكية .. كأنى أحب روحا أو شبحا ..

ولكن حنينى إليها زاد .. وزادت معه لحظات تفكيرى فيها .. حتى حل بى وقت كنت لا أكاد أفكر إلا فيها .

وأخيرا دفعنى الحنين إلى أن أفعل شيئا أكثر من التفكير دفعنى إلى الدنو والاقتراب .

وأخذت أحوم حولها .. كهابد حول صنم .. أو على الأصح كصنم حول صنم .. فقد كان كلانا أصمت وأجمد من صنم .

كان صمتي عن خجل وخشية وخوف . أما صمتها فالله به أعلم ..
 أنا لم أحب من قبل قط . وأنا بطبعي إنسان خجول .. هباب .. نخالي الذهن
 عما يفعل المحبون وكيف يقتربون ممن يحبون وماذا يقولون ..
 ثم .. أمر آخر .. كان يسبب في ذهني مشكلة كبرى . كيف أعرف أنها
 تحبني ؟

إن وجهها صامت ساكن أهدأ من غدیر فی يوم راکد . لا تكاد تبدو به
 علائم حب أو بغض .. ولا سرور ولا حزن .. ولا اهتمام ولا غير اهتمام ..
 هل أسألها ؟..

أقول لها : هل تحبيني ؟
 وإذا قالت : لا .. ماذا أفعل ؟..
 وإذا سخرت مني وهزأت بي .. !
 وإذا صرخت وبكت وأنبأت ذويها وذوي .. ألا يعتبر قولي لها .. قلة
 أدب ؟..

أجل .. إنها ستكون فضيحة كبرى ..
 أكتب لها .. ؟
 ستكون فضيحة أكبر ..

ماذا أفعل ؟.. إلى أكاد أجن .. !
 ماذا فعل الملايين من قبلي الذين أحبوا ؟..
 وأخذت أقرأ كثيرا عن الحب .. وأنا كما أنا .. بنفس الحيرة ونفس التردد .
 لقد كانت مشكلة عويصة ومسألة مستعصية .. ومع ذلك .. فقد
 وجدتها .. مرة واحدة .. وبلا أي جهد .. تذوب وتتحلل .

من يصدق هذا ؟ وكيف حدث ؟
 لقاء واحد .. على غير موعد .. وبلا سابق تمهيد . أذاب كل المواقع كما
 يذوب الجليد في الشمس الساطعة !

هنا .. على نفس المقعد وتحت نفس الشجرة .. والصنبور يقطر كما يقطر الآن
جلسنا أول مرة ..

كان الوقت بعد المغرب . وامتزاج الليل والنهار يصيب الكون بلون رمادى ..
والمرئيات تتراءى باهتة .. والجو دافئ والريح راكدة .. وكنت أتجه من الباب
إلى دارنا .. ومررت بالشجرة فإذا بى أراها تجلس تحتها فى صمت ..
أيها القلب رفقا .. خفف من دقاتك .. وإلا فضحت أمرى .. سأحاول
الجلوس بجوارها .. يجب أن تشجع إياك أن تقفز من صدرى .. لا تخذلنى ..
هذه فرصة العمر فيجب ألا أضيعها ..

وجلست بجوارها .. وابتسمت فى رقة ..
إنها مخلوقة عذبة .. رقيقة .. أليفة .. ودودة كيف أهابها .. وماذا أخشى
منها ؟

وبدأنا نتحدث بضعة أحاديث تافهة .. قلتها بغير وعى .. وسمعتها بغير
وعى . وفجأة وجدت يدى قد مست يدها وكفى قد وضعت على كفها .
وساد الصمت .. صمت طويل لذيد .
لم أقل شيئا .. ولم تقل شيئا . ولكن أنفاسنا كانت تسمع جلية واضحة .
وكنت أشعر أنى أتسامى وأرتفع عن الأرض . وكأنما قد أضحت لى أجنحة
تسرى بى فى دعة ورفق .

وأخيرا تجرأت ورفعت يدها إلى شفتى . وكنت أخشى أن أزعجها
بفعلتى .. ووجدتها فعلا تسحب يدها من تحت شفتى . ولكنها لم تسحبها عن
غضب .. بل سحبتها لتمسك بها يدى وترفعها إلى شفتيها .
أجل . لقد قبلت يدى كما قبلت يدها .

ولست أدرى مبعث هذه الدموع التى أحسست بها عملاً مقلتى . لقد كان
ما بى من السعادة أكثر مما يحتمل .
ولم تكن هناك حاجة لكى أسألهما عما إذا كانت تحببني . فقد بدأت هى نفسها

تقص على هامة كيف بدأت تحبني .. وكيف كانت ترقبني وتبغ خطواتي أينما حللت .

ويحبها .. كيف أضاعت على كل تلك السعادة الماضية ؟ لِمَ لم تخبرني من قبل . وأنا أحوم حولها حائرا مترددا .. وهي جامدة باردة صامته ؟
وافترقنا ليلتذاك وأنا أحس أني أحب العالم والناس والطيور والحشرات . لقد فاضت بي مشاعر الحب فأغرقت بها جميع الكائنات .
ولم نكف بعد ذلك عن اللقاء ليلة واحدة . كنا نتسلل في جناح الظلام لنجلس على مقعدنا الخشبي تحت الشجرة الحانية .

كنا نحتمل كل شيء في سبيل اللقاء .. ينفذ البرد إلى عظامنا فنزداد تلاصقا .. وتلفح أنفاسنا الحارة المختلطة وجهينا فتبعد عنا الصقيع .

وكنا صموتين كصومين . فأمعنا في ستر حبنا وإخفاء مشاعرنا فلم يعلم بما بيننا أحد من الأهل .. حتى اجتزت مرحلة الدراسة ووجدت نفسي جديرا بأن أفكر في خطبتها .

ولكنني لم أكد أبدأ التنفيذ حتى علمت أن أحد أقربائها قد سبقني وتقدم لخطبتها .

ورغم أني كنت واثقا من مشاعرها نحوى . ورغم أننا قد اتفقنا فيما بيننا على أن يكون كل منا للآخر .. فقد فجعتني النبأ وتملكني منه ضيق شديد ..

فقد كان قريبها — إذا ما قورن بي مقارنة مجردة من المشاعر — أرجح كفة مني .. إذ كنت لم أزل ملازما ثانيا حديث العهد بالتخرج . وكان هو طبييا ممتازا معروفا .. وكان فوق هذا على جانب من الثراء . ولم يكن هناك ما يعيبه لا شكلا ولا خلقا .

كان كل ما أمتاز به عليه هو حبي لها وحبها لي ولكن هل يدخل ذلك في حساب أبويها ؟

ثم كيف يعرفان أنها تحبني وهي الخجولة الصامته التي لا تجرؤ على المعارضة

والعصيان ولا تجسر أن تقول إنها تحب كائنا من كان ؟
 أجل .. كان الأمر عسيرا عليها . فما كنت أتصور قط أنها تستطيع أن تقول
 لأبويها ما في لن أتزوج هذا لأنى لا أحبه .. لا لا .. لقد كان هذا أمرا مستحيلا ..
 ومرت بنا بضعة أيام ونحن لا نلتقى .. حتى لمحتها ذات يوم فى إحدى
 الشرفات فأشارت إلى بأن أهبط إلى الحديقة ..
 والتقينا فى الليل فسألتنى بصوت يائس حزين لِمَ لم أتقدم لخطبتها . فسألتها :
 — والآخر ؟

— ليس من شأنك .. تقدم أنت ودع الباقي لى .
 وفى اليوم التالى ذهبت والدقى — بعد طول إلحاح منى — لخطبتها .. وهى
 تعلم أنها مخطوبة .

وكانت النتيجة بالطبع .. الرفض والاعتذار .
 وتحملت الصدمة . ولم أحاول أن ألقاها أو أرى لها وجهها ولكن بعد بضعة
 أيام كانت والدتها تزور والدقى وتعذر وتبئها بالقبول ..
 كيف حدث ما حدث ؟

كيف وقعت المعجزة ؟
 أمر بسيط . لقد أنبأت هى أبويها بمنتهى الشجاعة والصراحة أنها تريدنى
 أنا .. وحاولا أن يشياها عن عزمها وينصحاها ويرغماها على الرضوخ .
 لرأيهما .. فكانت النتيجة أن زقدت فى الفراش لا تأكل ولا تنام حتى حضرت
 والدتها إلينا واعتذرت .

وتزوجنا وملاؤ نفسى إحساس بأنها حملتنى جميلا يجب أن لا أنساه مدى الحياة
 وأنى يجب أن أخلص لها حتى الموت .

ومع ذلك فقد مرت الأيام فمحت من ذاكرتى كل شىء .
 ما أعجب الإنسان وما أشد تغيره وما أكثر ما يرتكب فى غده ما يراه اليوم
 شيئا يستحيل عليه فعله .

فى كل يوم لنا فى أفعالنا وجهة نظر . وفى كل فعل لنا ما يبرره وما يححو عنه وصمته وعاره .

إياكم أن تسخروا من مذهب فقد يحل بكم الغد فترتكبون ذنبه . ثم تهزون رؤوسكم دهشا ممن يرمونكم بالإثم وتحسون أن ذنبكم أمر لا غبار عليه .
إننى الآن .. وأنا أجلس خالى العينين محطم الجسد .. أعجب من نفسى كيف أقدمت على ذلك الوزر . أعجب الآن كما كنت أعجب قبل أن أفعله . ولكنى أقسم لكم لو مررت بنفس التجربة ثانية لأقدمت على فعله . ولفقدت الرشء مرة أخرى وأضعت الصواب .

لقد مرت بى الأيام الأولى من الزواج وأنا سعيد جدا . ولكن لم يكء الزمن يتقدم بنا حتى بدأت أحس الملل .. ولم أعد أتذوق من حياى حلاوة اللهفة ولا لذة الشوق .

ولاشك عندى أنى كنت سأقوم بدورى كزوج خير قيام .. فما أنا بالسئء الخلق أو المفرط فى ملاذه .. ولا شك كذلك أنى كنت سأوطن نفسى على الاستقرار الزوجى وأقنع بحياة الهدوء والراحة التى ينعم بها كل زوج ..
كل هذا كان شيئا لاشك فيه .. لو لم يلق القدر بها فى طريقى .. من هى ؟ امرأة .. أقسم أن أى رجل منكم مهما بلغ من الإرادة والخلق لا يستطيع أن يقاوم إغراءها . وأتحدى البشر واحدا واحدا .

رأيتها أول مرة فى حفل سباق .. وظننت لأول وهلة أنها مازالت فتاة .. فقد كان يبدو عليها إلى جانب جمالها الرائع .. كثير من طهر وبراعة وصغر فى المظهر ..

كانت تشع . وعندما أقول تشع لا أقولها على سبيل المبالغة فى الوصف . فقد كانت مضيفة حقا بوجهها العاجى المستدير وشعرها الذى يبدو كهالة من ذهب .

ورأيتها تقف مع اثنين من زملائى الضباط .. ومع شخصين آخرين ..

فرايت نفسى مساقا برغمى الى التقدم الى ثلثها . وتم تقديم كل منا الى الآخر .
وعرفت أنها زوجة أحد الشخصين .
ولست أدري من المخطئ بعد ذلك .. أنا أم هي .. أم القدر .. أم ثلاثتنا
معا .

وتوالت مناسبات اللقاء .. كانت تدفعنى رغبة جامحة إلى أن أذهب حيث
يحتمل أن توجد أما هي فقد كانت توجد دائما حيث يحتمل أن أجدها . كان
القدر لا يخذلنا قط .. فكان يوجدها دائما حيث أذهب .
ومرة أخرى بدأت أتردى فى هاوية الحب .. حب من نوع آخر ليس به شئ
من ملائكية الحب الأول . ولكن به أضعاف اندفاعه ولهيبة .
وكنيت ألمح من نظراتها مجاوبة .. فمارفعت إليها عيني إلا والتقت بعينيها ..
ولكننى لم أكن أجسر على أن أفعل أكثر من النظر .. لقد كانت امرأة متزوجة
وكنيت رجلا متزوجا ..
وهكذا ظللنا نحجم عن الإفصاح إلا بالأعين حتى حدث ذات يوم ما فضح
أمرنا .

كنت أقفز فى إحدى الحفلات فسقطت سقطة عادية .. سقطها الكثير
غيرى من قبل ومن بعد . ولكن كان نتيجتها أن أغمى عليها .. هى ..
أجل .. لقد أغمى عليها من أجل ..
ولست أدري ما حدث بينها وبين زوجها بعد ذلك .. ولكن الذى أدريه هو
أن هذا الحادث أزال من بيننا حجاب الخشية وهتك ستار الخوف فأقبل كلانا على
الآخر فى اندفاع جنونى .
وفى ذات ليلة أنبأتنى أنها طلبت من زوجها الانفصال لأنها لا تستطيع أن
تعيش إلا معى ..

لا أستطيع الآن أن أحدد مشاعرى وقتذاك بالضبط . فقد كانت خليطا من
الفرح الجنونى والحزن المتوارى المستتر .. والحيرة بين انتصارى فى الفوز بها

وهزيمتى فى الاحتفاظ بزوجتى ..
 لقد كان الفوز بها انتصارا رائعا .. يرضى غرورى كرجل . فقد كانت امرأة
 يتهاوى على أقدامها الرجال . وكان زوجها الذى لفظته من أجلى .. رجلا
 يستطيع أن يوظف عشرات مثلى .
 وهكذا لم يكن أمامى سوى أن أقدم على زواجها ..
 وكما لطمت زوجتى فى صغرها فأدميت أنفها بغير ذنب لطمتها اللطمة الثانية
 فأدميت قلبها بغير ذنب أيضا .
 وكما أجابتنى على لطمتى الأولى بالصمت والصبر .. أجابتنى على لطمتى
 الثانية بالصمت والصبر .. وكمت السهم فى صدرها وتركته ينزف فى
 سكون ..
 وحلت الحرب وذهبت إلى الميدان وفى أحد المواقع انفجرت فى وجهى
 إحدى قنابل العدو .
 ومرت بى الأيام وأنا فاقد الوعي .. فلما أفقت فتحت عيني فلم أبصر سوى
 ظلمة حالكة وتحسست وجهى فإذا به ملىء بالجروح والندوب .
 سألت عنها .. فعلمت أنها هجرتنى كما هجرت زوجها .. الأول من قبل .
 وأحسست بالوحشة من حولى .. ووجدتنى أتخسس طريقى إلى حيث
 تدفعنى ذكريات عزيزة حلوة .. وإلى حيث وجدت لى على المقعد الخشبي
 مستقرا أمينا .
 إني أسمع صفير الريح .. وأسمع شيئا آخر بين الصفير .
 إنه صوت أقدام تقترب ..
 إني أحس برجفة وخشية .
 من هناك ؟ من ذا الذى يتسلل نحوى فى الظلمة ؟ لعلى واهم .. إنه لا شك
 صوت الريح تفرع الأغصان ..
 لا لا .. لست بواهم . إن الأقدام تقترب . وتقترب .

من هناك ؟
ما هذا ؟ يد توضع على كتفى وتتحسس وجهى ! إني لا شك حالم .. إنها
هى .. نفس اليد الرقيقة الدقيقة الحلوة الحنون ..
أجل .. إني أعرفها من ملايين الأيدي ..
إنها زوجتى . الصامتة الصابرة .
أحس وجهها على وجهى . وعبراتها الساخنة تدفئ خدى إنها لم تنكرنى ..
إنها تهتف باسمى .. وتحمد الله على نجاتى وعودتى إليها . إنها تجلس بجوارى كما
كننا نجلس فى زمن غابر ..
إني سعيد . لقد أضاء قلبى مرة أخرى .. فأغنانى عن ضوء عيني ..
حمدا لله ..

عودة.

إنه لا شك ما زال ينتظر وقد ترك كل شيء كما هو حتى

تعود ..

ورفعت بصرها إلى أعلى فإذا بإحدى النوافذ تضيء ..

وبدأ من وراء الزجاج شبح يتحرك ..

كانت الريح تهب صر صرا عاتية .. والسماء مثقلة بستار أسود من السحب المتكاثفة حجب النجوم فلم يعد يستبين خلاله بريق ولا لألاء .. بل كل ما فيه ظلمة في ظلمة وسواد في سواد .

والشارع مقفر موحش لا يسمع فيه دبيب خطى ولا وقع أقدام .. وعلى جانبيه تناثر الدور في الظلمة كأنها أشباح جائمة وقد أحاطت بها الأشجار متلاطمة الأوراق مترنحة الفروع قد اتخذت منها الريح نايًا تصفر فيه ألحانها المدعورة وأنغامها المكسبة ..

وفي تلك الظلمة الموحشة والجو العاصف المكفهر سارت تسترق الخطى حائمة حول السور القاتم الكثيف .. ترفع عينها في حذر إلى نوافذ الدار التي لا يبدو منها بصيص ضوء .

ولم تكن الحلكة الخيمة لتبدي منها سوى شبح أسود يرتجف مذعورا في مهب الريح .

من كانت ؟

متسولة .. بائسة .. جائعة .. تطلب مأوى . وتستجدى لقمة ؟

تبدو كذلك .. ولكنها لم تكنه .

أجل .. أنها تبدو هائمة ضالة .. ومع ذلك فما أحست في حياتها أنها قد

اهتدت إلى مرفأ وأوشكت أن تستقر كما كانت نحس في تلك اللحظة .
إن البرد ليجمد أطرافها .. ولكنه يعجز عن أن يصل إلى قلبها الذى يفيض
حرارة ويشع دفئا .. وأن الريح لتعصف بجسدها الواهن فتكاد تذروه كالهشيم ..
ولكنها ترتد أمام روحها القوية المليئة بالأمل المفعمة بالحياة ..
لقد عادت أخيرا بعد طول نأى ومرارة فرقة .. ووقفت تتطلع إلى النوافذ
المعتمة كما يتطلع مهجر في الفلاة إلى قطرة ماء ..

من كان يصدق أنها ستعود ثانية ؟
بعد هذه السنين الطويلة من اليأس والحرمان والانطواء في الجحور القذرة
المظلمة كالجرذان تعود مرة أخرى لتنفس من الهواء الطلق عبر الذكريات ..
وتبصر بعينها شبح الماضى الجميل يتجسد ثانية .. ويقف صرحه بين الأنقاض
شاخيا مضيئا ..

هذه هى الدار التى قضت فيها أهنأ ساعات حياتها .. ساعات مرت بها حينها
كأنها حلم ..

إنها تقف على قيد خطوات من فردوسها الضائع ونعيمها المفقود ..
لا يحجبها عنه سوى ذلك السور وتلك الجدران .. وحتى تلك لا تستطيع أن
تحجبها عنها .. فهى تستطيع أن تبصر بقلبها الملهوف وذهنها المشوق كل ما وراء
الجدران .. تماما كما تركته .. لم تمتد إليه يد التغير والتبديل ..

ألم يقل لها ذلك عندما اختلفا آخر مرة ؟

إن صوته ما يزال يتردد فى سمعها وهو يقول هامسا :

— إن من العبث أن أقول الآن شيئا .. فالكلمات تبدو أمامى ضئيلة
عاجزة . ولكنى سأقول بعد ذلك . عندما تعودين ذات يوم لتواصل الحياة معا .
إنى سأنتظر .. لن أمل الانتظار مهما طال .. وسيبقى كل شيء كما تركته لن تمسه
يد حتى عودتك ..

عودتها ! كم كانت تبدو عجيبة وقتذاك . ولكنها الآن قد تحققت وأضحت

غيبتها هي التي تبدو أمرا عجيبا .. فهي لا تحس أنها قد غابت قط بل كانت تلك الفترة الثقيلة المظلمة مجرد كابوس مزعج ..

هذه هي الدار .. دار الهناء ودار السلام .. تماما كما تركتها .. لا يفصلها عما بها زمن ولا مادة .. بل إنها تعود إليها كما كانت تعود بعد غيبة يوم أو بعض يوم .. لا تكاد عودتها تفترق إلا في بعض المظاهر السطحية التافهة .. لا بأس عليها .. إن الأمر سيعود إلى سابق عهدها به .. وستعود إليها تلك المظاهر الحلوة الممتعة ..

أجل .. ستطلب منه أن يحملها بيديه ويفرق وجهها وعنقها بالقبل كما كان يفعل دائما كلما عادا معا إلى الدار في كل ليلة ..

ولكنها لن تكون في حاجة إلى أن تطلب منه ذلك .. لأنه سيفعله من تلقاء نفسه .. سيذهل لحظة من لقاءها ولكنه عندما يفيق من أثر المفاجأة سيوسعها عنقا وتقبيلا وستنبئه هي أنها سترضخ لمطالبه وسترضى بالاستقرار إلى جواره وتكف عن مطامحها .

كانت حمقاء عندما رفضت . قاتل الله الصبا والغرور والكبرياء والآمال الواسعة والمطامح السرايية البراقة .

لقد أغرتها الشهرة والنجاح وكانت تخشى أن تفقداهما إذا استقرت بجواره وهجرت حياة الأضواء والضجيج .

إنها تذكر كيف كانت تقف على خشبة المسرح لتؤدي دورها في إحدى المسرحيات الغنائية الجديدة وتشدو بإحدى الأغنيات وقد اشربت نحوها الأعناق وجمدت النظرات وأرهفت الأسماع وأضحت الجماهير المنصتة كتلة أعصاب وأحاسيس .

وكان هو واحدا من بين تلك الجماهير .. قطرة في عباب وذرة في رمال لا تستطيع عيناها أن تميزا وجهه بين مئات الوجوه . فكلهم عيون محملة وحناجر هاتفة وأياد مصفقة ولم تكن لتحس له وجودا حتى قرأت في اليوم التالي

نقدنا في الصحف بمضائه ..
وأثارها النقد .. فقد كان لاذعاً قاسياً .. وأدهشها أن يشذ هذا الناقد المغمور
عن بقية النقاد الذين كالوا لها المديح وأغرقوها بالإطراء .. وأن ينال عليها بمثل
هذه القسوة والجرأة .

وحاولت ألا تلقى إلى نقده بالا .. وأن تتناساه . ولكنها وجدت نفسها تعيد
قراءته مثنى وثلاث ورباع . لقد كان أكثر ماساءها فيه أن كل ما به حقيقة
واقعة .

وعرفته بعد ذلك مرة ثانية في نقد آخر لفيلم سينمائي كانت تقوم فيه بدور
البطولة .. ولم يكن ذلك النقد بأقل قسوة من سابقه ثم أخذ بعد ذلك ينال عليها
بالنقد تلو النقد حتى بدا لها كأن إنسانا استأجره لهدمها .. أو أن بينهما ثأراً
قدماً .

وأخيراً نفذ صبرها ولم تجد بدا من وضع حد لهذا الهجوم المتواصل وإسكات
هذا الناقد السليط الوقح المأجور فتحدثت في التليفون إلى صاحب الجريدة
وعاتبته على تلك الحملات المتوالية ودعته لتناول الشاي معها وسألته أن
يصطحب معه ذلك الناقد الذي كرس نفسه لمهاجمتها .

واعتذر لها صاحب الجريدة وأنبأها أنه سيحاول دعوته .
وفي الموعد المضروب طرق الباب وأقبل الخادم عليها يحمل بطاقة باسمه .
لقد قدم وحده واعتذر عن صاحب الجريدة ..
الحمد لله .. سيهون ذلك الأمر .. إنها تستطيع بسهولة شراءه أو إغراءه .
ترى أى نوع من الرجال هو ؟

إنه لاشك أحد نوعين من الرجال : إما « هلفوت » ممن يسمون أنفسهم
بالنقاد الفنيين ويتهمون على الفنانين لقاء ضريبة مادية .. « أكلة » ... أو
بضعة جننيات أو ما أشبه وإما أحمق مغرور من أهل الفكر وأصحاب المبدأ الذين
يظنون أنفسهم مبعوثي السماء ورسول الله لإصلاح الأرض وإرشاد البشر ...

أجل ... إنه لن يعدو أحد هذين الرجلين ..
لا بأس .. وليكن من كان . فلا تظن أنه سيستعصى عليها مادام رجلا ..
فإذا كان من النوع الأول فأمره هين : دراهم معدودات وإن كان من النوع
الثاني فستعلمه بعينها وصدرها وساقها كيف يتنازل عن مبادئه ويعدل عن
إصلاح الناس ونقد أحوالهم ..

وبهذه الأفكار سارت تتهادى إلى حجرة الصالون .. عجا ! كيف حدث
هذا ؟ لا شك أن هناك التباساً أو خطأ .. فهو لا يمكن أن يكون ذلك الواقف
أمامها وقد أولاهما ظهره ووضع يديه في جيوبه وأخذ يتطلع إلى الصور المعلقة ..
ويصفر بقمه أحد ألحائها ..

أجل .. إنه لا يمكن أن يكون صاحب البطاقة لسبب بسيط .. هو أنه ضابط
يرتدى الحلة العسكرية وليس بناقد ولا صحفى ..
وأحس بوقع أقدامها فاستدار إليها .

ومضت برهة وهى تحديق فيه فى صمت ودهش .. ثم قالت متسائلة :
— حضرتك ...

— أجل ... أنا هو .

لشد ما أخطأت الظن .. فما كان الرجل بأحد النوعين اللذين كانت تجزم
بأنه لا بد أن يكون أحدهما .

إنه قطعاً لم يكن « هلفوتا » من أهل الفن .. ولا كان متكبراً مغروراً من أهل
الفكر وأصحاب المبادئ ..

لقد كان مجرد ضابط لا تبدو عليه أية صلة بالفن ولا بأهله . كان ضابطاً
عادياً .. أو على الأصح ضابطاً نموذجياً بحلته الأنيقة المنطبقة على جسده وحزامه
الجلدى المشدود على وسطه والنجوم اللامعة على كتفيه وصدره البارز وقوامه
المعتدل وملامحه الجذابة وقد كست وجهه ابتسامة لطيفة . ومد يده فضغط على
يدها فى ترحيب وإخلاص .

وتملكها بعض الارتباك .. فقد أحسست أن كل ما أعدته لمواجهة الرجل قد انهار من أساسه .. لأنه كان من نوع لم يخطر ببالها قط . نوع محير يحتاج قبل كل شيء إلى فهمه ..

وأشارت إليه بالجلوس .. وجلس الاثنان يواجه كل منهما الآخر .. وساد بينهما جو من الخجل والتكلف كان من العسير التخلص منه . ورفعت عينيها إليه . ثم عادت تسأل مرة أخرى :

— حضرتك .. ؟

ولم يتمالك من الضحك وأجاب :

— أجل .. إني هو . أترينه أمرا عجيبا .

— طبعاً عجيب .. لم أتوقع قط أن أراك كما أنت .. لم أكن أتوقع أن الضباط يعملون بالصحافة والفن .

— ولكنى لا أعمل بالصحافة أو الفن .

— كيف .. أأنت أنت .. ؟

— أجل أنا .. ولكنى لا أعمل صحفياً أو ناقدا .

— أأنت أنت صاحب المقالات التى أقرأها بمضائك ؟

— أجل ولكنى لا أكتب سواها .

— أتريد أن تقول ..

— إني لا أعمل فى الصحافة والفن .. سوى نقدك أنت .

— نقدى أنا ولم ؟

— لكى تفعل ما فعلته اليوم فقط .

— لا أفهم .

— لكى توجهى إلى دعوة للتعارف بك .

وهزت رأسها فى حيرة وذهول وعادت تسأل فى بطء .

— أتعنى أنك كتبت كل ما كتبت من هجاء ونقد وسباب لمجرد الرغبة فى

التعرف لى ؟ أنت مجنون ؟

— أجل .. مجنون بك !

ماذا تقول له ؟ هذا آخر ما كانت تتوقع ..

مجنون بها ! هكذا مرة واحدة ! بلا مقدمات ولا تمهيدات ..

ولأول مرة فى حياتها الفنية تحس بالارتباك أمام رجل يغازلها . لقد عادت مرة أخرى صبية خجولا . ولكنها سرعان ما تخلصت من ذلك الإحساس الذى وضعها فيه .. وعادت تقول ساخرة :

— حضرتك مجنون لى ؟ لى أنا ؟

وابتسم ابتسامته اللطيفة وأشار بسبابته مؤكدا :

— منذ خمس سنين وأنا أتابع كل آثارك من غناء وتمثيل حتى جنت بك .

وأخيرا قررت أن أعرفك .

— ولكن ألم تجد طريقا أعقل من هذا ؟

— لم أجد أضمن منه .

— لو علمت ذلك لدعوتك من أول مقال ووفرت عليك وعلى مشقة

النقد .

وهكذا تم التعارف بينهما . وتكررت الدعوات والزيارات . وبدأ

الجنون يسرى منه إليها . ولم يمض شهر حتى أضحى الجنون متبادلا .. وإذا بها

تجن به كما جن بها .

وبدأ الاثنان حياتهما معا فى هذه الدار .. حياة لم تكن من الواقع فى شىء ..

بل كانت حلما لذيذا .. حلما خلج عليه الحب أبهى حلله وسلط عليه أجمل

أضوائه .

لقد كانت تمثل أدوار الحب وهى تعتقد أن الأقوال والأحاسيس التى تحاول أن

تمثلها ليست سوى مبالغة كتاب وأوهام شعراء . ولكنها تعلمت بعد ذلك أن

الحب الواقعى يفوق كثيرا الأوهام . واقتنعت بأن الكلمات لم تعجز فى شىء

عجزها عن وصف حلاوة الحب ومتعته .

كان ينتظرها دائما حتى تنتهى من المسرح .. وتسير بهما العربة فى الطرقات الصامته المظلمة وقد وضعت رأسها على كتفه وأحاط عنقها بذراعه حتى يصلا إلى البيت فيحملها بين يديه وينضو عنها ملابسها ويرقدان فى الفراش كأنها طفلة صغيرة ..

وكانت تستيقظ على قبلاته فى الصباح إذ كان يضطر إلى التبكير فى الاستيقاظ لحضور الطوابير ويتركها نائمة حتى يعود إلى البيت مرة ثانية .

وأحس هو أن حياته الجديدة قد نهكته .. وأنه لا ينال قسطه من النوم والراحة .. وأنه كثيرا ما يذهب متأخرا عن موعد الطابور . فرغب فى حياة الاستقرار وسأها الزواج ..

ولم يكن هناك أحب إليها من ذلك .. ولكنها كانت تكره أن تترك مجدها وتتخلى عن شهرتها ومركزها .. وكانت واثقة أن حياة الاستقرار بجواره ستكون حياة تقشف وأنها ستحرمها مواردها من الأفلام والمسرح ..

لقد كانت تحبه .. وكانت تحب منها .. وكانت تعرف الزواج جيدا .. تعرف أنه يقتل الحب ويقتل الفن .. وتعرف مركز الزوجات لدى الرجال .. ولذا عازمت على أن تبقى حياتهما كما هى .. وأن يظلا عشيقين حتى آخر العمر . وهكذا استمرت حياتها سلسلة من العشق الجنونى . حتى بدأ القدر يزج فيها بدخيل جديد .. قلبها رأسا على عقب .

لم يكن جديدا فى الواقع .. بل كان أقدم منه فى حبها ولكنه كان خفيا مستترا .. كان مدير المسرح الذى تعمل فيه .. والرجل الذى انتزعها من زوايا الخمول .. وكان له الفضل فى ظهورها وشهرتها .

لم تكن تعلم أنه يحبها حبا جديدا .. بل كانت تتخيل أن كل ما يمكنه لها لا يزيد على إحساس أستاذ لتلميذته . حتى بدأت تحس بتطور معاملته لها وتجهمه لها .. وتبرمه بها .. وظنت أن ما به قد يكون ناتجا عن كثرة الجهد وتعب الأعصاب

وحاولت أن تسترضيه تارة وتتحاشاه تارة أخرى حتى خلا بها ذات ليلة .. فإذا به يعرض عليها حبه .. ويسألها الزواج منه .. ويطلب منها أن تقطع علاقتها بصاحبها .. وأصابها ذهول شديد .. فما كانت تتوقع منه هذا الأمر . وحاولت أن تصده برفق .. وأن تفهمه أنها لا تحس له إلا إحساس صداقة . وأن ليس هناك قوة تستطيع أن تفصلها عن صاحبها .

وظنت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد .. وأن صاحبنا قد اقتنع بردها .. وكف عن حبه ولكنها استيقظت ذات صباح بعد بضعة أيام فإذا بها تسمع مناقشة حادة .. استطاعت أن تميز خلالها صوت الرجلين صاحبها ومدير المسرح . وقد احتد كلاهما وبدا الغضب في نبراتهما ..

وأدركت أن النزاع لا شك من أجلها .. وأن الرجل لم يأس من حبها وأنه يقرع الباب الآخر ويحاول أن يقنع حبيبها بالابتعاد عنها .

وازداد النقاش حدة وتعلت الأصوات . تتخللها ألفاظ السباب القارصة .. وفجأة سمعت ضجة تبعتها صرخة حادة وصوت سقوط جسم ثقيل .. واندفعت تعدو إلى الحجرة مرتاعة .. فوجدت صاحبها قد انحنى مذعورا على جسد الرجل بعد أن تشابكا وضربه ضربة ألقت به على الأرض .. فاصطدم رأسه بحافة الأريكة وأخذت الدماء تنزف منه ..

وسألته وهي ترتجف عما حدث فطلب منها أن تعنى بالرجل حتى يذهب لإحضار الطبيب أو استدعاء الإسعاف وانطلق يعدو إلى خارج الدار .

وهكذا وجدت نفسها وحيدة مع الرجل الجريح وقد أخذت الدماء تنزف من رأسه .. وتركت الحجرة وذهبت لإحضار بعض القطن لإيقاف النزيف .. ولكنها عادت لتجد الرجل جثة هامدة .

أجل لقد قتل الرجل !

ومن قاتله ؟

توأم نفسها .. وصنو روحها ..

وقتل له ؟

لأجلها هي .. إنها هي السبب في كل ما حدث .
وبدأت تمر بذهنها صورة سريعة مظلمة لما يحتمل أن يعقب ذلك من حوادث
فأبصرت حبیبها مكبلا بالأغلال ملقى في أعماق السجون وقد تحطمت حياته
وضاع مستقبله . وذرا القدر آماله وأحلامه ..
أهكذا تحمل الخاتمة بهذه السرعة ؟ وبمثل هذه الطريقة الفاجعة ؟ ..
ولكن لا .. إنها لن تتركه يتردى في الهاوية .. لا بد أن تنقذه .. إنها تستطيع
أن تفتديه .. وستحمل هي وزره ..
أجل .. ستقول إن الرجل حاول الاعتداء عليها فصدته عنها وانزلت قدمه
إلى الأرض ..
ولكنه لن يتركها تقول ذلك ولن يقبل منها التضحية وسيعلم الحقيقة
للملأ ..

إذا فلتخذه هو نفسه .. وتفهمه أن الرجل أفاق من إغمائه .. وأصابته ثورة
جنونية وأنه حاول قتلها .. فدفعته دفعة ألقته على الأرض ومات من جرائها ..
قول هراء ! لن يصدقه . فهي لا تستطيع دفع إنسان هائج ثائر دفعة تقتله ..
إن هناك طريقة واحدة تستطيع إقناعهم جميعا بأنها القاتلة .
واندفعت من الحجرة .. أشبه بجنونة .. وسرعان ما عادت تحمل مسدس
صاحبها وسحبته من جرابه الجلدى . ويبد مرتجفة محمومة وصعت فوهته على
رأس القتيل في موضع الجرح ثم أطلقتته .. وخرت مغشيا عليها ..
إنها لا تدري الآن كيف واتها الشجاعة لكي تفعل ما فعلت .. لقد كانت
في حالة جنون ..

وأفاقت على صوت صخب وضجيج .. وأناس يغدون ويروحون ..
وكانت ذاهلة شاردة . ولم تقل شيئا سوى أنها هي القاتلة ..
وهكذا أودت الصدمة بعقلها .. ومرت بها الأيام وهي حبيسة بين

الجانين .. حتى بدأت تفيق رويدا رويدا .. وتسترد عقلها .. وانطلقت من المستشفى تتمتع بالحرية وساقها قدماها إلى حيث ينتظر صاحبها ..
إنه لا شك ما زال ينتظر وقد ترك كل شيء كما هو حتى تعود ..
ورفعت بصرها إلى أعلى فإذا بإحدى النوافذ تضيء .. وبدا من وراء الزجاج شبح يتحرك ..

إنه هو .. إن قلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها ..
واختفى الشبح ثم أبصرت بنور السلم يضيء والباب الخارجى يفتح .. وعلى بعد خطوات ظهر صاحبها ..
يا الله .. لشدة ما تغير .. لقد أضحى شخصا آخر .. هذا الرأس الأصلع ..
والمنظار السميك .. قد بدلا خلقته . وهذا الجسد المترهل البدين .. كيف يستطيع حملها بين يديه .

ومع ذلك فهي ما زالت تحبه وهو لا شك ما زال يحبها .
وعبر صاحبها المسافة بين باب البيت وباب الحديقة ..
يجب أن تتقدم الآن وتعلن عن قدومها ..
وبخطوات مرتجفة أخذت تقترب منه فوصلت إليه وهو يهم بعبور الشارع .
إن صوتها لا يكاد يخرج .. حتى لكأن حنجرتها قد سدت .
وأدار هو بصره إليها ولمح وجهها على ضوء مصباح الشارع فلم يحرك ساكنا ..

وكان كل ما قاله بمنتهى الهلوع هو :
— على الله .

أو قد نسيها ؟ ولكن لا .. إن له بعض العذر. إن الظلمة تخفى ملامحها .. يجب أن تقول من هي ..

وبصوت متحشرج قالت هامة :
— أنا مديحة ..

— مديحة !!

ونظر إليها فى ذهول .. ثم علا وجهه تجاههم شديد وأخرج محفظته ومد يده
بإحدى الأوراق المالية وقال بلهجة مقتضبة :

— أخرجت من المستشفى ؟ خذى هذا الجنيه .. عن إذنك لأنى ذاهب
لإحضار طبيب لابنى ؟ دعينا نراك .

ما هذا ؟.. جنيه .! وابنه ..! أهو متزوج ؟

إنها لاشك قد أخطأت الدار التى يجب أن تعود إليها ..

وبعد برهة كانت تطرق باب مستشفى المجاذيب .. وفتح لها الحارس الباب
وأدخلها .. وأغلق الباب .. وعادت الريح تصفر .. والمطر يهطل .. فى أنين
ونواح وعويل وبكاء .

أمنية ضائعة

لقد كنت أحب الديار، وما بها، وما حولها، كانت
رؤية الشجر الوارف من بعد تثير في نفسى الشوق وتبعث
الحنين، كنت أحب الدار حجرا حجرا، وشجرة شجرة.

عجبت له ما روعه من موت تلك الفتاة التى ما ظننت قط أن له أية علاقة بها
أكثر من علاقة طبيب بمرضى علاقة لا يزيد عمرها على بضعة أيام .
علام كل هذا الحزن الذى يكاد يبلغ حد الجنون ؟ لو كان كل طبيب يصيبه
على موت مرضاه ما أصاب صاحبنا الرجل كل وراء ميت طبيب . ما له قد ذوى
وذبل حتى أضحى كشيخ يتحرك أو هيكل يسعى .. إلى أعرف عنه ثبات الجنان
وهدوء العاطفة . وأعرف تحفظه الشديد مع النساء .. حتى لقد كنا نسّميه
« بالتقيل » أو « البارد » فقد كان نحوهم جامد الحس متبلد المشاعر ، ما سمعت
له عن مغامرات ولا وقائع حال ، بل كان شديد الانهماك فى عمله يركز فيه كل
جهده ويصرف فيه كل وقته ..

ولم يكن عجيبى لحزنه مبعثه أن موت المريضة لم يكن يستحق الحزن .. بل على
النقيض ، لقد حزنا كلنا من أجلها فقد كان موتها فاجعة أليمة .

كيف لا ، وقد كانت فتاة فى مقتبل العمر وميعة الصبا ؟ وكانت كما قيل لى ،
كالزهرة الناضرة تضوع عبيرها وحان قطافها ، وتمت خطبتها ولم يعد بينها وبين
الزفاف إلا أيام قلائل لم تكد تنتهى حتى زفت إلى القبر وشيعت إلى الثرى .
كان موتها إذا فاجعة تورث الشجن وتدمى القلب ، ولقد حزنت أنا عليها
رغم أنى لم أرها ، وكان خليقانى والأمر كذلك ألا أعجب لحزن صاحبى وقد

رآها وباشر علاجها . خلال مرضها القصير الذى أودى بها ..
ومع ذلك فقد عجبت لحزنه ، إذ كان حزنه فوق كل تصور ، وبدا لى كأن
موتها قد روعه كما لم يروع خطيبتها نفسه بل إنى لأستطيع أن أجزم أن أمها التكللى
كانت أكثر منه تجلدا وصبرا .

كان فى شروء دائم وذهول مستمر كأنما أصابه من موتها جنة أو مسه خبل ،
ورأيته يعرض عن الناس وعن العمل ويهجر مرضاه وعبادته ويخلد إلى الوحدة
مغرقا فى التفكير والحزن .

أيمكن أن ينشأ هذا الحب لمريضته الراحلة خلال بضعة أيام قضائها إلى جوارها
تلفظ آخر أنفاسها ؟

أيمكن أن ينشأ هذا الحب الجنونى الذى أورثه الفجعة وأفقده الرشد ، من
نظرات خاطفة وكلمات عابرة بين طبيب ومريضة فى نزعها الأخير ، أو بين حى
وميتة ؟

ليس من السهل أن يتصور الإنسان أن شيئا كهذا يمكن حدوثه ، فما أظن
هناك حبا يمكن أن يولد فى هذا الجو المشحون بالمرض والرغبة والوجل ،
وما أحسب أن هناك وقتا لدى الطبيب فى مثل هذه الظروف التى يجثم فيها شبح
الموت على النفوس أن يفكر فى حب أو يشتبك فى غرام .

أمر عجيب .. وأعجب منه وأشد إيلاما أن يترك الطبيب هكذا ممعنا فى لوعته
مغرقا فى أساه ، ويستمر فى حالته العجيبة كأنه عود يذوى وشجرة تجف .
ولقد حاولت مرارا أن أعيده لنفسه أو أعيد إليه نفسه وأن أخرجه من عزله
وأرفه عنه بمحاولات شتى باءت كلها بالفخية ، وأخذت أسوق له النصيح وأقص
عليه النكات ، ولكنه كان جامدا كالصنم ، شارد الذهن كالجنانين ، حتى
تملكنى منه فى النهاية يأس وغيظ وأحسست معجبنى منه يتطور إلى غضب عليه
حتى لقد صحت به .

— علام كل هذا الحزن واللوعة ؟ ما لك ولها ؟ ماذا كانت هى بالنسبة

إليك ؟ إنك لم تحزن على أملك كحزنك عليها ، هبك عشقتها من أول نظرة ، ماذا كنت ترجو منها وهى فتاة مخطوبة كانت توشك أن تصبح زوجة بعد بضعة أيام وماذا كان أملك فيها ؟ كلنا حزنا ولكن فى حدود العقل . إن ما فعله هذا هو الجنون بعينه ، يا أخى كلنا سنموت ، من الذى سيخلد فى هذه الدنيا ؟ فما بالك تكاد تقتل نفسك أسى وكماذا ؟!

واستمررت فى حديثى الغاضب وهو مطرق برأسه فى صمته الأليم ، ثم وجدته يرفع إلى عينيه ويطلق من صدره زفرة حارة ويحيينى قائلا :

— لا فائدة .. وفر حديثك ونصائحك ، فلو استطعت ألا أحزن ما انتظرت نصحك حتى أكف عن الحزن ، إنى أحس بنفسى غارقة فى دياجير من الحزن لا نهاية لها ، أحس أنى أرزح تحت عبء من المرارة يجثم فوق صدرى ويكتم أنفاسى ، كيف أستطيع أن أخرج مما أنا فيه إذا كان الذهن لا عمل له إلا تذكرها حتى ليخيل إلى أنه قد أضحى أشبه بالساعة فى كل دقة من دقائقها نطق باسمها ، إن الذهن لا يذكر إلا هى .. هى .. هى .. كيف أكف عن حزنى عليها ؟ أنا أراها مغمضا ومبصرا وناثما ويقظانا وواعيا وحالما .. إنى لا أستطيع مهما حاولت أن أبصر سواها أو أفكر فى غيرها ؟

— كل هذا قد فعلته بك معرفة بضعة أيام ؟

— بضعة أيام من قال لك هذا ؟ من قال إنها معرفة بضعة أيام ؟ ولكن معك حق ، أنا نفسى كنت أتخيلها تحسب الأمر كذلك حتى أدركت أنها تعرف كل شئ ..

— لست أفهم ما تعنى . فسر لى الأمر . برر لى حزنك على الأقل ، مادمت لا تستطيع الكف عنه ، لا تدعنى أجمل أنا الآخر من أجلك .. هلا كشفت لى عن علتك على أجد لك علاجا ..

— علاجا ؟! لا أظن أحدا يملك لى علاجا .. لقد كانت وحدها تملك العلاج ، أما وقد ذهبت فلم يعد لى علاج إلا فى يد الزمان ، دع الأمور للزمان

ليفعل ما يفعل ، فما عدت أهتم بشيء ، وما عاد لى أمل فى شيء .
 — ليكن ما تشاء .. ولكن أهناك ضرر من أن تحدثنى عن سبب ما بك ؟
 متى كان أول معرفتك بها ؟
 — أول معرفتى بها هى أول معرفتى بالحياة .. هى أول إحساس لى بأنى كائن
 على ظهر الأرض .. منذ زمن بعيد ، بعيد جدا ، كأنى به فى أول التاريخ ، أو
 بداية الخليقة .

كنت وقتذاك صبيا « جربوعا » أحد أربعة أبناء لموظف درجة سابعة ..
 وكنا نقطن فى جنيئة لاظ .. فى شقة لا تزيد على ثلاث حجرات فى بيت يطل
 على حارة السيدة من طرفها المنتهى عند شارع الخليج .. ولم يكن هناك وجه
 للمقارنة بينى وبينها ، وبين أهلى وأهلها ، وطبقتى وطبقتها ، وشقتنا المظلمة
 وقصرها المنيف ..

كانت تقطن فى حى المنيرة فى أحد القصور الفخمة التى يحيط بها سور
 حديدى مكسو بالنباتات المتسلقة ، وتطل من ورائه الأشجار العالية المحملة
 بالثمار والتى تكاد تخفى وراءها معظم القصر اللهم إلا بضع شرفات تطل من
 عل ، وعلى الباب الحديدى الضخم يجلس حارس أسود الوجه أبيض العمامة
 والثياب ، غليظ الشفتين لامع الأسنان براق العينين ، وفى أحد أركان السور
 تقوم « العربخانة » وقد احتوت على العربات الخنطور والدوكار والخيول العربية
 الأصيلة التى يسمع صهيلها من آن لآخر ، وفى الجانب الآخر من السور يقوم
 السبيل ذو الواجهة النحاسية اللامعة المزركشة وتبدو من وراء الواجهة الشبيهة
 بحاجز من الدانتلا حنفيتان ربط فى كل منهما كوب نحاسى .

تلك كانت دارها كما تبدو من الظاهر ، أو كأقصى ما استطعت أن أبصرها ،
 أما دارى ، فحدث عنها — فى الفقر والتواضع — ولا حرج .. يصبح الصبح
 علينا فنجتمع أربعتنا حول « سلطانية » الفول التى تعوم على سطحها بقع لامعة
 من الزيت الحار ، وندب أيدينا الأربع فى وقت واحد بالقلم الأربع فنخرجها

محملة ملأى لتغيب في أجوافنا في غمضة عين .. وتصرخ فينا أمنا منذرة بألا « نحف » وإلا انتهى « الغموس » سريعا واضطربنا إلى التكملة « بعيش حاف » .. ونستنفد ما بالسلطانية ثم نتفرق من حولها ، وأذهب إلى دورة المياه الضيقة المظلمة التي لا تكاد ترى فيها أصبعك والتي تعرف محتوياتها وتتحرك فيها بحكم العادة : فأغسل يدي ووجهي ثم ألبس بدلتى وأحمل كتي وأنتقل هابطا على الدرج الحجرى المتآكل ، وى من الانتعاش والسعادة ما بالمقدم على عرس أو المقبل على فردوس ..

وأجتاز شارع الخليج إلى حى المنيرة وتلوح لى دارها فيخفق قلبى بشدة ، لقد كنت على غير مذهب قيس حين يقول :

وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا
لقد كنت أحب الديار ، وما بها ، وما حولها ، كانت رؤية الشجر الوارف من بعد تثير في نفسى الشوق وتبعث الحنين ، كنت أحب الدار حجرا حجرا ، وشجرة شجرة ، كنت أحب العبد الأسود الرابض أمام الباب ، والكلاب النابجة فى الحديقة ، كنت أحب عبى الياسمين الذى يحمله النسيم إلى أنفى ، ولم يكن حبيبى لرائحة « العربخانة والخليل » بأقل من حبيبى للياسمين . لقد كان كل ذلك جزءا منها ومنمما لها . كنت أقرب من الدار فأتلكأ وأتباطأ حتى أصل إلى السبيل فأقف به وأتشاغل بالشرب منه وأظل أشرب وأشرب حتى يلوح لى شبحها فى الشرفة فأشعر أن قلبى كف عن الخفقان ولا أعود أحس بما حولى وآخذ فى التسامى حتى أحلق فى أجواز الفضاء .

ويحها .. أى سحر كانت تسلطه على ؟ من يصدق أنها كانت طفلة فى التاسعة ؟ هذه التؤدة والاتزان والوقفة الرفيعة الأبية السماء . من أين لها بها وهى ما زالت فى طور العبث والفقر والجبرى ؟

من يومها .. وهى هى ، ما تغير شيء فيها ولا تبدل .. اللهم إلا نمو فى الجسد واستواء فى الأعضاء ، أما الخلق وأما الحركات والتصرفات فما أظنها

تغيرت قط . كانت تقف في الشرفة متكئة على جدارها وقد أسندت ذقنها إلى كفها وشعرها الذهبي منساب على كتفها كأنه السبائك وكانت تسبح بصرها في الأفق البعيد .

وحدث ذات مرة أن صادفتها وجها لوجه ، فقد كنت عائدا من المدرسة قبل العصر وكنت في أشد حالات « الجربة » و « البهلة » ومررت بالدار كعادتي فإذا بي أجدها أمام الباب تهم بركوب إحدى العربات هي وبعض أهلها ، واتسعت عينها وعلت شفتيها ابتسامة حلوة ، أو هكذا خيل إلى ، ووجدت نفسي أتعثر من فرط الارتباك وبدا لي أني أصبت بما يشبه الغيوبة ، لم أفق منها إلا والخييل تضرب الأرض بخوافرها والعربة تهب الأرض نهباً ، وعدوت وراء العربة « وتشعبت » على مؤخرتها . لقد كانت فرصة قل أن يجود بها الدهر وسارت العربة تحترق الطرقات وأنا معلق بمؤخرتها وقلبي يدق بعنف كأني وصاحبتى على موعد في خلوة . واستمرت العربة في سيرها حتى وصلت شاطئ النيل فتمهلت وسارت بها الخيل الهوينا ، فهبطت من مكمنى وسرت بجوار العربة أسترق النظر إلى صاحبتى من قرب .

أى فوز هذا الذى أحسست به يومذاك وأنا أسير بجوار العربة أعدو إذا ما أسرع وأتمهل إذا ما تمهلت . لقد كان بي من السعادة ما يتضاءل بجواره لقاء العشاق .

واستدارت العربة لتعود من حيث أتت ، وحاولت أن أتخذ مجلسي وراءها لولا صيحة من أحد المارة الخبياء : (كبراج ورا يا أسطى) . أحسست عقبها بالكرباج يهوى على كتفى ويلتف على ساقى فأهبط إلى الأرض وأصيح باكياً ولم يكن هذا شر ما أصابنى في ذلك اليوم المشهود ، فقد عدت إلى الدار متأخرا عن موعد المدرسة بما يقرب من الساعتين واستقبلت في الدار « بعلقة ساخنة » ، ومع كل ما أصابنى من الضرب فقد نمت ليلتي قريراً ضياوياً من فرط السعادة ما أنساني لسعة الكرباج وضرب العصا .

(مبكى العشاق)

تلك كانت أولى مراحل حبي . مرحلة عاجزة يائسة ، ومع ذلك لم أحس فيها قط بعجز ولا يأس ، فإني لم أكن أتطلع إلى أكثر مما استطعت الحصول عليه ، نظرة من بعد ولقاء في الأوهام . لشد ما كنت أجد لقاء الأوهام . كنت أصورها لنفسى راقدة على ساق أعبث بيدي في شعرها ثم أحملها بين يدي هابطا بها من الشرفة إلى الحديقة وأتسلل إلى العربخانة فأمتطي أحد الجياد وأجعلها أمامي وأعدو بها إلى جزيرة نائية ليس بها مخلوق سوانا ، فننشئ لنا بيتا كما فعل « روبنسون كروزو » وأعيش وإياها كما يعيش « طرزان » .

تلك كانت أعذب الأمانى التى لم تتحقق ، فقد استمرت هى فى قصرها فى المنيرة وبقيت أنا فى دارى فى حارة السيدة . وإن كنت قد انتقلت من مدرسة المنيرة الابتدائية إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية ، ورغم أن دارها لم تكن فى طريقى الجديد إلى المدرسة ، فقد كنت أطوف بها يوميا ، إذ جعلت من طريقى لفة واسعة تدخل دارها فى دائرتها .. كانت دارها هى محور حياتى ، وكانت وقتذاك أهم من دارى ومدرستى .

وبدأت المرحلة الثانية ، لا تختلف كثيرا عن المرحلة الأولى إلا فى أننى صرت أكثر اتزاناً ، فلم أعد أستعمل السبيل كثيرا ، ولم أحاول الشغب وراء العربة ، وصرت أكثر ادعاء للاستقرارية وأكثر محافظة على أناقتى وعناية بهندامى .

وأهم من هذا وذاك أننى صرت أكثر اعتدالا فى أوهامى وأمنياتى ، فلم أعد أفكر كثيرا فى خطفها والهرب بها إلى جزيرة نائية ، بل لم أعد أتمنى أكثر من الجلوس وإياها فى حديقة التزهة أو الأورمان لتبادل أحاديث الهوى والغرام . ولم يكن لى شغل فى الحياة سواها ، وخيل إلى أننى عرفت عنها كل شيء ، وأننى درست — من فرط مراقبتها — كل طباعها وخلقها .

وبدأت المرحلة الثالثة بدخولى كلية الطب وبإحساسى بأنى قد أصبحت رجلا . وتطورت تمنياتى إلى توهمى خطبتها والزواج منها ، أقول توهمى لأن العلاقة بينى وبينها لم تزد على حد التوهم ، فقد استمرت هى كما هى ربيبة القصور

الرفيعة ، وبقيت أنا كما أنا ابن حارة السيدة المتواضعة ، الذى لم يدفعه إلى كلية الطب إلا هبة من الذكاء ساعدته على الحصول على مجانية التفوق .

ولست أدرى هل أحسست بى خلال كل تلك المراحل من الحب والوله ؟ . أعنى هل أحسست بى كإنسان خاص بها ، له ما يميزه عن بقية الخلق ، وما يجعله يعنى لديها شيئا ، أم لم أكن لديها أكثر من عابر سبيل تنساه عقب كل مرة تبصره فيها ، وترى فيه إنسانا جديدا لم تره من قبل ؟

هل كانت تذكرنى ؟ هل كانت تعرفنى ؟ من يدرى ؟

ومرت بى الأعوام فى كلية الطب ، وكلما قربت من السنة النهائية ازداد بى الأمل فيها وقوى فى نفسى الرجاء بأن أصبح ندا لها ، ولعائلتها .

ولم لا ؟ أليس الطبيب الناجح مهما كان أصله ندا لأى أصل طيب ومحتد عريق ؟

وهكذا تجسدت آمالى على الأيام وتركزت فى أمنية واحدة وهى ألا تخطب حتى يتم تخرجى وأتقدم إليها .

أمنية متواضعة معقولة ، لم أكن أظنها كثيرة على القدر . كل ما كنت أطلبه هو أن يبقيا لى خالية حتى أصبح طبيبا ، ومع ذلك فقد أبأها على .. أبأها على بطريقة وضع فيها الكثير من سخريته . ففى اليوم الذى ظهر فيه خبر نجاحى وتخرجى متفوقا من الكلية ، قرأت خبر خطبتها ، وأقسم لك أنى لم أحس لنجاحى طعما ولا لذة .. ما فائدته ما دام لا يستطيع أن يحقق أحب الأمنيات إلى ؟ ما فائدة النجاح إذا كنت قد فقدت التى من أجلها تميت النجاح وسعيت إليه ؟ لقد سخر القدر منى فأخذ يمينه ما أعطى ييساره ، ومنحنى الوسيلة وأضاع منى الغاية ، ما فائدة أقصى نجاح إذا لم يوصلنا إلى ما نشتهى ؟ .

وصمت صاحبى ، ووجدته يتنهد ويعتصر رأسه بيده ويغرق فى الصمت ، وقلت أستحثة .

— وبعد ذلك ؟

— لا شيء . أنت أدرى بما حدث بعد ذلك . فقد مرضت كما تعرف وتولى علاجها الطبيب الذى أعمل مساعدا له ، ووجدت نفسى فى النهاية ملاصقا لها ..

تصور أننى بعد طول اللهفة والحرمان أجد نفسى بجوار فراشها وهى راقدة مستسلمة بنفس الهدوء والتؤدة التى كانت تقف بها فى الشرفة منذ أعوام عديدة ، ونفس الروح الجميلة الأبية والوجه المشرق والشعر المسترسل .. لقد آيت أن أفارقها لحظة .. فقد كان كل شيء يجبرنى على البقاء بجوارها، حتى لها ، ورغبتى فى إنقاذها ، كنت أجد فى سهرى عليها راحة ومتعة. كنت أمسك بيدها وأجس النبض ، فأحس منها رجفة تسرى فى أوصالى .. وكنت أتخس جبينها فأرتعد وأنتفض ، كأنى أنا المحموم وليست هى ..

وبدأت العلاقة تتوطد بيننا ، وأخذت أقص لها على سبيل التسلية ذكريات الماضى ، وقلت لها ضاحكا كيف كنت أجرع من السبيل من أجلها ، وكيف كنت « أشعبط » وراء العربية ، وأريتها أثر السوط الذى مازال فى يدى ، وقصصت عليها كل شيء عنها .. حركاتها وسكناتها وأفعالها ثم قلت لها فى النهاية : كيف ضاعت منى الأمنية الأخيرة .. أمنية خطبتها ، وكيف قرأت خبر خطبتها يوم تخرجى ..

ضحكت كثيرا وسرت السعادة إلى نفسها وأنبأتنى أنها تذكرنى تماما وإنى لم أكن قط إنسانا جديدا فى كل مرة بل كنت دائما — كما تمنيت — شخصا مميزا عندها عمن عداى رغم أنها لم تكن تتوقع لى قط أنى سأضحى طيبيا محترما . هذا هو الشيء الجديد الذى عرفته والذى فزت به — وهو أنها كانت تعرفنى — أما الشيء الآخر فقد كان أجل من هذا شأنًا وأعظم خطرا .

فى ذات يوم وقد جلست وإياها أربت على يدها وأسلها ببعض الأفاصيص ووجدتها شاردة الذهن غاربة البال وبدأ لى كأن هناك ما يشغلها ، ثم سمعتها تقول فجأة :

— ٦٩ —

— أما زلت تعتبر خطبتك لى أمنية ضائعة ؟ أو لو كنت خالية أكنت تقدم على خطبتى ؟

— طبعا .. ما فى ذلك شك !

وعندما أقبلت أمها بعد ذلك أنبأتها — لشدة دهشتى — أنها ستلقى خطبتها وأنها ستتزوجنى بمجرد أن تبل من مرضها ..

وزادت دهشتى عندما وجدت الأم توافق ببساطة على قول ابنتها وتقول مؤكدة إنى أكثر من خطيبها إخلاصا ، وأشد وفاء ، بعد أن كشف لها المرض مبلغ هذا الوفاء .

وهكذا وجدتنى فجأة أفوز بأقصى أمنية كنت أتمناها مدى حياتى ، الأمنية التى سعت إليها طول العمر ، لقد فزت بها لأفقدتها بمنتهى البساطة فى اليوم التالى ؟

كيف يحدث هذا ؟ ولم ؟ إنى أكاد أجن !

ألم يجد الموت على ظهر البسيطة سواها لينشب فيها غالبه ؟ أنى أذكر الليلة الأخيرة ، أذكر صراعها مع الموت : آه لو كان إنسانا يرى ويحس لمزقه بأنياى وشربت من دمه .

كيف يأخذها منى فى اللحظة الأخيرة ؟ اللحظة التى أحسست فيها بعد طول تمن وتشوق أنها قد أضحت لى .

أبعد كل هذا تلو منى على لوعتى وتطلب منى ألا أحزن .

ولم أجبه !

فقد كنت أنا فى هذه المرة ، المفرق فى الحزن والأسى .

ليتك تحبينى

حبينى يا حبيتى .. أو اكرهينى .. إني أحبك ..
أحب حبك . وأحب كرهك .. فلي في كل إحساس
تمنحيتنى إياه عزاء وسلوى ، كل ما أرجوه منك . شيء
واحد .. هو أن تذكرينى ولا أظنك إلا فاعلة ..

عزيزتى ...
أشد ما أنا حائر فيما أرجوه منك .. أرجو منك أن تحبينى أو تكفى عن
حبنى .
كم أود لو تحبيننى كما أحببتنى دائما .. وأن تمنحينى من نفسك الرفيعة
وإحساسك المرفف وحبك الفياض .. ما تعودت أن تغدقيه على .. فما
أحسست أنى في حاجة إلى حبك كما أحس الآن ..
إني أود أن أستمع منه شجاعة تعيننى على ما أوشك أن أقدم عليه .. وأود أن
أستلهمه عزاء يجعلنى أقبل على النهاية قريرا راضيا .
ومع ذلك .. فإننى أتمنى أن تكفى عن حبى .. وأن تنزعى من قلبك
جذوره .. وتلفظيه من صدرك لفظ النواة . لأننى أخشى عليك منه .. وأكره أن
أسبب لك فجيرة تعصف بنفسك ..
كم أود أن تكرهينى لأننى لم أعد ذلك الأنانى الذى لا يحس إلا بنفسه ولا يأبه
بإنسان سواه-إننى أستطيع أن أحتمل فجيرة كرهك ولكنى أخاف عليك من
فجيرة حبى .
اكرهينى .. أرجو . حتى لا توحشك غيبتى .. أو يؤلمك فراقى .. أو

تفجعك نهايتى .

إنى أحبك .. وفى سبيل حبك .. أستطيع أن أحتمل كل مصاب .. حتى مصاب كرهك .. ما دام فى ذلك تخفيفا للوعتك .. وتهدة لأحزانك .
ولكنى أعود مرة أخرى .. فأتلهف على حبك .. وتعز على نفسى .. التى طهرتها من الدنيا .. وخلصتها من الشوائب .. أن تحرم من حبك .. وهى ما استحقته كما تستحقه الآن .. وما تاقث إليه كما تتوق الآن .

حبينى يا حبيبتى .. أو اكرهينى .. إنى أحبك .. وأحب حبك .. فلى فى كل إحساس تمنحني إياه عزاء وسلوى .
كل ما أرجوه منك . شىء واحد .. وهو أن تذكرينى .. ولا أظنك إلا فاعلة ..

دعنى أعترف بفعلتى الشائنة .. فقد استمددت من توبتى قوة على الاعتراف وأضحيت أحس وأنا أكتب إليك أنى إنسان آخر .. نظيف محترم .. وبت أعتقد أنك لاشك غافرة لى .. ألم يقولوا « إن التائب من ذنب كمن لا ذنب له » .

أول ما أود قوله .. هو أنى لم أحبك — قبل الآن — قط .. وأن كل مشاعرى نحوك .. كانت رياء فى رياء .. ونفاقا فى نفاق .. وأنى كنت أخدعك لغاية فى نفس يعقوب وأنى كنت أوقعك فى حبى .. لأجعل من حبك لى قنطرة توصلنى إلى غايى وأنك لم تزيدى قط فى نظرى .. عن مخلب قط .

ومع ذلك .. فإنى أحس أن مخلب القط .. لم يصب بسوء .. وإنما أحرقت النار أصابعى أنا .. وعلى وجه أدق أحرقت قلبى وجعلته هشيمًا تذروه الرياح ، إن النار لم تجرؤ على إصابة الطاهرين البررة .. فجاوزتهم إلى الأشرار الفجرة .. أنا محترق بنيران ندى ونيران حبك .. أما أنت فقد جعل الله كل نار عليك بردا وسلاما .

لقد نصبت حولك الشراك . وأنت عذراء طاهرة نقية ما توقعت منى شرا

ولا أوجست خيفة .. بل أقبلت على مرهفة .. آمنة مطمئنة .. تبذلني لي من مشاعرك ومن أحاسيسك أرق وأطهر ما بذل إنسان .

لست أدري ما إذا كنت مخلوقا شريرا بطبعه فاسدا بسليقته .. أم أن الظروف الهوجاء هي التي دفعتني إلى حماة الرذيلة .. وهوت بي في بؤرة الشر .. على أية حال وسواء أكنت هذا أم ذاك .. لقد وجدتنى في النهاية عضوا في عصابة أشرار من محترفي السوء ..

لا أريد أن أضيع الوقت في وصف كيفية انزلاقي إلى الهاوية .. فلا أظن في ذلك ملتصبا لعذر .. أو تخفيفا للذنب ولأنني لا أريد أن ألوث ذهنك النقي بمثل هذه الأقاصيص القذرة .. والأجواء الملوثة .

كنا نجتمع ليلا في بؤرة من بؤر القمار حيث ندير الخطط لإيقاع الصيد وسلب الأموال .. أو عقد صفقة المخدرات .. أو .. أو .. إلى آخر ذلك من فعل السوء والمنكر .

وفي النهار ، كنت موظفا في إحدى الشركات الكبرى ، نقى الضمير محترم المظهر ..

ولم تكن ليالينا الحمراء بالدائمة الريح ، بل كانت عواقبها في أغلب الأحيان غير مأمونة ، ولكن عندما كانت الصفقة تنجح ، كانت تعوضنا خيرا .
ولست أشك في أن فعل السوء لا بد له من نهاية .. فكل شيء في هذه الحياة له نهاية .. ولكنني لا أظن أن النهاية كانت تحين بمثل هذه السرعة التي حانت بها .. لو لم ألتق بتلك البوهيمية خليلة السوء .

كانت ممثلة معروفة .. بيضاء شقراء ، خلاصة برافة ، من نوع يعتمد في حياته على مواهب جسده .. سواء في التمثيل أو في الحياة .. ووجدتنى في يوم وليلة صريع هواها وعبد جسدها .. فما كانت — كما قلت لك — أكثر من جسد ولست أدري ما أعجبها في .. ؟ أهى المغامرة ؟ أم تقارب الشر بين نفسينا ؟ أم أنها كانت لا بد أن تتصيد رجلا ؟ فكنت أنا ذلك الرجل ؟

لقد أقبلت على بادئ الأمر فمحتنتى اهتمامها دون غيرى من الخلان .. وبعث النصر نشوة فى رأسى . ولذلى أن يكون لى ما أغراها . وأن تقع المرأة الذئبة بين برائتى ، وأقبلت عليها أنا الآخر . وانتحيت بها مكانا قصيا .

ومرت الأيام وكلانا يعب من كؤوس الهوى الشيطانى السفلى .. الذى لا يمكن أن يكون سواء صلة بين أمثالنا .

وقد بدأت الهوى وإياها على قدم المساواة .. كلانا — كما يقولون — فى الهوى سوى .. متساويان فى الشوق ، متساويان فى اللهفة والإقبال بكل منا من الرغبة والظما إلى صاحبه قدر ما بالآخر .. وأخذنا نعب ونعب .. فإذا بها تترتوى وإذا بالكأس يزيدنى ظما ، والجسد يزيدنى اشتياقا ولهفة .

لقد بدأت تمل وأخذت أزداد شوقا .. كنت فى نظرها صيدا قد انتهت منه ، وكانت فى نظرى غراما عنيفا مستعرا ووجدت أنه لم يعد هناك بد من أحد أمرين : إما أن ألفظها أو أبتاعها بالثمن ، وأخذ من جسدها بالنقد ما سبق أن منحتنى إياه مجانا لوجه الهوى ..

ولم أستطع بالطبع أن ألفظها .. ولم يكن لدى من الوقت ما أقضيه فى اختلاس الثمن من اللبالي الحمراء .. بل لم تكن اللبالي الحمراء نفسها أمينة على أن تهبنى الثمن الدائم .. فقد كانت فى أغلبها سوداء قاتمة ..

هكذا لم أجد أمامى .. بدل اللبالي الحمراء السوداء ، إلا الأيام البيضاء فى عملى . وبدأت أستحلها الثمن .. اختلاسا وسرقة ..

بدأت أسرق وأزور وأختلس .. أبذر لها النقود بذرا لأحتفظ بملكيتى لجسدها الأبيض النجس .. ومع ذلك فما استطعت به احتفاظا . لأن الجسد الداعر — على رخصه — لا يمكن الاحتفاظ به . لأنه يأبى إلا أن يكون ملكا مشاعا كأديم الأرض أو ممسحة النعال أو صندوق القمامات .

ولم يكن هناك مفر من الفرقه .. ولكن ذلك لم يوقف يدى التى تعودت الاختلاس واطمأنت إلى السرقة وبدأت أستبدل الخليفة بخليفة ثانية وثالثة

ورابعة .. وأصبحت النساء بالنسبة إلى سلعا لا يستعصى على ابتياعها .. مهما غلت .

وكما قلت لك .. لا بد لكل منكر أن تنكشف نهايته ولم يكن الاختلاس الذى أرتكبه يشذ من غيره من المنكرات. ففى ذات يوم .. بدأ يفتضح ، وأخذت رائحته النتنة تفوح من وراء الستر والحجب .. وإذا بالطامة توشك أن تحل . وقبل أن تقع الطامة تماما ، علمت أن عنقى قد أضحى فى يد مخلوق واحد .. هو جلادى الأول .. الذى يستطيع أن يجز عنقى أو يدبر لى النجاة . ولم يكن هذا المخلوق سوى أببك .

وتشاء الظروف فى هذه الفترة الحرجة أن ألتقى بك .. ولقيت منك إقبالا ولطفة .. ودفعت فى ذهنى الخبيث فكرة هيات لى من ورطتى مخرجا .

أنا إنسان بلا قلب .. إنسان شرير أثم تعودت أن أجد فى النساء سلعا تشتري ، وتعودت أن أبتاع المشاعر والعواطف والحب بالنقود .. لم لا أجرب العكس ؟ فأحاول أن أبتاع بالحب نفسى ومصيرى ومستقبلى ؟

لم لا أحاول أن أوقعك فى شراكى ؟ وأنا بالنساء خبير عليم ؟ وأنت — كما تبدين — غريرة طيبة ساذجة ؟

وبدأت أمثل معك دورا ، أعاننى الحظ والظروف والقدر الساخر على أن أتقنه أيما اتقان .. ووجدتك — دون كثير جهد أو مشقة — قد أضحيت لى صبة مولدة .

ولم يصعب على أنا الآخر أن أبدو أمامك صبا ولهانا وأن أبادل حبك الأمين المخلص بحب زائف مصطنع وأن أجعل قدمك تزل فى الهاوية ، وأن أحملك منى ما لا قبل لك على الخلاص منه .

وهكذا أحسست أن عنق أببك .. الأبى الشريف .. المحافظ الذى قد يصصره أن يחדش شرفه .. قد بات فى يدي كما كان عنقى فى يده وأن كلانا قد أضحى ندا لصاحبه .

وقبل أن يتورط في اتخاذ معنى إجراء لا يمكن إصلاح عاقبته .. صممت على أن أفتحه في الأمر وأبدأ معه مساومتي العجيبة .

والتقيت به وسألته أن يسوى المسألة .. ويدبر لي طريق النجاة .. فقد كان الأمر بيده وحده .. ولكنه أنبأني في حزم أنه لا يستطيع التستر على سارق مختلس وأنه سيمنحني فرصة يومين لإعادة المبالغ المختلسة . وإصلاح كل ما أفسدته وهو يعتبر ذلك أقصى ما يستطيع فعله لإنقاذى .

ولكنى قلت له إن هذا قد يكون حقا هو أقصى ما يستطيع فعله لإنقاذى أنا ولكنه لا شك يستطيع أن يفعل أكثر من هذا لإنقاذ نفسه .. أو لإنقاذك أنت . وذهل .. ولم يدر ما أعنى ونظر إلى نظرتة إلى أبلة أو مجنون .. ولكنى أنبأته ببساطة عن كل ما بيننا .. وقلت له إن مطالبك منى أثقلت كاهلى واضطرتنى إلى الاختلاس وأن المبالغ المختلسة لم تذهب بعيدا بل هى فى بيته ومع ابنته وإنك —وبالتالى هو — تعتبران شريكين معى فى كل ما حدث .

ثم أنبأته — ببساطة أيضا — أنه لا يرضى لحفيده العزيز . الوجود ليجد أباه ملقى فى أعماق السجون .

وصعقه قولى .. وكاد من هول الصدمة أن يصرع ..

ومضت برهة وهو يحدق فى فاعرا فاه .. والعرق يقطر من جبينه .. وقد علت وجهه زرقه داكنة وتقلصت شفتاه وارتجفت أطرافه .. ثم أفاق من الصدمة .. ليندفع كثور هائج ذبيح يرغى ويزيد ويهدد ويتوعد .. وينعتنى بأقبح التهم وأشنع الأوصاف .. وقائلا لى إنى أفاق محتال كذاب أشر . وإنه لا يصدق كلمة واحدة من المقتريات التى تفوهت بها . وإنه لا بد مبلغ عنى النيابة والبوليس .

وانتظرت عليه .. حتى أفرغ ما فى جعبته من عواصف الغضب وزوابع الثورة ونصحته بهدوء أن يكف عن غضبه وأن يهدأ من نائثرته .. وأن يحاول أن يفكر فى المسألة تفكيراً عمليا وألا يندفع فى ثورته فيرتكب ما يورثه الندم

والحسرة .

وافترقنا .. وهو ما زال في حنقه وغضبه وثورته .. دون أن يعدنى بشيء .. بل لقد أصر على أنه — مهما بلغ الأمر — فلن يكون متسترا على سارق .. أو شريكا لمحتال . حتى ولو كان في ذلك إنفاذا لعرضه .. وسترا لفضيحتة . وكان على أن أنتظر مصيرى في حيرة وقلق .. وكنت أعلم أن الأمر ما زال معلقا على لقائه معك .. وعلى مصير العاصفة التى توشك أن تهب بينكما .. وعلى ما يقوله لك .. وتقولينه له ..

ترى هل ستكرين ما حدث أم ستعترفين به .. وتقولين إنك ذهبت ضحية مخادع محتال ؟

ماذا سيكون رأيك فى يا ترى ؟

كيف تتلقين الصدمة ؟

لقد كنت أحس أنى أنتظر على أحر من جمر الغضا .. ولم يكن هناك ما يطمئننى .. إلا الأثر الذى تركته فى حشاك لقد كان ذلك الشيء هو الورقة الراجعة التى ألب بها .. والتى أحس أنها سترغم أباك على أن يفعل من أجلى .. أو على الأصح من أجلك .. كل شيء .

. وهو الذى سيجبره على أن يرضخ .. ويقبل أن يكون ما يسميه . متسترا على محتال .. وزميلا لسارق .

وكان ما توقعت .. فقد استدعانى فى اليوم التالى .. وقد أفزعنى ما وجدته عليه من شحوب وتهدم وتحطم .. وبدأ لى كأنما قد هرم فجاءه ، وأن العمر قد عدا به فى يوم بضع سنين .

ولم يكن نائرا .. فقد بدا أضعف من أن يثور .. ووجدته يقول بصوت متهدج وفى لهجة مخذول مستسلم .. إنه قد علم منك أنى صادق فى كل ما قلت .. وأنك السبب فى كل ما حدث .. وأنك مسئولة عن كل ما فعلت .. ثم أنبأنى أنك خررت راکعة على قدميه .. وتوسلت إليه أن

ينقذنى .. وأن يمنحنى الفرصة لأعيش إنسانا شريفا من أجلها ومن أجل ابنها ..
وإنه إزاء توسلك .. واستغفارك .. لم يملك إلا الغفران .. وأنه قد قرر أن ينقذنى
فعلا .. ولكن ليس بالتستر على .. بل أن يدبر لى المبلغ المختلس .. ويهبه لى حتى
أستطيع أن أسوى الأمر .. على أن أعده أن أكون بعد ذلك رجلا شريفا وزوجا
مخلصا .

وذهلت .. ولم أصدق أذننى فى بادئ الأمر .. فقد كنت أتوقع كل شىء
إلا ما قاله .. وإلا ما فعلته من أجلى . وما فعله هو من أجلنا .
وتسمرت فى مكانى أحملق فيه .. فاغرا فمى .. فقد أصابنى من قوله نفس
الصدمة التى أصابته من قولى .. وأحسست أنى صعقت أو صرعت .
ومد يده إلى بالشيك قائلا .. إن هذا هو كل ما يملك وأنى أستطيع به أن أنقذ
نفسى .

وخرجت من حضرته أتعثر وقد أحسست أن هناك شيئا قد نبت فجأة فى
نفسى .. وسبب لى وخزا شديدا وطعنا مؤلما .. شيئا .. لم أحس به من قبل
قط .. ولا ظننت أنى سأصاب به فى يوم من الأيام ..
كان ذلك الشىء الذى ظننته من قبل وهما يصاب به الحمقى والمخبولون .. هو
الضمير .

أجل .. لقد تملكنى .. لأول مرة فى حياتى ندم شديد وأدركت أن هناك
عذابا على الأرض .. يسمى عذاب النفوس ..
لقد أصابنى فجأة .. من الكره لنفسى .. مالا يعادله . إلا ما أصابنى من
الحب لك .. لقد أحسست لأول مرة .. أنى أحب إنسانا بإخلاص وطهارة
وبراءة .. حبا نظيفا ساميا .

لقد بدا لأبيك أنه قد وضع حدا لمتاعبى عندما وهبنى النقود وأنه أنقذ بها
حياتى .

ولكننى أحس أنه قد حطمنى تحطيمًا .

كيف أجرؤ أن آخذ مالك وماله .. فأحبو به عارى .. وأغسل به سرقتى واحتيالى .

هل يمحي العار بالعار .. وهل تغسل السرقة بالسرقة ؟
أنا لا أستطيع أن أذهب هكذا ببساطة كأى نذل .. فأسد من نقودك سرقتى .. ثم أعود إليك فأتزوجك .. أنا لا أجرؤ على فعل هذا .. بل لا أجرؤ على مجرد التفكير فى لقاءك .

أنى خجل من حياتى .. ولقد فكرت كثيرا فى الأمر وقلبتى على جميع وجوهه .. وانتهى بى التفكير إلى حل قد يكون فيه بعض الترضية لك . والتفكير عما فعلت .

إن حياتى كما قلت .. قد أضحت غير محتملة وغير ذات قيمة .. ولكن موتى .. لو أحسنت استغلاله .. فقد يفيد ثلاثتنا .. أنا وأنت ووليدنا المنتظر .. فأما بالنسبة لى فلا شك أنه واضح لمتاعبى نهاية .. أما بالنسبة لك وللأبن العزيز فإنى أستطيع أن أجعله يهيكما بعض الترضية ويحمل عنكما بعض العبء . لقد أمنت على حياتى بمبلغ كبير .. كتبته باسمك .. تستطيعين بواسطته أن تسددي المبالغ المختلصة عن طريق أبيك .. وأن تقومى بأود الوليد حتى يعرف أن أباه لم يتركه عالة .. وأنه كان فى ممانته .. رجلا شريفا .

وسأحاول أن يبدو موتى طبيعيا .. فى حالة انقلاب عربية فى طريق الإسكندرية الصحراوى .

وطى رسالتى هذه تجدين بوليصة التأمين .. والشيك الذى وهبى أبوك إياه .. وعقد الزواج بيننا .. حتى توضع الأمور فى نصابها .

لقد كان حبيبى لك فى أول الأمر خدعة .. ولكنى أؤكد لك .. أنى قد أصبحت أعبدك وأنى أود لو استطعت أن أقبل موطئ قدميك .
ولقد غررت بك فيما مضى ولكنى أتركك الآن زوجة شريفة .

— ٧٩ —

ولقيتك وأنا محتال .. ولكنى لن أستقر فى مضجعى حتى أكون قد محوت عن
نفسى كل عار ..
ترى أما زلت تحبيننى .. أم قد تطاير حبك وتبدد .
ليتك تحبيننى .

المخلص

(.....)

اللوحة الأخيرة

إلى سأقدم على الانتحار بمجرد انتهائى من لوحها
الأخيرة .
الأخيرة !! لا .. لا .. لا .. أظن . عليك أنت أن ترسم
اللوحة الأخيرة .. لى .. ولها .

كان معى بالأمس .. أصبح ما يكون جسدا .. وأهدأ ما يكون نفسا .. كان
طبيعيا فى كل شىء .. فما لاحظت عليه شيئا من تغير أو غرابة . بل كان كعهدى
به دائما فى كل تصرفاته .

ومع ذلك .. فما أصبح الصبح حتى فوجئت بنعيه فى الصحف .
ذهلت .. وأحسست بالحروف تراقص أمام عيني وأعدت قراءة النعى مرة
أخرى على أن أجد اختلافا فى الاسم ولكنى وجدته هو هو بعنوانه ووظيفته
وأقاربه .

وأنا أو من بالموت . وأومن بأنه على قيد خطوة من كل كائن حى .. وأومن
كذلك بأن صاحبى — كغيره من الناس — قد يموت فى أية لحظة .. وأنه لا تعفيه
من الموت وفرة صحة ولا هدوء نفس .. وأنه لا يستعصى على الموت فى الصباح
لمجرد أنه كان معى فى المساء .

أنا أو من بكل هذا .. ومع ذلك فما أظن هناك نبأ روعنى كتباً موته .. إن
إيماننا بالموت وتأكدنا منه لا يخفف عنا من وقع صدمته .. ولا يمهّد لمفاجأته
ولا سيما إذا كان الميت عزيزا علينا حببنا إلى نفوسنا . ولقد كان صاحبى من أعز
الصحاب على نفسى وأقربهم إلى قلبى .

ومضت على برهة وأنا ساهم واجم .. مطرق برأسى مسندها ييدى حتى
أخفى قطرات تفرقت في عيني الضنيتين بالدموع .
وكان أول ما خطر ببالي أنه قد مات في حادث ، فليس هناك ما يرر موته
المفاجئ إلا ذلك .

وأمسكت بالتليفون أطلب أحد أقاربه لأستفسر منه عن سبب وفاته ..
وجرى بيني وبينه حديث قصير .. ثم تركت السماعة تسقط من يدي .. وقد
تضاعفت دهشتي واشتد ذهولي .

من يصدق هذا !! من يعقل أن هذا الإنسان الهادئ القدير يتحجر ..؟
هذا الفنان الذى يعيش في جو من الجمال والهدوء .. والذى يقضى جل وقته
قابعا بين لوحاته وألوانه وريشته ونماذجه والذى تسير به الحياة هادئة ناعمة ..
ماذا يمكن أن يدفع بمثله إلى الانتحار ..؟

لقد روعنى نبأ موته .. رغم أنه ككل إنسان معرض للموت ، أما موته
منتحرا ، فذلك ما لم أستطع قط أن أبرره أو أعقله . لا .. لا .. إن هذا شيء غير
معقول .. إن صاحبي لا يمكن أن يموت منتحرا .. فلا هو لديه ما يبعثه على
الانتحار ، ولا هو يستطيع أن يقدم عليه .. فالانتحار يستدعى نوعا من الجرأة
والإقدام والطيش والنزق .. لم تكن قط تتوفر فيه .. لقد كان لا يستطيع أن يقدم
على قتل عصفورة فكيف يجرؤ على قتل نفسه !

ومع ذلك ، ورغم كل ما ذكرت من استحالة إقدامه على الانتحار ، فقد
كان انتحاره أمرا لا شك فيه .. فقد وجدوه في حجرتهم غارقا في الدماء بين
لوحاته ، وقد تقلصت يده على مسدس صغير ونفذ الرصاص من مؤخرة رأسه .
وهكذا ثبت بما لا يقطع الشك أن المسكين قد انتحَرَ .

أما لم ؟ ولأى سبب ولأية (علة) فهذا ما ترك رؤوسنا تدور حيرى
متسائلة .

وشيعت جنازته شارد الذهن غارب البال .. وعدت إلى الدار حزين القلب

محطم الأعصاب .. فإذا بالبريد قد حمل إلى الرسالة التالية :

عزيزى ...

أكتب إليك لأنى أحس بلهفة على أن أقول شيئا قبل أن أذهب .. شيئا يرفه عن نفسى .. ولا يتركنى أذهب هكذا مطبق الشفتين .. دون أن أفوه حتى بكلمة وداع .. لقد تعودت عندما أفارقك ليوم أو بعض يوم أن أفارقك بتحية .. فلا أقل منها وأنا أفارقك إلى الأبد .

أريد أن أنفس عن نفسى وألا أتركها تذهب بعبثها الذى أنقض ظهرها .. أريد أن أقول ما قد ينصفنى فى غيبتى .. وأن أبدى لرحلى مبررات إذ يعز على أن أتهم بالانتحار بلا سبب .. لمجرد السخف أو الجنون .

ولقد انتقيتك أنت من دون الناس . لأنك أقدر الناس على فهم ما أقول .. ولأنك — أنت نفسك — أحد مبررات الرحيل .. إن لم تكن مبرره الأول .. ولأنك بعد كل هذا ما زلت عزيزا على نفسى حبيبا إلى قلبى .

أولا .. أود — قبل أن أبدأ بالتفاصيل — أن أفهمك أن لى فى مسألة الانتحار وجهة نظر تختلف تماما عما يراه فيها بقية الناس .. ولنى مقتنع بها تمام الاقتناع . وقد يكون هذا هو ما جعلنى أقدم على الانتحار كأبسط وسيلة لخلاصى مما أنا فيه ، وكأسهل علاج لما أصبت به .

لست أدرى لم يحرمون الانتحار ويتهمون المنتحر بالخور والجبن ..؟ ألم يزعموا أن الإنسان ولد حرا ؟ ويعيش حرا ؟ لم إذن لا يموت حرا ؟ ألم يكفلوا للإنسان كل الحريات ؟ حرية الفكر وحرية الدين .. وحرية الرأى .. فلا أقل من أن يكفلوا له حرية البقاء فى الحياة .. أو حرية الموت . لم لا يموت كما يشاء ؟ وحيثما يشاء ؟ لم يقيدونه بظروف معينة وطريقة محتومة ؟ ثم أين الخور والجبن فى الإقدام على الانتحار ؟ إذا قتلت كل هذه النفوس فى الحروب لصد العدوان على أوطانهم سموهم شهداء .. وإذا قتل امرؤ نفسه ليدفع عن نفسه عدوان الدنيا وجورها سمي جبابا رعديدا ؟ أهناك أحق من نفوسنا

بالدفاع والخلاص ..

هل فهمت ماذا يعنى الانتحار لدى ؟ يعنى أنى أملك حرية الموت ، وأنى أحس أن لى الحق فى أن أغادر الحياة .. وقتما أشاء . ولقد بدا لى أنه خير لى أن أخرج من الحياة فخرجت .. مسألة فى غاية البساطة .. لا بشاعة فيها ولا خور ولا جبن . ولو كان لديكم من الفهم والشجاعة ما بى .. لتركتم الدنيا التافهة تنعى من بنوها .. إن كل ما فعلت .. هو انتقال من حال إلى حال .. ألم يقولوا إن الروح باقية ؟

هذه هى وجهة نظرى فى الانتحار .. ليس فيها ما قد تراه من تهويل وترهيب ، بل هى علاج بسيط لما أصبت به .
بقى على أن أشرح لك ما أصبت به .. مما استدعى منى الإقدام على ذلك العلاج .

أتذكر ذلك اليوم الذى عرضت عليك فيه إحدى لوحاتى الجديدة وأخذت أنت تحديق الصورة وتأملها ثم هزرت رأسك وقلت لى فى شىء من العجب :

— أراك قد غيرت نموذجك .

— أجل .. هذا نموذج جديد .. ما رأيك فيه ؟

ورأيك تزم شفتيك وتستمر فى هز رأسك ببطء دون أن تقول شيئاً .
وأردفت أنا أقول :

— ألم تقل لى إننى أكثر من استعمال النموذج الأول حتى بت تميزه فى كل لوحة .

— أجل .. أذكر أنى قلت لك هذا .

— ما رأيك فى هذا النموذج الجديد .

— يبدو لى أن النموذج الأول .. خير منه بكثير .. على الأقل من ناحية الخلق .

ونظرت إليك في دهش .. وحاولت أن أتبين ما إذا كنت جادا في قولك .. أم كان حديثك مجرد هذر كما عودتني أن تفعل .. ولكن بدا لي من ملامحك أنك لا تهزل فقلت لك متحكما :

— تعنى أن النموذج الأول أحسن من الثاني خلقا .
— بكثير .

وانطلقت أقهقه وسألتك هازئا :
— وماذا تعرف أنت عن أخلاق هذه أو تلك .. لعلك قد أصبحت عالما نفسانيا .. أو قارئاً للصور .

ونظرت إلى في استخفاف ثم جذبتني من يدي وأشرت بسبابتك إلى وجه النموذج المرسوم في الصورة .. وقلت :

— أنظر .. هذين العينين الضيقتين المائلتين اللتين يشع منهما بريق المكر والخبث وهذين الحاجبين المرفوعين والشفيتين الممتلئتين العريضتين المطبقتين اللتين تبدو فيهما الرغبة في التدمير والسخرية بالعهود والوعود .. إن في ملامحها طابع الأثرة والأنانية إنها تريد كل شيء لنفسها .. وقاطعتك ضاحكا :

— كفى .. كفى .. كل هذا تراه فيها ؟. والله لو اتخذت الشيطان نموذجا .. لما قلت فيه أكثر من هذا .

— ومن قال لك إن هذا ليس نموذجا شيطان .. شيطان جميل أحور العين أهيف القد مرهف النهد ..

— على أية حال .. أنا في حاجة إلى نموذج ملهم .. سواء أكان شيطانا أم كان ملاكا .

— أنت وشأنك ، ولكن كن منه على حذر .

— ليس على من ملهماتي خشية .. إني رجل عمل .. إن الخوف من الملهمات عليك أنت .. نجاك الله منهن ..

ولقد كنت فى دعائى لك فى تلك اللحظة صادقا .. فقد كنت أعلم الناس بكثرة مغامراتك .. وكنت إذا ما نصحتك أنبأتى بأنه لا بد لك من المغامرة للحصول على ملهمة لأنك لا تستطيع أن تكتب إلا عن أحاسيس تختلج فى نفسك .

لقد كنت دائما أوقن أنك فنان بسليقتك .. وأنتك منلى تماما .. تحتاج فى قصصك إلى نموذج تنقل عنه .. حتى تسرى الروح فى كتابتك وتسمع الأنفاس من كلماتك ، وحتى تصبح الأسطر صدى لما يعتل فى نفسك وما يصطخب فى حسك .

وكنت لا تخفى عنى شيئا ، حتى بت أعرف ملهماتك واحدة بعد واحدة حتى لو غبت عنى .. لقد كنت أعرف أحوالك من قصصك وألح فيها ما حل بك .. وأعرف من وراء السطور ما إذا كنت قد دخلت فى مغامرة جديدة . واستبدلت ملهمة بأخرى .. وما إذا كنت سعيدا أم بائسا .

مرت الأيام وأنا أعمل مع نموذجى الجديد .. شاعرا منه بأقصى الرضاء والطمأنينة .. لقد أحسست حينذاك أنك لم تخطئ فى شىء قدر خطئك فى فهم ملامحها .. حتى خيل إلى أننى لم أجد رسمها ، وأننى المسئول الأول عن خطئك وصممت على أن أصنع لها رسما أبرزها فيه نموذجا للطهر والبراءة والتضحية . وسألت ذات يوم عن رأيك فى اللوحات الجديدة فرأيتك تهز رأسك وتقلب شفتيك وتقول :

— لاتضع الشئ فى غير موضعه .. هذه الأشياء من أمثال الطهر والبراءة والأمومة . استعمل لها نموذجك الأول . أما النموذج الجديد .. فله مواضعه .. إذا لم تستطع استعماله فدعه لى أخرجه لك كما يجب .

قلت ذلك على سبيل الفكاهة والمزاح ولكننى أحسست بقلق وضيق ، من قولك « دعه لى » .. وقد تكون لم تعن بقولك شيئا سوى مجرد الكلام والدردشة ولكننى مع ذلك شعرت منه بخوف خفى .

ترى ماذا كان سبب ذلك القلق والضييق ؟

سبب بسيط .. هو أنى بدأت — لأول مرة فى حياتى — أشعر بالحب .
لقد أحببت نموذجى الجديد .. أنا الغريق بين التماذج والذى لم أحس لها قط
بأكثر من أنها جزء من العمل .. كالريشة والألوان . وتملكتنى منك غيرة
خفية .. وأنت تقول « دعه لى » . كانت لى رغبة فى الاستحواذ عليه كشيء
خاص لى .. لا يشاركنى فيه غيرى ..

ولست أدرى حتى الآن ما الذى جعلنى أحب هذه المخلوقة دون غيرها من
سائر المخلوقات .. هل كان تحذيرك لى منها هو سبب وقوعى فى حبائلها ؟
ألا تذكر ونحن طلاب فى السنة الرابعة الثانوية كيف حذرنا مدرس اللغة
العربية من قراءة مصرع كيلوباترا الذى أعطوه لنا ضمن كتب هذه السنة .. لأنه
على حد قوله — يفسد أخلاقنا .. فكان أول شيء قرأناه فى تلك الكتب هو
مصرع كيلوباترا ؟ بل إنه كان الكتاب الوحيد الذى قرأناه من بين الكتب
المدرسية ..

لقد أنتج تحذيرك من نموذجى الجديد .. ما أنتجه تحذير مدرس اللغة العربية
من مصرع كيلوباترا ..
ووجدتنى أندفع فى حبها اندفاعا جنونيا .. وضعت فيه كل مشاعر فنان طال
به الكبت ..

ولست أدرى ما إذا كانت أحبتنى أم لا .. على أية حال لقد كانت
ترضىنى .. ولم يكن هذا الإرضاء يكلفنى أو يكلفها شيئا .. بل لقد كان ناتجا
عن طبيعة عملى وعملها فلقد كان عليها أن تجلس أمامى .. وكان على أن أحلق
فيها .. وأنقل منها .. وكان هذا كل ما أتوق إليه .

ويعلم الله أنه كان يمكن أن أرضى بهذا لى ما شاء الله .. وأن أقنع بجلستى
وإياها حتى آخر العمر ، لولا أن حدث شيء أجج نفسى وأشعل فى قلبى
النيران .

أتدري ما هذا الشيء؟؟ لقد كان قصة لك !!
أجل .. لقد قرأت إحدى قصصك .. فإذا بي أجد نموذجي فيها ..
وتذكرت قولك « دعه لي » .. وعلمت أنك شاركتني فيه أو سلبتني إياه !
إياك أن تنكر .. إني أدري الناس بك .. وبقصصك .. ونماذجك
وملهماتك .. لقد كانت هي بعينها ولا أحد سواها، هي نفسها « ذات العينين
الضيقتين المائلتين اللتين يشع منهما بريق المكر والخبث »، هي نفسها ..
« الشيطان الجميل الأحرور العين الأهيف القد .. المرهف النهد » .
وأحسست بدوار عقب الانتهاء من قصتك .. وخيل إلى أني أترنخ وكأني
ضربت بمطرقة على مؤخر رأسي ..
لقد أدركت من قصتك أنك استحوذت عليها وأنها سقطت بين يرائيك .
كيف لا وأنا أجدك تصف جسدها قطعة قطعة .. وصف خبير دقيق ..
دون أن تنسى الحسنة التي في ثديها الأيسر .. والخدش الذي في ساقها اليمنى .
كانت تجلس أمامي كما تعودت أن تجلس فأحس بالسعير يلهب صدري ..
وبدأت أبصر في ملامحها ذلك الشيء الذي كنت تبصره أنت والذي طالما
حذرتني منه .. ولم يصعب علي أن أميز في عينها بريق المكر والخبث .. والأثرة
والأنانية .
وزاد من ثورقي المكبوتة وألمى الممض .. أنها بدأت تظهر لي علامات ميل ..
وأخذت تبدي لي دلائل حب فزادت في نفسي المرارة .. فقد كنت أحس
بالخدعة والخيانة في كل لفته من لفتاتها .
ولقد كان يجب علي والأمر كذلك .. أن أنفص من كرتي فأطردها شر
طردة .. وأبعد بينها وبينني .. ولو استطعت ذلك .. لكان هذا أبسر الحلول .
ولكني يا أخي لا أستطيع أني أحس أن هذا الشيطان قد سرى في دمي ، وإني
لا أتصور — رغم ما أحسه من خبثها ومكرها وخيانتها — كيف أعيش
بدونها .

ومع ذلك فقد كنت أحس أنى أحترق رويدا رويدا .
 لقد كان أشد ما يعزىنى هو أن أقرأ قصصك عنها وأجلس إليها لأتأملها
 الساعات الطوال . وأصور لنفسى من كتابتك ماذا صنعت بها وأحس من
 تصوراتى أن قلبى يتحطم وأن أعصابى تتمزق .
 وأخيرا أحسست أنى لم أحتمل .. وأنه لا بد أن أضع لكل هذا نهاية .
 ولكن كيف ؟. أقتلها .. أم أقتلك .
 وما ذنبك ؟. وتلك هى طبيعتك .. وما ذنبها وتلك شيمتها ؟؟
 أقتل نفسى ..؟
 — أجل .. هذا هو خير حل .. وأبسط علاج .. إن الانتحار كما قلت لك
 ليس سوى انتقال من حال إلى حال .
 إنى سأقدم على الانتحار بمجرد انتهاء من لوحتها الأخيرة الأخيرة !! لا ..
 لا .. لا .. أظن . عليك أنت أن ترسم اللوحة الأخيرة .. لى .. ولها .
 وإلى اللقاء فى عالم أفضل .

المخلص

« »

وتركت الجواب يسقط من يدى .. وأحسست أنى أكاد من فرط الدهشة
 والذهول أجن ..
 يا للصاحب المجنون . إنى ما لقيتها قط وما رأيتها إلا فى رسومه ..
 وما أوحى بقصصها إلى سوى لوحاته .
 يرحمه الله .. ليته قال لى .. ليته نفس عن نفسه قبل أن يقدم على فعلته .

شفاء من حب

إني لم أعد أحبها .. لقد شفيت تماما من حبها . وليس
أسهل على من أن ألفظها بحملها لفظ النواة . ولا أظننى
أكون قد فعلت معها أمرا إذا .

أين الشفاء وقد برح الداء وعز الدواء ..؟
كم كنت أتوق إلى الانطلاق من هذا الأسر .. والفرار من ذلك السجن ..
حب ..؟ من قال إن هذا حب ..؟
هذا القيد الذى يسلب الإنسان حريته ويفقده إرادته .. هذا المرض المزمن
الذى يلقي المرء صريعا لا حراك به ولا سلطان له على نفسه .. كأنه طفل
غريب .. أو عجوز فى أرذل العمر لا يعلم — بعد علم — شيئا ..
كم تمنيت ألا أحبها .. فقد كنت أعلم أنها لا تستحق منى ذلك الحب ..
ولكننى كنت أحس أننى مشدود إليها بقوة خفية .. لا قبل لى بالتخلص منها ..
وإلى أشبه فى الواقع كمن تحت تأثير منوم مغناطيسى .. يأتزم بأمره ويتحرك
بإرادته .

كنت أحبها حبا جنونيا .. ملك على نفسى .. واستولى على مشاعرى .. حبا
عاتيا .. يجرف فى سبيله كل خطيئة ، ويغتفر كل ذلة ، ويتجاوز عن كل هنة
وسيرة .

ولم أك أعرف حقيقة مشاعرها ، أكانت تحبني ؟ أم كانت تكرهني ؟ أم
كنت لديها شيئا لا وجود له ؟ شيئا تافها لا يستحق منها الحب أو الكره ؟
لم أفهمها قط ، وزاد جهلى بها وشكى فى مشاعرها جنونى بحبها ، فلو أنى

استقررت منها على حال ، لهدأت مشاعري الملهبة ، وسكنت عاطفتي المتأججة ، ولكنى كنت أشبه ببركان دائم الثورة والفران ، أغلى بأحاسيس مختلطة مستعرة من الشك والحيرة والحب والبغض والغفران والانتقام ..
كنت أحبها ، وأتمنى لو قضيت العمر كله راكعا عند قدميها ، واضعا رأسي على ركبتيها ملصقا شفتي في راحتها .

كنت أخاف عليها من النسيم ، وكنت على استعداد لأن أضحي من أجلها بكل شيء ، وأفتديها بكل ما ملكت وكانت بسمتها تشرق في نفسي وتضيء جوانحي .

وكنت أفعل كل هذا ، عندما أحس منها إقبالا ، وعندما تمنحني لحظات رضى وتهنى هنيئات وفاء وإخلاص .

ولكنها كانت تعود فتتكرر وإذا بها تنكرني وتصدني ، وتقيل على الآخرين من دوني فأحس بالغيرة تهش قلبي ، وبالثورة تتأجج بين جوانحي وأتمنى لو استطعت أن أنشب في عنقها الأبيض العاجي أظافري ، وأن أمزق جسدها الأهيف الفارع إربا ، وأن أمسك بجذائلها الذهبية فألفها على يدي ، وأضرب بجسدها الأرض فتتهشم عظامها ويتمزق جسدها .

كنت أريد أن أفعل بها كل هذا ، وشرا من هذا ، ولكنى كنت أكبت ثورتي ، وأكتم مرجل غضبي ، وأجعله يحرقني بدلا من أن يحرقها ، لا عن جبن ، ولا عن خشية عاقبة ، ولا عن خوف من أن يقول الناس إنني وحش أو حيوان ، فما كنت في تلك اللحظات آبه لأى اعتبار أو تقدير ولكنى لم أكن أفعل ، لأنى مازلت أحبها رغم تأكدي من خيانتها ، ورغم ثورتي عليها ، ومقتي لها ، وبغضى إياها ..

كنت أشعر — في ثورتي — أنى أود أن أقطع أوصالها إربا ولكنى كنت أحس أيضا ، أنى لو مزقت أعضائها لعدت فجمعتها ثانية ، وربطتها بشغاف قلبي ، ونفخت فيها من حبي روحا ، وبعثت فيها من وجدى حياة .

كنت أتمنى لو استطعت أن أمزق صدرها ، وأخرج قلبها من بين أضلعها ..
ولكنني أحس بالحنين يدفعني أن أضعه بين أضلعي أنا ، وأن أحياه حتى يظل
ينبض وينبض .

خمس سنوات ، وأنا على هذه الحال من التلهف والشوق والحب والبغض .
خمس سنوات كرهت فيها الحياة ، وكرهت نفسي الراضية بهذا الأسر الذليل .
كنت أسائل نفسي ، أما من نهاية ؟ أما من هدوء وسكينة ؟ لقد بت أتوق إلى
الراحة ، وإلى الاستقرار ..

خمس سنوات وأنا أعدو وراءها مبهور الأنفاس ، كالثائت الضال ، لا أكاد أقع
إعياء حتى تلقى إلى بقطرات وصل ، وفتات حب ، تقيم بها أودى ، وتعيني عن
أن أوصل العدو واللهث والزفر ، وأنهض لمتابعتها ، كأني مشدود إليها بجبل
لا أستطيع الفكاك منه .

ألم أقل إن ما بي لم يكن سوى مرض عضال ، وداء مزمن ، داء أفقدني الحجا
وسلبني الإرادة . فأضحيت كمدمن الخمر أو المخدر ، لا يملك سوى الإدمان
عليها ، كلما عب منها زاد ظمأ إليها ، وكلما أنهكت قواه وحطمت جسده كلما
ازداد تعلقا بها وشوقا إليها ؟

وقد يكون لي العذر في إدماني على حبها ، لو أنها بادلتني الحب ، أو لو كان
إعراضها عني مجرد دلال ، أو لو كنت واثقا من حقيقة خلقها ، موقنا ببقاء سريرتها
وبياض قلبها . ولكن ما عذري في التعلق بها ، وأنا لم أعرف لها قصدا ولم أفهم لها
حسا ، ما عذري في عذوى خلفها ، وأنا موقن أني أعدو وراء أمل كاذب
وسراب خلاب ؟

كان جنونا مني ، لا أكثر ولا أقل ، كان بي من حبها ما يشبه ذلك المرض الذي
يصاب به الناس في المناطق الاستوائية والذي يتركهم معنيين في العدو والتدمير
حتى يسقطون صرعى ، ما كان هناك فرق بيني وبينهم ، سوى أني كنت أدمر
نفسي بدلا من أدمر غيري .

وأقبلت عليّ ذات مرة ، ومنحتني نوبة من نوبات العطف التي تبل بها حرارقي ، أو على الأصح تؤجج حرارتي .

والثّم فاهـا كى تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيـمان أقبلت على تمنحني ما سميته قطرات عطف وفئات حب ، وأحسست في هذه المرة أنها تغدق عليّ ، وتمنحني من حبها أكثر مما تعودت أن تمنح ، وتهني من حنينها ومشاعرها ما بدد ظلمة اليأس ، وأشعل فيها ذبالة الأمل الخاوية .

وحلا لى الحب بعد طول مرارة .. وصفت الكأس بعد طول كدر .. وبدأت أتذوق متعة الوصل البرىء والهوى العذرى .. وخيل إلى أنها استقرت على حال ، وأن ما كان بها من إعراض وصد لم يكن سوى عبث وطيش أو من يدري ؟ ربما كان وفائى لها وإدماى على حبها قد علماها كيف تحبنى .

ولم يكن لقاءنا بالعسير .. فقد كانت بيننا صلة قرابة وكنت أتردد على دارهم . كأنى أحد أهل الدار .

وهكذا بدأت أستسيغ طعم الحياة . وشعرت بالاستقرار بعد طول تخبط وترجع . وعزمت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها من أبيها .

ونويت أن أجعل الأمر مفاجأة لها . وكنت قد غبت عنها بضعة أيام لسفر قصير فصممت على أن أذهب إلى أبيها رأساً وأن أفاتحه فى الأمر وأنهيه معه . ثم أسوق إليها النبأ .

وقصدت الدار .. واتجهت إلى غرفة أبيها .. فأدهشنى أن أجده ينظر إلى بوجه عابس متجهم .. وبدأ لى أن فى صدره ثورة مكبوتة .! وأقرأته التحية فلم يجب .. وهزرت رأسى فى عجب متسائلا :

— ما الأمر ؟

ووجدته يضغط على نواجذه ويقول فى غضب مكتوم :

— أنت أدرى !..

— بأى شىء ؟

— بما فعلت ..

— أنا ..؟ ماذا فعلت ..؟

— أنت إنسان وضيع .. وكان يجب أن تحترم شرف العائلة ، التى تأويك كفرد منها .

وأحسست بالأرض تميد بى ودارت الدنيا من حولى . وخيمت غشاوة على بصرى وقلت فى صوت خائف ووجل :

— لست أفهم ما تعنى ؟

ووجدته ينهض من مقعده ويصبح قائلا :

— بل تفهم جيدا .. ولولا ثقتى من حسن نيتك . وأن فعلك لم يكن أكثر من طيش .. ولولا رغبتى فى تجنب الفضيحة .. ويقىنى .. من أن الأمر يمكن علاجه .. لقتلتها وقتلتك . لقد اكتشفت أمها الأمر . وعلمت أنها حامل .. وعندما ضيقت عليها الخناق . أنبأها أنك السبب . وأنكما اتفقتما على الزواج . وأحسست بأنى أنهار وخيل إلى أنى أغوص فى أعماق بحر بعيد الغور متلاطم الأمواج . وشعرت بأن قدمى لا تقويان على حملى فارتيمت على أقرب مقعد .

من يصدق كل هذا الهذيان ؟

أهى حامل ؟

هذه البريمة الطاهرة .. التى لم أكن أرى فيها أكثر من زهرة تتفتح فى أكمامها ..

امرأة حامل ؟

ومن ؟ منى أنا .. الذى كان أقصى ما أتوق إليه هو تقييل يديها ؟ أنا الذى لم أقرب شفيتها إلا مرة واحدة خلت فيها أننى حصلت على كنوز الأرض .

أهذا هو سر إقبالها الأخير على ؟ . أبعد أن هجرها الخاطيء لم تجد متكئا سوى ولم تجد من تلقى عليه الخطيئة غيرى ؟

أهذا هو جزاء إخلاصى فى حبا وإصرارى على الوفاء لها ؟ ودفنت رأسى بين

كفى وغرقت فى لجة من التفكير .
وانتابتنى نوبة من الحقد عليها .. ووددت كما كنت أود فى نوبانى السابقة أن
أمزقها وأحطمها وأسحقها سحقا .
أحسست أنى أمقتها مقتا شديدا . ولكنه كان مقتا . لا يفترق كثيرا عن
مقتى السابق لها . ذلك المقت الذى يستر وراءه جرثومة الحب الكامنة . والحنين
المتوارى .

كنت أعلم أنها خائنة مخادعة وأنها غادرة ظالمة .. وأنها ألصقت بى التهمة ظلما
وعدوانا وأنها قد اتخذتني درعا تتقي به شر ما كان يمكن أن يوقعه بها أهلها .
وفكرت فى أن أرد كيدها . وأن أنكر التهمة التى ألصقتها بى . فقد كان هذا هو
العمل الطبيعى الذى يمكن أن يعمل به أى رجل .. فما من رجل حريقل أن تلصق
به خطيئة غيره . وأن يأخذ على عاتقه حماية امرأة خاطئة .
هذا هو ما كان يجب أن أفعله ببساطة .. وبلا تفكير .. ومع ذلك ، فقد
وجدتني أفكر .

ماذا يمكن أن تكون نتيجة إنكارى ؟
إن أفضل ما أنتظره هو أن يصدقوا إنكارى .. وأن تثبت براءتى . وتلقى
عليها كل التبعة وكل الجرم . وأى جرم ؟ جرم لا علاج له .. ولا برء منه .
وفى عائلة صعيدية محافظة وأب وإخوة تتأجج فى نفوسهم النخوة ، ويستعر
الشرف !

أليس من المحتمل جدا ، أن يتهور أحدهم ويقتلها ؟
أجل .. إنها قد تقتل . ومع أنى أود أنا نفسى أن أمزقها فإنى أعرف ماذا يعنى
قتلها بالنسبة إلى !

إن الداء المزمن فى نفسى داء حبها — سيزداد استفحالا . إن موتها ..
واعتقادى أنى السبب فيه — لأنى كنت أستطيع إنقاذها — سيؤجج حبى ..
ويورثنى الحسرة والندم مدى الحياة .

يجب على أن أنقذها .. يجب على ألا أتخلى عنها .. يجب أن أحتملها وأعنيها حتى النهاية .

وبدون أن أدري ما أنا قائل وجدت لسانى ينطق معترفا بالذنب .. متحملا العيب .. وقلت إنى أريد الزواج فى أقرب وقت .

والتقيت بعد ذلك بالأم .. فتلقيت منها ثورتها .. وتحملت غضبها ثم أنبأها .. أنى على استعداد للزواج فى الوقت الذى يحدوده .. ثم غادرت الدار دون أن ألقاها .

ولم أحاول أن ألقاها وحيدة بعد ذلك .. بل كنت أتجنب الحديث معها والنظر إليها .

لقد أحسست وأنا أرقبها من بعيد .. وقد بدت الذلة فى عينها وطأطأت الخطيئة رأسها .. أنى أصبحت صاحب اليد العليا عليها .. وأحسست كذلك بشيء أهم من ذلك . هو أن الداء المزمن الذى أذلنى طيلة الأعوام السابقة .. والذى قيدنى فى أسرها . قد بدأ يخف .. وأن الوثاق الذى كان يجرنى فى ركابها قد تفكك ، وأن الشفاء من حبها .. قد حدث أو كاد .

وتم الزواج .. وشعرت بعد إتمامه بأنى قد أدت واجبا على نحوها .. نحو المخلوقة التى أحببتها خمس سنوات وأنى قد أعتتها على حمل عبثها ، وأنى لم أنقذها فى مصابها ..

بقى على أن أتم خطتى .. وأودى واجبى نحو نفسى .. فأطلقها .. وأعيدها .. كما هى ، بحملها .. إلى أهلها !

أجل .. هذا هو ما صممت عليه عندما قلت أن أحمل عنها الخطيئة .. وأن أنزوجها ، فما أظن هناك ما يدعو لأن أحمل نفسى الخطيئة إلى ما لا نهاية ، وأن أقبل امرأة تحمل فى جوفها ابنا من غيرى .. إن ما فعلته كان كافيا لإنقاذها . لقد أنقذت شرفها .. وعليها أن تعود بعد ذلك إلى أهلها . وهى امرأة مطلقة .. شريفة !

ولكن أمرا واحدا .. يجعلنى حائرا مترددا .. ليس هو حبيبى لها — فإنى أحس تماما أنى قد شفيت منه — بل حبها لى .. واستكانتها وذلها .. لقد أنبأتنى أنها تقدر جمىلى .. وأنها ستحملة فى عنقها مدى الحياة .. وأنها على استعداد لأن تكون مجرد خادمة لى .

إنى حائر .. ماذا أفعل ..؟ أبقى عليها فى بيتى لتكون أما لأولادى وابن غىرى ..؟ أغفر لها الخطيئة وأقبل التوبة ..؟

أم أنفض منها يدى .. ويكفى ما فعلت من أجلها ؟
إنى لم أعد أحبها .. لقد شفيت تماما من حبها .. وليس أسهل على من أن ألقظها بحملها لفظ النواة .. ولا أظننى أكون قد فعلت معها أمرا إذا .
ومع ذلك .. فإنى أحس بميل إلى الغفران .. بل وأحس أن الغفران عن قدرة .. وعن غير حاجة .. هو الغفران الحق .. إنى أكره أن أحطم النموذج الطيب الذى صنعه منها وأشعر بميل شديد بالاحتفاظ به وإلى الاستمرار فى صقله وتهذيبه .

أجل لقد صممت على الاحتفاظ بها .. وليعيننى الله على أن أجعل منها زوجة صالحة شريفة .. وليغفر الله لها ما تقدم من ذنبها .. إنه غفور كريم رحيم .

عبثاً خلقت

ما قيمة الحياة إذا كنت سائوياً في باطن الأرض دون
أن ألقاه ؟ ما قيمة العمر إذا كان القدر السائر يأتى إلا أن
يهتف بى .. « عبثاً خلقت » .

الوقت خريف .. وموجة من الريح تهب عاصفة باردة ، فتودى بأوراق
ترتجف على أغصانها فى صفرة وذبول وشحوب .. أوراق تترنح وتهتز ثم تعيها
المقاومة ، فتساقط متهاكة على الثرى مختلطة بأديم الأرض ..
ومن وراء زجاج الشرفة ، جلست السيدة تحملق فى الفراغ .. ترقب الريح
العاصفة والأوراق المتساقطة .. وقد أمسكت بيدها كتاباً استقر فى حجرها ، ثم
خفضت بصرها من أوراق الشجر إلى أوراق الكتاب .. لتقرأ فيه تمة
الحديث (١) ..

« لم أر أشد حيرة من الروح تلمس الأليف ، كما ينشد العصفور الغصن ..
ويعيها المراد فتتعلى بالباطل تعلى العصفور بالغصن العاطل . ولا بد من الحبيب
صادقاً أو كاذباً ، كما لا بد من الطعام طيباً أو خبيثاً ، يضطرنا إليه الجوع ..
ويضطرنا إلى الحبيب النفس المسمى الحب ..

رب روح تهيم الدهر فلا تصادف إلها .. تذهب على وجهها فى الآفاق
فينكرها الناس .. وتنادى فيجيبها العدم .. وقد حال الزمان والمكان بينها وبين
توأمها الذى نظمته الله معها قبل ميلاد الدنيا ، وقد يكون ذلك التوأم فى أقصى

(مكي العشاق)

(١) من كتاب الصور للمرحوم محمد السباعي .

الأرض أو دون المريح أو تحت القمر ، أو وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب .. وكأني بهذا الورد الناضر على أغصانه . سيدبل على قبر توأمك الذى تنشده ولم تره ، وكأني به يحمر غيظا من لؤم القضاء ، ويريد أن يقول لك : (عبثا خلقت) .. » .

وتركت السيدة الكتاب يتهاوى من بين يديها ، فيتساقط على الأرض متهاكاً كما تساقطت الأوراق الذابلة .. وانطلقت من صدرها زفرة حارة .. ثم تهاوى رأسها فى استرخاء على صدرها .. وأغمضت عينيها .. وشردها الذهن ينبش رفات الماضى ويطوف بأطلاله .. وانبعث من أعماقها صوت يهتف مجيها على حديث الأوراق .. أوراق الخريف المتهاكة المتهاوية .. فيقول لها :

— أجل .. عبثا خلقت .. أنا الروح الحائرة الهائمة الضائعة .. التى قضيت عمري أتمس الأليف .. فخذلنى الأليف .. وأنتظر التوأم فأُنكرنى التوأم .. لقد لقيته فى محيط الحياة مرتين .. يعلم الله أكان هو إلف الروح وتوأم النفس الضالة الصادية ؟

لقيته أول مرة فى ربيع العمر ، والنفس متفتحة ، والقلب مورك مزدهر .. والروح قد أينعت وباتت تنتظر القطاف ، تتلفت حولها فى تعطش ولهفة .. تعطش الائق .. ولهفة المطمئن .. فهى تشم ريح التوأم .. وتحس أنه منها على قيد خطوات .. ليس فى أقصى الأرض أو دون المريح أو تحت القمر .. بل وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب .. تكاد تسمع من فرط الحنين وقع خطواته وتوهمه فى كل قادم وطارق حتى بدا أخيرا .. هو بعينه إلف الروح وتوأم النفس الذى أصاب القلب من مرآه هزة .. فهفا بين الضلوع .. وصفق فى الحنايا ..

كنت وقتذاك أعيش وأمى وحيدتين فى دارنا التى خلفها لنا أبى بعد موته .. وكنا فى سعة من العيش .. ولم أكن أحس أن هناك شيئا ينقصنى فى الحياة فقد عوضتنى أمى عن أبى خير عوض .. وكنت وحيدتها المدللة .. التى كرسست حياتها لتربيتها ..

ولم أكن أذكر الكثير عن أبي فقد مات وأنا أحبو على أربع ، وكانت أمى وقتذاك فتاة صغيرة لا تكاد تزيد على السابعة عشرة .

وهكذا لم يكن هناك فارق كبير بين عمرينا .. فكنّا من النوع الذى يحير المرء إدراك حقيقة الرابطة بينهما .. أخوة .. أم بنوة .. بل إنى لم أكد أبلغ مبلغ النساء وتكتمل أنوثتى .. حتى أضحيّت وإياها كأننا صنوان :

ولم يكن الحب الذى أكنه لها .. مجرد ابنة لأمها . بل كان حبا يبلغ حد التقديس .. كيف لا .. وأنا أراها أفنت من أجلى زهرة عمرها وكرست لى حياتها وأبت أن تتزوج حتى لا يشغلها عنى إنسان ؟

كيف لا أراها كل شئ فى حياتى .. وأنا فى حياتها كل شئ ؟
لقد ركزت فى كل بغيّتها من الحياة .. ووضعت فى كل آمالها وأمانها .. فأضحت لا تمنى شيئا إلا من أجلى .. ولا تحزن إلا لأجلى .. ولا تضحك إلا لى .. ولا تبكى إلا على ..
إذا ألمت بى مرض نبا بها المضجع وأرقها الحزن .. وإذا ضحكت ازدهرت الدنيا فى عينيها ..

لقد كنت أحس أن لها فى عنقى دينا كبيرا .. وأنها حملت نفسها من أجلى أكثر مما تحمله أى أم .

من الذى كان يستطيع أن يجبرها على أن تبقى أرملة وهى فى الثامنة عشرة ؟
أى امرأة تحكم على نفسها بالترهب .. وتزهّد فى الحياة من أجل ابنتها ؟ لقد سنحت لها عدة فرض .. وتقدم إليها خطاب عديدون فقد كانت جميلة وصغيرة .. وموسرة ، ومع ذلك لفظتهم لفظا .. حتى لا يشغلها عنى شاغل .. وحتى تهبى .. أنا اليتيمة .. كل نفسها .

وهكذا نشأت وإياها وقد شدّدتنا بوثاق من الحب المتين ، تستمد إحدانا من الأخرى هناءها وسعادتها .

وفى ذات يوم أصابتها وعكة .. بدت فى هيئة برد خفيف .. أخذ يتفاقم يوما

بعد يوم .. حتى استبد بها الداء .. واستحكمت العلة .
وبدأ الأطباء يتواترون علينا .. الواحد تلو الآخر .. وأنا بينهم حائرة متعبة
منهكة .. حتى رأيته !

لقد أقبل ضمن من أقبلوا لمعالجة أمي .. فاستطعت أن أميز فيه .. من أول
نظرة .. توأم الروح المرتقب وإلفها المنتظر .

وكيف لا يكونه .. وقد هفاله القلب — دون غيره — وشدا الفؤاد ؟ كيف
لا يكونه وقد أحسست من مرآه طمأنينة وثقة .. وبدا كالملمجأ في عاصفة
هوجاء .. والبارقة في ليلة ظلماء .

لقد أقبل كلانا على الآخر . كأننا نلتقى بعد طول فرقة . وكأن بيننا سابق ود
وقديم ألفة .. وجلس بيننا يفحص الداء ويصف الدواء .. ويهدي من نفسينا ..
وقد بدا لي أنه ليس غريبا بيننا .. بل واحدا من أهل الدار .

ولقد أضحي كذلك فعلا بعد بضعة أيام .. فقد كان يزورنا من تلقاء نفسه
ليطمئن على أمي .. وكنت أجد في نفسه صفاء وفي قلبه رقة .. ووجدتني أندفع
في حبه بلا حرج ولا خشية .. كأن حبه شيء واجب علي .. وبت أنتظر بحبه
بفارغ الصبر .. فإذا تأخر .. أسرعت في طلبه بحجة أن أمي في حاجة إليه .
وهكذا أضحيت عاشقة .. بعد أن كنت عاشقة تنتظر . ووجدت في
صاحبي الغصن الذي أستقر عليه .. والقادم الذي طالما سمعت وقع أقدامه
وشممت عيره .. وطاف بي الدجى طيفه .

وأخذت أمي تبل من مرضها وكدت أكره لها الشفاء خشية أن أفقد
الإلف .. لولا أنه لم يقصر علاقته بنا على المرض .. ولم يعتبر نفسه بالنسبة لنا مجرد
طبيب .. بل صديق . أو قريب .. أو كما كنت أراه توأما حبيبا .

واستمرت تجمعنا ثلاثتنا في الدار جلسات بريئة ضاحكة ولم يكن ما بيننا
ليتعدى النظرات فما سنحت الظروف لأحدنا حتى يفصح عما بنفسه ..
وفي ذات يوم جلست وأمي نتحدث في أمور شتى .. ووجدتها تعرج فجأة

— ولأول مرة — على مسألة زواجى . سائلة إياى عن رأىى فى الزواج .
وأحسست بقلبى يخفق بشدة .. إذ بدا لى أنه قد حدثها فى أمر زواجى .
وأنها سألته التريث حتى تأخذ رأىى .
ولم أستطع أن أجيبها بصراحة ، وأن أقول لها إنى أتلهف على زواجه ، فقد
كرهت أن أبدو لها أنانية ، وأن أرد على طول تبضحيتها وزهدا فى الحياة من
أجلى .. باللهفة على الفرار منها عند أول فرصة تمنح لى .
وأطرقت برأسى برهة .. ثم أجبتها قائلة :
— إن الوقت لم يحن بعد .. إنى لا أرغب فى فراقك أبدا .
وربتت على ظهرى وطبعت على رأسى قبلة ملؤها الحنان ثم قالت :
— هذا أمر لا بد منه .. ثم إنه لا يسعدنى أكثر من زواجك .. واستقرار
حياتك .

وأحسست من قولها بفرة شديدة .. وأجبتها وأنا أسند رأسى إلى صدرها .
— أمرك يا أماء .. سأفعل كل ما تحبين .
ومضت فترة صمت قصيرة ثم فوجئت بسؤالها :
— ما رأىك فى ابن خالك ؟
— ابن خالى ؟
وحمل سؤالى أقصى ما يمكن من نبرات الدهش والعجب ثم أردفت
مستوضحة :

— من حيث ؟

— من حيث الزواج .

من حيث الزواج ؟ أية مفاجأة هذه ؟ لقد كان كل ذهنى وإحساسى مركزا
فى توأم النفس .. فلم يطف ببالى إنسان غيره .. لا ابن خالى .. ولا غير ابن
خالى .

وأحسست بخذلان شديد وخيبة أمل كبيرة .. وأجبت متلعثمة فى صوت لم

أستطع أن أخفى ما به من مرارة وألم .
 — ابن خالى ؟ .. لم أفكر فيه كثيرا .. ثم إنه ليس هناك ما يدعونى إلى التفكير
 فى الزواج .. دعينا الآن من هذه المسألة .
 — لا .. لا .. يجب أن تفكرى فيها جيدا .. إنك لم تعودى صغيرة .. ويجب
 أن أطمئن عليك .

وانتهى الموضوع عند هذا الحد .. وبت ليلتى مؤرقة مسهدة .. حائرة
 قلقة .. لا أدرى ماذا أفعل .. هل أخبرها أنى أحب صاحبى ولا أريد الزواج من
 غيره ؟؟ ولكن هبه لم يتقدم لطلبى .. ماذا أفعل ؟؟ أليس من الأفضل أن أتعلل
 بالانتظار .. حتى نستطيع التفاهم .. أو حتى يتخذ هو خطوة حاسمة ؟
 ولم يطل بى الانتظار . فقد اتخذ الخطوة الحاسمة .. أحسم وأسرع مما كنت
 أتوقع وأنتظر .. ففى اليوم التالى علمت أنه قد تقدم .. لا لخطبتى أنا .. بل
 لخطبة أمى !
 أجل .. لقد سألتنى أمى فى الصباح عما قررته بشأن ابن خالى .. فأجبتها بأن
 الوقت لم يحن بعد .

ولكنها ضمتنى فى عطف وأنبأتنى بأن الطبيب سألها الزواج ولكنها لم تجبه
 وسألته الانتظار حتى تزوجنى وتطمئن على مستقبلى ؟
 لقد كان تصرفها حكيما وكان حديثها بسيطا ومنطقيا .. ملؤه العطف
 والحنان .. ومع ذلك .. فلا أظن هناك طعنة يمكن أن توجه إلى إنسان أقسى من
 طعننها التى أدمت قلبى .. وتركتنى ألثت وأترخ كالطير الذبيح !
 إذن .. لقد كان هذا هو سر لهفتها المفاجئة على زواجى .

ولكن مالى أحس منها بمرارة وألم .. ما ذنبها هى فى كل ما حدث .. لقد
 فعلت من أجلى أقصى ما يمكن أن تفعل ورفضت أن تتزوج .. قبل أن
 تزوجنى .. ماذا يمكن أن يطلب منها أكثر من هذا ؟.

إن الخطأ خطئى .. خطأ الروح الهائمة الضالة .. المتعللة بالباطل المستقرة

على غصن عاطل .. خطأ النفس الصادية العادية وراء سراب .
 ماذا أستطيع أن أفعل .. وماذا يستطيع أى إنسان غيرى أن يفعل .. إذا
 ما وضع مكانى .. سوى تلقى الضربة فى صمت واستسلام .. أستطيع أن
 أثور على أمى الحبيبة الخنون فأتهمها بأنها سلبتنى توأم النفس وصنو الروح ؟
 أستطيع أن أثور على صنو الروح وتوأم النفس .. لأننى أحبيته وتعلقت
 به .. ووضعت فيه كل أملى .. وهو واجد بغيته فى ناحية أخرى .. مُلقٍ دلوه ..
 فى دلاء آخر ؟

لا .. لا .. ليس هناك من يلام .. سوى .. والظروف الخرقاء الحمقاء ..
 وما من علاج للفعلة الهوجاء .. سوى الصمت وطأطة الرأس .. والرضوخ
 والاستسلام .

وتزوجت ابن خالى .. لإرضاء لأمى .. وردا للدين الذى أحاطت به
 عنقنى .. فما وجدت هناك معنى للمعارضة أو الوقوف فى طريق يعد أمنية لها ..
 وهى التى حرمت نفسها طوال هذه المدة من أجلى .

وتزوجت هى كذلك .. تزوجت من الرجل الذى كنت أحس أنه توأمى
 الذى نظمته الله معى قبل ميلاد الدنيا .. والذى لم أجسر أن أقول لها أو له أو لأى
 إنسان آخر .. إنى أحبه . ما الفائدة ؟

ومرت بنا الأيام وسار بنا زورق الحياة .. فأضاف إلينا من خضمها
 ما أضاف وأخذ منا ما أخذ .

وكان أول ما أضيف إلى الزورق .. بنتا أنجبتهما من زوجى .. وكان أول
 ما أخذ زوجى نفسه .. وهكذا وجدت نفسى بعد بضع سنين أرملة ذات
 طفلة .. تماما كما كنت وأمى .

واستمرت الأيام فى كُرّها وفُرّها .. واستمر زورق الحياة فى سيرة ، فأوصل
 أمى إلى نهايتها .. وعقبها زوجها بعد فترة قصيرة ، حتى لكأنهما كانا على موعد
 فى الحياة الأخرى .

وساربنى الزورق .. إلى خريف العمر .. فى هدوء ويسر .. وبقلى جفاف
ويس لم تهب عليه ريح حنون .. ولم يطف به طيف أليف .. يتابنى الحنين بين
آونة وأخرى .. فتهيم روحى فى الآفاق .. فلا تستقر على قرار .. تهفو فينكرها
الحب وتنادى فيجيبها العدم .

إن الزورق قد خلف الريح والنفس يائسة يائسة .. وأنا قاعة بأن أكون
أما .. والتوأم تائه ضال .. حتى لقيته مرة ثانية !

هذه المرة كانت .. قبيل الخريف .. لقيته .. ففجر فى القلب اليباس ماء بعد
طول جفاف .. وأنضر الروح الداوية بعد طول ذبول .. وإذا بالريح الذى
ولّى .. كأنه ما ولى وما فات .

فى هذه المرة كان حبى أشدَّ عنفا وأكثر قوة .. لقد كان أشبه بنيران أصابت
المهشيم ووجدت نفسى أجد ما أفتقدته طول العمر .. وأعثر على ما أوشكت أن
أياأس من العثور عليه .

لو صبح تقمص الأرواح ، لاستطعت أن أجزم بأن روح التوأم السابق قد
هبطت فى الإلف الجديد ، فعا شدا القلب إلا لهما ، وما ترنم الفؤاد إلا فرحة
بهما .

وهكذا أصابنى الحب ثانية بعد أن التقيت به بضع مرات عند إحدى
الصدىقات ، وأحسست بالنشوة وأنا أجده يتابعنى بنظراته ، فلا أكاد أدخلو إليه
حتى يهمس لى .

— ما أعجبك .. كلما زدت إلى وجهك النظر .. وجدت به حسنا
جديدا ، لقد أبصرتك أول مرة .. فلم يسترع انتباهى منك شىء وفى المرة الثانية
أحسست بوجهك لمحة جمال .. وفى الثالثة أسرنى منك جمال هادئ .. كنسيم
الصيف . ساكن كصفحة غدير .. وفى الرابعة .. لم أنظر إلى شىء سوى
وجهك ولم أحقق فى غير غينيك .. لقد تملكنى منهما سحر عجيب .

ولم أجب .. فقد أغرقتنى كلماته بسعادة كبرى .. وملأنى حديثه العطرى

بالمتعة والنشوة .
وزادت بيننا أواصر المعرفة وتوثقت عرى المودة ودعوته إلى الدار مرة ثانية
وثالثة .

وفي الرابعة .. حضر هو من تلقاء نفسه ..
ليخطب منى ابنتى !
وكانت الطعنة هذه المرة .. أقسى من الأولى وأشد إيلاما لقد بددت من نفسى
الثقة وأفقدتنى الإيمان .. لقد أذبلت منى كل ما نضر .. وأيبت كل
ما ازدهر .. لقد كانت الريح التى جعلتنى أهوى إلى الثرى وأختلط بأديم
الأرض ..

ولم أستطع أن أقول لا .. وأنا أرى فى عينى ابنتى فرحة وألمع فيهما لهفة ..
ولم أستطع أن أؤنبه على . أننى أحبته .. فأحب هو ابنتى .
لم أستطع أن ألوم إنسانا . سوى نفسى .. والقدر الذى خدعنى بغصن
عاطل .. وسراب خلاب .

أتراى صادفت فى المرتين توأم نفسى .. ثم سلب منى ؟
أم أن توأم النفس ما زال فى أقصى الأرض أو دون المريح أو تحت القمر أو وراء
ذلك الجدار أو ذلك الباب ..

ما قيمة الحياة إذا كنت سأتوى فى باطن الأرض دون أن ألقاه .. ما قيمة
العمر إذا كان القدر الساخر يأبى إلا أن يهتف بى .. « عبثا خلقت » .

حالة يأس

وساقتنى قدمائى إلى هنا لألقاك .. عابر سبيل ..
ألقيت إليك بأثمن ما حاولت الاحتفاظ به .. لقد أضحي
عندى بلا ثمن .. إلى يا سيدى فى حالة يأس .

حدثنى صاحبى قال :

صادفتنى على مضيق الحياة .. فى ساعة يأس منها وحين منى .. ووهبتنى
نفسها وقصتها .. فى لحظة كرمض البرق .. وافترقنا فتركتنى حائرا نادما ..
أسائل نفسى : ترى لو وهبتنى قصتها قبل نفسها .. أكان مصيرها معى مثل
ما حدث ؟

عندما أحاول أن أجيب عن هذا السؤال .. وأنا أجلس هادئ النفس بارد
الحس .. أكاد أجزم .. أنى كنت لا شك رادعها .. ومعيدها إلى رشدنا ..
ورافض هبتها التى وهبتنى من نفسها وجسدها .. ولكنى أعود فأسائل نفسى :
ترى لو لقيتها ثانية .. وامتنحت أمام جسدها الحار الفائر . وعرضت للتجربة
مرة أخرى .. أكنت أرفض المنحة وأعرض عن الهبة ..؟ أكنت قائلا لنفسي
— كما أقول الآن — إننى دخیل متطفل .. وإنى بالنسبة لها لست سوى عابر سبيل
سرق ما ليس له .. من يدرى ..؟ أنا رجل كغيرى من الرجال .. من من الرجال
يستطيع المقاومة أمام جسد معروض ؟ ..

لقيتها ذات ليلة .. لا تسلى .. من . ولا متى . ولا أين .. فما أقصد
بجديثى هتك ستر . أو سرد فضيحة .. وماذا يفيد التحديد .. والقصة مكررة
معادة .. تحدث هنا وهناك وفى كل مكان وزمان ؟.

لقيتها على الشاطئ ذات ليلة — أى شاطئ وأى ليلة — مهمومة مكروبة ..
حزينة يائسة .. ترمق الفراغ والظلمة بعين تائهة وذهن غارب شارد .. وتحلق
فى الماء كأنها فقدت فى جوفه عزيزا لديها .. وشيعة وراء أمواجه حلما جميلا
ومتعة ضائعة ..

كان المكان قد خلا إلا منسى ومنها .. هى على حالها تلك من الشرود
والذهول .. وأنا مرهف الحس متأجع المشاعر فى شوق مكبوت إلى الضم
واللثم .. وإلى الحديث الناعم والأنفاس المعطرة ..

لا أكتحك القول إني كنت أشبه بذئب يبحث عن صيد وأناى كنت فى لهفة
وحنين .. وهى حالة لا شك فى أنها تضيق كل الرجال .. فى بعض الأحيان ..
أو بعض الرجال فى كل الأحيان ..

كنت فى حالة شوق إلى امرأة .. وقد عدت إلى ذلك المكان الخالى عودة
المكدود الجائع .. يخلد إلى الراحة ليهدىء من ثورة جوعه ثم يعاود الصيد مرة
أخرى ..

ووجدتها هناك .. على غير موعد .. ولا سابق انتظار .. مطرقة صامته ..
ولحمت شبعها .. فى ضوء السماء الشاحب .. ولم أميز سوى الخطوط الخارجية
التي تحدد هيكلها فى ظلمة الليل .. فبدت لى مستوية الجسد ممشوقة القد ..
وأوحى إلى ضيق خصرها أنها لا بد أن تكون امرأة جميلة ..

وحتى لو لم تكن جميلة أكان هناك أسهل على من أن أقنع نفسى — وأنا على
حالتى تلك من اللهفة والشوق — أنها أجمل نساء العالم .. ألم تكن الظروف التى أنا
فيها — أنا وهى وحيدى فى ظلمة الليل وسكونه — بكافية لأن تدفعنى إلى الإقبال
عليها .. أيا كان نصيبها من الجمال ؟

وهكذا وقفت برهة ألم أطراف جرائى .. وأرتب فى ذهنى الخطة التى بها
أقنص الصيد .. ثم اقتربت منها وألقيت إليها بالتحية فى صوت كسوته
ما استطعت من رقة .

ولم نجب .. بل رأيتها تنظر إليّ نظرة سريعة عابرة ثم عادت إلى شرودها وكأني غير كائن ..

وتأملتها عن قرب .. وجهها .. وجسدها .. فأقسمت ألا تفلت من بين يدي .. لقد بدت لي في جلستها وسط الظلمة .. جميلة رائعة ؟

وأيقنت من إعراضها .. وشرودها .. وسيماها الأبية أنها صيد صعب المراس .. قوى الشكيمة وأنها لن تقع — إذا وقعت — إلا بعد طول أناة وكثير جهد ..

وعدت أرتب في ذهني طريقة الهجوم .. وصممت على أن أنفذ إلى نفسها بالركة واللين ..

وبدأت الحديث .. وهي معرضة واجمة صامته .. لا تلتفت ولا تجيب .. وفجأة وجدتها تلتفت إليّ وتسأل في مرارة :

— ماذا تريد مني ؟

وأجبها في صوت حنون :

— لم أنت حزينة شاردة ؟ هل أستطيع أن أدفع عنك بعض أحزانك ؟

— تدفع عني بعض أحزاني ؟ أنت ! وما شأنك ؟ أهذا كل ما تريد .. ؟

ورأيت في عينيها نظرة تحد .. وهي تسألني : « أهذا كل ما تريد » ..

ووسوس الشيطان في صدري أن أكون جريئاً .. وأن أقبل تحديها .. من

يلدري ؟ قد تكون الوقاحة أجدي معها من الرقة .. لم لا أجرب ؟

ووجدتني أجيبها بنفس التحدي :

— أريد منك ما يريد الرجل من المرأة ..

ومضت فترة صمت وهي تحملي في الفراغ والظلمة .. وأنا أرمقها في لهفة

وقد سرت في جسدي رجفة شوق وعرائ اضطراب شديد .

وسمعتها تجيب وكأنها لا تعينني :

— خذه ! خذ ما تريد !

وتلاحقت أنفاسى .. وجمدت فى مكانى برهة .. وبدأ لى أنتى واهم فى سماع ما قلت ..

أبمثل هذه السهولة والبساطة .. قد سلم الصيد ؟ أهكذا تكون الشكيمة القوية .. والمراس الصعب ؟ الذى يحتاج إلى طول أناة وكثير جهد .. ؟ لا .. لا .. إما أن أكون واهما .. أو تكون ساخرة هازئة ..

وتلقت حولى فوجدت المكان يغمره الصمت . ونظرت إليها فوجدتها صامئة تنتظر . بارزة الصدر . حلوة القسمات .

وتلاحقت أنفاسى كأنى أعدو فى سباق .. وأحسست بالدم يتصاعد إلى وجهى وبالحرارة تسرى فى جسدى وبلا وعى مددت يدى إليها وضممتها إلى .. وتلاصق جسدانا فى السكون الشامل والظلمة السائدة .. وبلا أدنى مقاومة .. أخذت ما أريد .. لتعجب كما تشاء !

لتعجب من هذه السهولة والبساطة والجرأة والسرعة .. التى تم بها الأمر فما كنت أنا نفسى أقل منك دهشة . وأنا أجلس بجوارها أحملق فى الماء .. وأرقمها من آن لآخر وهى مطرقة فى ذهولها وشرودها وحزنها ويأسها .. وأبصر الدمع يترقق فى مقلتيها ثم ينحدر على صفحة وجهها .

ومددت يدى فأمسكت بيدها ضاغطا عليها فى رفق وأحسنت بنفسى تتأرجح بين شتى المشاعر . الندم والعجب والعطف والحزن وسألتها فى صوت خافت :

— ما بك .. ؟

— حالة يأس .

— مم ؟

— من كل شىء .

— حتى من رحمة الله ؟

— منذ لحظات لم يكن قد تبقى لى سواها .. أما الآن !

ثم ضحكت ضحكة صفراء مريرة ساخرة وأردفت تقول :
— فما عاد لي أمل فيها . أوتظن الله يغدق رحمته على من كفروا به ويثسوا
منه ؟

— دعى ما لله لله .. خبريني ما سبب يأسك ؟
— وما شأنك أنت ؟ عابر سبيل قد وهبت ما ليس لك .. دعنا نفترق ..
كأننا لم نلتق .. وانس ما كان كأن لم يكن .. لقد كنت حمقاء يائسة ..
فأصبحت حمقاء بائسة خاطئة نادمة .. لا فائدة .. يجب أن ندع القدر .. يفعل
ما يشاء .

— لم لا تخبريني عما بك فقد أفعل لك شيئا ؟
— لقد فعلت الذى تستطيع فعله . أو ما يستطيع أن يفعله أى رجل غيرك .
وبدا لي في قولها كثير لوم وتأنيب وقلت أتمتع معذرا :
— إني جد آسف .. لم أكن أريد أن أحزنك .
— لا داعي لأن تأسف .. لو لم تكن أنت لكان سواك . لقد كنت أريد أن
أثار .. وأن أنتقم .. لقد أطار اليأس صواى وأفقدنى رشدى .. حاولت أن
أكون زوجة مثالية ولا أحيد عن الطريق المستقيم .. وأن أخدم مشاعري وأحطم
قلبي .. وأن أرضخ لمشيئة القدر وأن أكون بما وهبه لي راضية قانعة .. ولكنه أبى
عليّ ذلك .

قد يكون خطيئى من أول الأمر .. عندما قبلت الزواج منه ولكن ماذا كانت
تستطيع فتاة مثلى أن تفعله بإزاء رغبة أبويها ومنطقهما .. لقد تقدم لخطبتي ..
وهو في نظرهما زوج نموذجي .. كريم الأصل ضخيم الثروة قوى الجاه . أية
حمقاء تلك التى ترفض زواجه ؟

هل كنت أستطيع أن أقنعهما بأنى لن أتزوجه لأنى أحب صاحبي الذى مضى
عليه عامان يدرس في الخارج ، وبقي عامان آخرا على عودته ؟
هل كنت أستطيع أن أقنعهما أو أقنع أى إنسان برفض هذه الزيجة .

« اللقطة » .. لأنى أنتظر إنسانا أربعة أعوام ؟.. هل أستطيع أن أقنعهما بأنه لم ينسنى .. وأنه لن يعود .ومعه زوجة من هناك ؟..
لكى أنصف نفسى .. حاولت .. فثاروا فى وجهى واتهمونى بالسخف والطيش والبلاهة والجنون .. وهددوني بالطرد .. وأنباؤنى أنهم أدرى منى بهذه الأمور وأنى عندما أتزوج وأعقل .. سأدرك مبلغ سخافة تفكيرى .
وهكذا انتهى بى الأمر إلى الزواج منه .. وصممت فى نفسى على أن أكون زوجة مخلصه وأن أقوم بواجبى نحو الشريك الذى اختاره لى القدر خير قيام ..
وأن أدفن مشاعرى فى جدث الماضى ، وأهيل عليها تراب النسيان ، حتى لا تطل على حياتى الهادئة المستقيمة فتثير فيها الزوابع والعواصف .. وتجعلنى قلقة .. لم أمتع بماضى ولن أهنأ بمستقبلى ..

أجل .. لقد صممت على الاستقرار .. وعلى قطع كل صلة لى بمن أحب ..
ولقد كان الأمر علىّ جدّ عسير .. ولكنى احتملته وأقنعت نفسى أنه خير لنا أن نحب ما نوهب من أن نبكى على ما ضاع ..
وبدأت فعلا أعتاد حياتى معه .. حياة راضية قانعة . لا تخلو من المتعات السطحية ، المتكررة ، التى تهبطها حياة الثراء لأصحاب الثراء .. والتى أغتتنى — إلى حد ما — عن المتع الشاعرية العميقة .. متع الحب .. التى لا يهبها لنا إلا مخلوق واحد .. يبدو لنا كأن الله قد خلقنا وإياه من نفس النسيج أو من نفس النطفة .

وسارت الحياة فى طريقها الطبيعى .. هادئة منتظمة وزاد مر الأيام انهبال تراب النسيان على جدث الماضى . وزادت المشاعر المدفونة المكبوتة خمودا وركودا . حتى كان ذات يوم .. فإذا بالأحداث تنبش وإذا بالثرى تثريه الرياح .. وإذا بالميت المدفون قد وقف على قدميه سليما صحيحا .. وإذا بالمشاعر الراكدة الخامدة تتأجج فتضخى لهيبا مستعرا .

لقد رأيته .. وكانت مجرد رؤيته تكفى لأن تفعل بى كل ما حدث .. حتى

لقد هممت لولا بقية من مقاومة وحياء بأن أرتدى بين أحضانه أمام زوجى وأمام الناس .

وسألنى أن ألقاه على حدة ، وترددت قبل أن أذهب فقد رأيت أنه لا فائدة من التقهقر والالتواء ، وأننى يجب أن أتغلب على هذه التجربة العسيرة التى أمر بها ، وأن أعود فأدفن مشاعرى التى أيقظتها لقياءه ، وأججها مرآه .

وقلت لنفسى . لو أنه عاد قبل زواجى . لما ترددت فى أن أضرب بكل شىء عرض الحائط فى سبيله . أما الآن وقد أضحيت زوجة ، وأضحى أى تصرف منى يחדش شرف إنسان لم يسيء إلى . فإننى يجب أن أكبح جماح نفسى وأبعده عن طريقى .

وذهبت للقاءه . حتى أقنعه بما توهمت أننى أقنعت به نفسى ، وكان اللقاء عسيرا على . بذلت فيه أقصى ما تستطيع امرأة أن تبذل لتقاوم مشاعرها ونزعاتها .. كنت أتمنى لو ارتقيت بين أحضانه . ولكنى مع ذلك تباعدت وتماسكت لإحساسى بأنى زوجة إنسان آخر .. وأن فى عنقى واجبا نحوه .

وعاتبني عتابا صامتا . وشرحت له الظروف التى اكتنفت زواجى .. ووجدته يطرق برأسه فى مرارة .. ثم يسألنى عما أنوى فعله الآن .. فأجبت : — لا شىء .. يجب أن نرضخ لفعل القدر .. يجب أن يسير كل منا فى طريقه ..

فقال فى إصرار وحزم : — بل يجب أن نصلح فعل القدر ، إن من الغباء أن نرضخ لفعل خاطئ . فى إمكاننا إصلاحه .

يجب أن تطلقى من زوجك . أأست تحييننى كما أحبك ؟ — لا فائدة .. ليس أمامنا سوى الرضوخ والفرقة .. وهكذا صممت على أن يبعد كل منا عن طريق الآخر وأنا أتحرق شوقا إليه .. لقد كنت أشبه بمهجرة صادية .. تريق الماء .. وهى تتلهف على قطرة منه !

وافترقنا بعد أن أنبأني أنه سيسافر مرة أخرى .. وأنه قد أتى من أجلى وأنى قد خيبت أمله .. وحطمت قلبه وسألنى أن ألقاه مرة ثانية قبل أن يرحل .. وعندما حان موعد الرحيل خرجت لتوديعه .. ولكنى لم أجروء على الذهاب إليه . لقد كنت أخشى الانهيار .. وظللت أتلکأ فى الطرقات حتى فات الموعد ثم عدت إلى الدار دون أن ألقاه ..

ودخلت الدار وصعدت متواقلة إلى غرفة نومى .. لأجد الرجل الذى حطمت من أجله قلبى ووأدت مشاعرى ، على فراش واحد مع الخادمة . وأحسست بالمبادئ تنهار وبالفضيلة تنهاوى وخيل إلى أنى أسمع الشيطان ساخرًا هازئًا ويصيح بى :
— هؤلاء هم الرجال .

وغادرت الدار فى صمت ويأس ، يأس جنونى قاتل وتمنيت لو استطعت اللحاق بالحبيب الراحل الذى حطمت قلبه .. ولكن لم أجد فائدة . وسأقتنى قدماى إلى هنا لألقاتك .. عابر سبيل .. ألقىت إليك .. بأئمن ما حاولت الاحتفاظ به .. لقد أضحى عندى بلا ثمن .
إنى يا سيدى فى حالة يأس .
هل علمت ما بى ؟

* * *

وافترقنا بعد ذلك فلم نلتق ، ترى أما زالت تهب نفسها لكل عابر سبيل ؟ أم أنها قد اكتفت بذلك الثأر ؟
لقد نصحتها بأن تتجلد وتحتمل .. وقلت لها إن الزمن كفيل ببراء جرحها ..
أتراها قبلت النصح ؟.

ملهمة العمر

إن حياتي كلها وهم ، فلم لا أجعلها وهما جميلا ؟ لِم
لا أقنع من صاحبتى بأن تكون ملهمتى ومبعث وحيى ،
تنضر الورق بين يدي .. وتنبث من الكلمات زهرا ،
وتبعث من السطور عطرا ؟

كان هو أول من أرانى إياها .. ونحن نسير على الشاطئ ذات صيف .. وقد
اتكأت برفقها على الرمال وأسندت رأسها إلى كفها وتمدد جسدها فى استقامة ،
وتهدل شعرها على كتفها وسال على الرمال .

وأحببناها بعد ذلك سويا .. أنا بطريقتى وهو بطريقته ، ولم يستطع حبنا
المشترك أن يوقع بيننا .. أو يفصم عرى ما بيننا من صداقة متينة .. بل بقى كل
منا عاشقا لها .. وصديقا للآخر ..

والواقع أنه لم يكن هناك ما يوجب بيننا الشقاق من أجلها فقد كانت طريقة
كل منا فى حبه إياها .. تختلف عن طريقة الآخر كل الاختلاف بحيث لا يمكن أن
يحدث بيننا خلاف على مطلب ، أو نزاع على غاية .

كان يريد منها غير ما أريد .. ويرجو غير ما أرجو .. ويطلب غير
ما أطلب .. ولم يك يغار منى ، ولم أك أغار منه .

أجل .. ما أظن أنه قد غار منى قط .. قد يكون ذلك لأنه لم يخطر له ببال أنى
أحبها .. ولم يك يرى فى إحساسى نحوها أكثر من إعجاب بروعة حسنها وافتتان
بمظهرها الفاتن الخلاب ... وأنى لا أشعر بأكثر من أنها حبيبته هو .. أى أنها
بالنسبة إلى لا تعدو أن تكون شيئا متعلقا به .

قد يكون هذا ما سبب عدم غيرته منى واطمئنانه إلى .. أو قد يكون شدة حبه لى وثقته فى .. هو ما دفعه لثلا يلفظنى من أجلها .. برغم إحساسه بأننى أحبها فعلا .. وأنه يحاول الاحتفاظ بكلينا .. أو قد تكون شدة ثقته بنفسه واقتناعه بأن لا خوف عليه منى فى ميدان هواها .. وإحساسه بأنه أقرب إليها منى وأكثر استحواذا على مشاعرها وأنه الأساس وأنى القرع .. وأنه المحب الأصيل .. وأنا محب عابر طيار .

كان على حق فى كل ما ذهب إليه .. فلقد كانت طريقته فى حبها — كما قلت — على طرفى نقيض وطريقتى .. كان يحبها باندفاع ورغبة ولهفة .. كان يريد لها .. ويتوق إلى وصلها .. الحديث معها والجلوس إليها .. والرغبة فى تقيلها واحتوائها بين ذراعيه .. كان يريد الاستحواذ عليها .. وأن تضحي ملكه .. وزوجته .. وشريكة حياته .

أما أنا فما كنت أريد شيئا من هذا كله .. لقد كنت أراه كثيرا على .. أكثر مما أحتاج .. كنت فى حبى لها أشبه بالفقير الزاهد المتعبد .. الذى لا يريد من ربه سوى الستر .. لا يطمع فى مزيد من نعيم ومتعات .. بل يقنعه ما يقيم به أوده .. ويمنحه الهدوء والاستقرار والتفكير فى ربه .

أترانى كفرت بهذا التشبيه ؟ .. كفرت أم لم أكفر .. لقد كان هذا هو بالضبط إحساسى نحوها .

إنى ما رغبت قط فى أن أضمها أو ألثمها .. أو أتحمسها بيدي .. بل كان أقصى ما يسعدنى هو أن أراها .. أو حتى أحس بأنها موجودة .

أجل .. كنت قريرا وأنا أحس أنها داخل هذه الكاينة أو وراء تلك الصخرة أو وسط هذه الجمهرة من الناس .. أو حتى مجرد أن أعرف أنها قد حضرت من الدار إلى الشاطئ . فإذا لم أرها .. ولم أحس وجودها .. فإنى أيضا قريير هانىء .. ما ضررنى لو غابت عن مرأى البصر .. وهى مستقرة فى مرآة الذهن ؟ .. ما ضررنى .. وهى ما استطاعت أن تغيب عنى قط .. فهى حاضرة حاضرة ..

وغائبة حاضرة .. إذا حضرت فكلى أعين .. وإذا غابت فطيفها في خيالى .
كنت أحمدها على كل صنيع .. وكل فعل .. ولم أكن أطمع منها فى شىء ..
فإذا ما وهبتنى شيئاً . كلمة رقيقة أو ابتسامة حلوة .. أحسست بفيض من
السعادة يغمرنى ويفيض بى .

كنت أذكرها .. ولا أرجو منها أن تذكرنى .. فإذا ما ذكرتنى .. وجدت
فى ذلك .. إغراقاً فى الكرم .. وإسرافاً فى المنح والإغداق .

كيف أحس بالغيرة عليها من صاحبى — أو من غيره وقد كنت فى حبى لها
أشبه بالعباد المتبتل ؟ .. أياغار العبد على ربه من حب غيره من العبيد !؟

كيف أحاول أن أخص نفسى بها . وأنا أحس أن كل إنسان يجب أن يحبها ؟
كيف يمكن أن أستحوذ عليها وأنا أرى فيها نعيماً مشاعاً كالشمس والهواء ؟
هذه كانت طريقتى فى حبها ! وتلك كانت طريقته .. كنت واهما وكان
جادا .. كنت أطلع إليها وكان يريدنا .. كنت أخلق إليها بذهنى .. وكان
يتحسسها بيده .. كان الفارق بيننا كالْفارق بين السابح فى الهواء .. والسائر على
الأرض .. وبين الحالم واليقظان .

ولم يكن هناك شك فى أنه بطريقته فى الحب أضحى أقرب إليها منى .. بل
أضحى هو كل شىء وأنا لا شىء .. هو المحب وأنا على هامشه .. هو صاحبها
وأنا صاحب صاحبها .

وأقسم غير حاث .. أن هذا ما ساعنى قيد أنملة .. وما أوغر صدرى ضد
صاحبى .. فقد كنت أرى فيه أمراً طبيعياً وكنت أحس أنه هو صاحب الحق
عليها . أما أنا فقد كنت قانعاً بأحلام الهوى .. ومتع الأوهام .. إن حياى كلها
وهم فلم لا أجعلها وهماً جميلاً ؟؟ لِمَ لا أقنع من صاحبتى بأن تكون ملهمتى
ومبعث وحيى . تنضر الورق بين يدى .. وتنبث من الكلمات زهراً وتبعث من
السطور عطراً ؟

وتوثقت العلاقة بينه وبينها وكان يقص علىّ أولاً بأول كل ما يحدث له

معها ..

قص على كيف كلمته وكيف سبحا سويا .. وقص على كيف جلسا وحيدين على الصخرة وتناجيا وتناغيا ، وتبادلا أحاديث الحب الساحرة ، وكلماته العظيمة، وحدثني — كأنني لا أعرف — عن جمالها ورقتها وسحرها وفتنتها ..

ومرت الأيام .. وثلاثتنا مفرقون في هذا الحب المثلث العجيب ، هما تزداد بينهما أواصر الحب ، وأنا قانع منها بالسلام السطحي واللقاء العابر الذي أناله كصديق لصاحبها .

وفي ذات يوم أحسست وجوما من صاحبي .. وبدأ لي أنه على غير عادته من المرح والسرور .. وضايقتني وجومه فقد كنت أكن له حبا عميقا ، وكنت أحس من حزنه مجزون أضعاف حزنه .

وأقبلت عليه أمازحه ، سائلا عما به ، محاولا التفرج عن همه ولكنه استمر في إطراره ، قائلا إن به صداعا بسيطا ولكنني أدركت أن ما به أكثر من صداع في الرأس .. وقلت له ضاحكا :

— صداع في الرأس أم في القلب ؟

ووجدته يهز رأسه ويقول في نبرات حزينة :

— الذى فى القلب لا يسمى صداعا .. بل صدعا .

— إلى هذا الحد ؟

— إني أحس منها فى هذه الأيام تحولا وبرودا ؟

— قد تكون وإهما .. لا تحمل الأشياء أكثر من حقيقتها .

— أبدا ، لا بد أن فى الأمر شيئا ، إني فى حيرة شديدة . لست أدري

ما أصابها .. هل هناك إنسان آخر ؟

— لا تكن سخيفا .. قد يكون ما بها ملل منشؤه فرط إقبالك عليها .. اتد

قليلًا فى حبك .. حتى تشوقها إليك .. اهجر أنت حتى تصلك هى ..

— لا .. لا .. لا فائدة لقد جربت . إنها طريقة خطيرة !! وأخشى إن هجرت أن تمن في الهجران فأفقدتها . ثم إنى لا أطيق هجرها ، فكيف أفعل مالا أستطيع عليه صبرا .

— على أية حال .. لا داعى لأن تحزن نفسك بهذه الطريقة .. أو كد لك أنها تحبك كما أحببتك دائما .. ولكن الحب طبيعته مد وجزر .. لا تنتظر أن يكون الحب وصلا دائما وسعادة مقيمة .. بل يجب أن تصيبه هزات ورجات .. وإلا خبا أواره وخمدت جذوته .

— أنت فيلسوف واهم حالم ! لا تدرك من الواقع شيئا ، إنى أدرى بها منك .

وانطلقت من صدره زفرة حارة يائسة . ولم أجد ما يقال له خيرا مما قلت ، فتركته لنفسه علَّ الحزن يتطایر منها بعضى الوقت .

ولكن الحزن لم يتطایر .. بل استمر صاحبى في وجومه وإطراقه .. وبدأ لى أن هناك فعلا حالة فتور بين المحبين قد تصل إلى حد القطيعة ، فقد كانت تمر بنا .. فلا يصيبه منها سوى تحية عابرة .. نتقاسمها سويا !

وفكرت في أن أحاول أن أصلح ذات البين بينهما ، وأن أسألهما عما بها .. فقد يكون هناك سوء تفاهم أفلح في إزالته إذا ما جمعت بينهما . واستقرى الرأى على هذا .. وتركت للمصادفة أن تمككنى من تنفيذه .. ولكن المصادفة لم تتح .. فقد استدعى صاحبى من إجازته إلى القاهرة .. لدواعى العمل .

وحمدت الله وقلت إن هذا خير ما فعلته الظروف .. فإن هذه الفترة من الفرقة لاشك ستفعل فعلها .. وتمحو ما بين الصاحبين وتعيدهما إلى سابق حبهما .. وانتظرت أن يعود صاحبى يوم الخميس لقضاء عطلة الأسبوع فقد كنت واثقا أنه لا يستطيع على فرقة صاحبه صبرا .

ولكن لم يكد يمضى على سفره يوم واحد حتى وصل إلى منه خطاب .. بداخله مظروف مغلق ورسالة قصيرة جاء فيها ما لى :

عزيزى .

قد تدهش إذا ما رأيتنى أكتب إليك ولما يمض يوم على فراقنا ولكنى أرجو أن
تؤدى لى خدمة لا أظن سواك يستطيع تأديتها . وما كنت لأكلفك عملها .
لولا عجزى عن عملها بنفسى .

لقد حاولت الاتصال بصاحبتنا قبل السفر ولكنى لم أستطع ، فقد كانت على
حالتها من البرود والجفاء .. ولم تتح لى فرصة أن ألقاها وحيدة . فقد كانت تجلس
باستمرار فى الكاينة مع أمها وأخواتها ، وعندما نزلت إلى البحر لم تحاول أن
تذهب إلى الصخرة كما تعودت أن تفعل .

لست أدري ما بها .. فهى لا تعطينى فرصة التفاهم . وأحس أنى أوشك أن
أجن .

ولقد بدا لى أن خير طريقة للتفاهم هو أن أكتب إليها ، وفعلا كتبت ، ولكنى
لم أعرف كيف أوصل إليها الخطاب فإن من المستحيل أن أرسله إلى البيت ،
وفكرت فىك ، فإنى لا أثق فى إنسان سواك ، ولم أشك فى أنك لن تعدم وسيلة
توصل بها الخطاب إليها ، فهى تعرفك خير معرفة .

إنى أخشى أن أكون قد ضايقتك . أو حملتك مالا يقبل لك به . على أية حال ،
لو وجدت فى الأمر أية غضاضة . فمزق الخطاب .. وأؤكد لك أنه لن يغضبني
هذا .

المخلص

(.....)

وضحكت .. فقد كان كثيرا على ، أن أعمل حامل رسائل العشاق ،
ورسولا بين المحبين . ولكنى لم أمزق الخطاب طبعاً ، فقد كان ذلك آخر ما يخطر
لى ببال .

كيف بدا للأحمق العزيز أنى أفعل هذا الفعل ، فأتركه يتقلب على جمر

الغضا ، دون أن أحاول أن أوصول رسالته إلى من يجب .
وهكذا استقرى رأى على أن أوصول الرسالة ، بل على ألا أفعل شيئا أبدا
ولا يهدأ لى بال أو يستقر لى قرار حتى أوصول الرسالة .
وبدأت أفكر ، فقد كانت المسألة مشكلة عسيرة ، أولا لأننى إنسان خجول
ولأننى أخيب الناس فى الغرام العملى ، وكل ما يتصل به من مناورات
وحركات ، ويدخل فى ذلك طبعا ، إيصال رسالة لمعشوقة ، معشوقة نافرة
هاجرة معرضة غضبى .

ومضى اليوم الأول وأنا فى الشاطئ صائل جائل ، لا يهدأ لى قرار ،
ولا أشك فى أنى لففت حولى كايتهما ما يقرب من المائة مرة ، دون جدوى ،
لأنها لم تكن قد حضرت إلى الشاطئ فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى حضرت ، ولكنى وجدتها كما قال صاحبى فى رسالته
« محشورة » داخل الكاينة وسط ثلة من النساء والصبية وكان عسيرا على — بل
مستحيلا — أن أحاول التقدم إليها بالرسالة وسط كل هؤلاء . ومع ذلك فقد
ظلمت أروح أمامها وأعدو ، وقد وضعت الرسالة فى جيبى وأطبقت عليها بيدي
خشية أن تطير أو تضيع .

ووجدتها ترمقنى فى كل روحة لى وغدوة ، وقد بدا عليها الكثير من
الدهش ، ولا أشك فى أنها كانت معذورة فقد كان لى — من فرط اللهفة —
مظهر العشاق الثقلاء.. الملحن ، وأنا ما تعودت أن أفعل هذا معها ، بل كنت
أعشقها — كما قلت — عن بعد ، وبحيث لا تكاد تشعر أنى أحس بها .

ووجدت أن اليوم يوشك أن ينفد ، ولما أفعل شيئا . فبدأت أنتقل إلى حالة
أكثر جرأة من مجرد الغدو والرواح حول الكينة .

وأخرجت الرسالة من جيبى وبدأت ألوح لها بها ، ولم أشك فى أنها أدركت
أنى أود أن أوصول إليها الرسالة فقد زادت فى وجهها علامم التعجب .

وأخيرا وجدت أنها تغادر الكاينة فتتجه إلى أقصى الشاطئ وتستقر فى كاينة

خالية لإحدى صديقاتها .

وهكذا ستحت لى الفرصة أخيرا .. وأحسست أن قلبى يخفق بشدة وعنف ، فقد كانت المرة الأولى التى أدخلو فيها إليها ، وأصابنى من الوهم والارتباك والخشية ما يصيب عبدا أمام سيده .

وسلمتها الرسالة فى صمت ، ووقفت أنتظر ، ورأيتها تقضها فى عجلة واضطراب ، ثم أخذت فى قراءتها .

وبدأت أرقب المشاعر التى ترتسم على وجهها أثناء القراءة ، فلمحت فيها خليطا من دهشة ، ومتعة وذهول ، كأنما قرأت فى الرسالة شيئا لذيذا عجيبا لم تكن تتوقعه قط .

وأخيرا طوت الرسالة ، ثم أطرقت برأسها مفكرة .. وبعد برهة رأيتها ترفع إلى عينيّن حاملتين تشعان بأمل جميل ونشوة ممتعة وسمعتها تهمس :
— أنا أيضا أحبك كما لم أحب إنسانا ، ولا أستطيع أن أفكر فى أن أتزوج رجلا سواك .

أنا ؟

تجنّبى أنا ؟ ولا تستطيع أن تتزوج سواى أنا ؟

وسرت فى جسدى هزة ورجفة ، كأنما قد مسنى تيار كهربائى .
إن المعبودة الساحرة ، قد ظننت بلا شك أنى صاحب الخطاب ، فإن اسمينا الأولين متشابهان ، ولا شك أن صاحبى قد أمضى الرسالة باسمه الأول .
ولم أنبس بينت شفة فقد كنت كإنسان صعب ، لا أستطيع حتى أن أميز حقيقة مشاعرى ، أفرح لأنها تبادلنى الحب ولأنها تجنّبى كما لم تحب إنسانا ، أم أحزن على صدمة صديقى وعلى صدمتها عندما تعرف أنى لست صاحب الرسالة .

على أية حال لقد أحسست بموجة حزن جارفة .. ووجدتنى أغالب دمعتين تهمان بالقفز من مقلتى .

وأجبتها في همسة حزينة :

— أنا لست صاحب الرسالة ، لقد كلفني صاحبها بأن أحملها إليك .
ورأيتهما تحمق في الرسالة في ذهول شديد ، وعلت وجهها الجميل سحابة
معتمة من حزن عميق وخيبة شديدة وسمعتها تهمس :

— لست أنت !

— أجل لست أنا صاحب الرسالة ، إني فقط حاملها ..
ورأيت أصابعها تضغط الرسالة فتمزقها ونهضت من مقعدها وهي تقول :
— قل لصاحبك ، إن ما بيننا لم يكن سوى افتتان عابر . انصحها بأن ينسى
كل ما كان بيننا .

وبذلت جهدي لكي أسكت ذلك البكاء الذي كان يبش في صدري .
وقبل أن توليني ظهرها منصرفة .. استطعت أن أهمس لها :

— إني حقاً لست صاحب الرسالة ، ولكن كل ما بها صحيح بالنسبة إلى ،
إني أحبيتك أيضاً كما لم أحب إنساناً بل أحبيتك أكثر مما يحب الإنسان الإنسان ،
أحبيتك كما يحب العبد ربه . كل ما جاء بالرسالة صحيح عدا شيء واحد ، هو
الزواج بك ، إني لا أستطيع الزواج منك ، من أجله هو !

وافترقنا بعد ذلك وضربت بيننا أيدي الزمن ، فلم نلتق إلا لما ، ولم أحس
قط أني نادى على ما بذلت من تضحية .. بل إني كثيراً ما أسأل نفسي ، أترى
فيما فعلت ، أية تضحية ؟

إني لم أخسر بتضحيتي شيئاً . لم أخسر صداقة ، ولم أخسر حباً إن حباً باق في
نفسى على مر الأيام ، لا سلطان للزمن عليه . لا يخمد له أوار ولا تنطفئ له
جذوة .

إني أذكرها كحلم جميل .. وذكرى ممتعة ، أجتر منها الهناء كلما أعوزني
الهناء وأستعين بها على الحزن إذا ما ألم بي حزن . وأستلهمها الوحي إذا ما نصب
الوحي وعز الإلهام .

ربيع دائم

إنهما سر هذه الخضرة المستمرة والربيع الأبدى
الدائم . إن مثلهما لا يموت .. لقد ثوى جسداهما في باطن
الأرض ليخرجا على سطحها كل هذه الحياة الفياضة
الجياشة .

نسيم الليل يا روضة فيك أم خفق القلوب ؟ ..
وحفيف الدوح في روضك أم همس الحبيب ؟ ..
حدثيني يا روضة .. كم من العشاق ضمت حناياك .. وكم من المهج
والأغفلة وسدتها ندى ثراك ؟ ..

ما سر خضرتك الدائمة .. ونضرتك التي لا تمتد إليها يد الذبول ؟ ..
هل سرت أنفاس عيسى في الفـلاة
فنفخـن الـروح في أرض موات
وجعلنـ النـبت يزكو من رفـات
وبعثـن الـطير يشد هادلا
في أريك الأيك مشـسى وربـاع ؟
أنفاس عيسى تلك التي سرت فيك .. أم أنفاس الأجنـة ؟؟ أمى التي نفخت
الروح في أرضك أم زفرائهم الحارة ؟
ومن الذى أنطق الطير على أيكه والورق على غصنه والماء فى غديره ؟ من الذى
أنبت الزهر .. وبلل بالدموع خدوده ؟

أنا يا روضة شاعر عاشق، وهل يكون العاشق إلا شاعرا أو يحيا الشاعر
بلا عشق ؟

حدثيني يا روضة بسر .. أحدثك بسر .. إني على سر ك أمين
وما أمنت على سرى مثل صدرك الحنون .
حدثني يا روضة إني منصت إليك .. إلى همس نسيمك .. وحفيف أوراقك
وخير غديرك وشدو طيرك .

* * *

إن السر في حناياي يا شاعر .. ولمن غيرك أخرجه .. وما فهم لغتي
سواك ؟

إن أشعارك تنم عني .. كأنها عبير زهورى .. فكيف لا أحدثك وأنت
رسولى .. ومنشد لحنى ؟
هل تسمعني يا شاعر .. سأدع نسيما .. أو كما تسميه .. خفق القلوب
وأنفاس العشاق .. يبدأ الحديث ..
استمع .. إن النسيم يتحدث ..

* * *

إن السنين تمر على وأنا أضرب في الأرض عاصفا جامحا أصخب وأضج ..
أثير الزوابع وأرفع الأنواء . قلقا هائجا لا أستقر على حر ولا قر .. أهدر في
الفضاء نائحا صائحا . حتى أصل إلى هذه البقعة .. فإذا بي قد سكنت
وهدأت .. والصياح والنواح قد صمت .. وبات هبوبى العاقى سريانا هادئا
ناعما .. وانقلبت العاصفة في جوفى .. إلى نسيم عليل وأحسست بالراحة
والطمأنينة وإذا بثورتى الجامحة قد ذهبت .

أجل يا شاعر .. إني لا أكاد أطوف بالروضة حتى تصيننى رقة وسكينة
وأمس دوحها في لين وأداعب أوراقها في رفق .. وأمسخ بكفى الهادئة على سطح
غديرها فأجرى ماءه وأجلو بريقه ..

وكيف أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. وأنا ما زلت أشم عطر أنفاسهما بين
الخمائل وأسمع همسهما بين الرياض .

أتراى وأما ؟

لا .. لا .. إن السنين لم تمح الآثار .. إنها باقية على الزمن .. خارجة عن
سلطانه .. خالدة ثابتة ما بقيت الأرض والسماء على الأرض .

إن هذه الآثار تستمد عبرها من أنفاسهما .. لقد ثويا في جوف الأرض ..
ولكن هل يصعب على الجذور أن تصل إلى مستقرهما لتستمد منهما الشذى
والعبر ..

إنهما سر هذه الخضرة المستمرة والربيع الأبدى الدائم، إن مثلهما لا يموت ..
لقد ثوى جسدهما في باطن الأرض ليخرجا على سطحها كل هذه الحياة الفياضة
الجياشة ..

أجل .. إلى أبصرهما في كل دوحة .. وورقة .. وزهرة فما كان كل هذا ليرفل
في حلال الجمال .. لولاهما ..

إني أذكر كيف رأيتهما أول مرة وأنا أهب هنا في ثورة من ثوراني الجاححة .
فتملكني الدهش ووقفت أمامهما ممسكا أنفاسي خشية أن أقلقهما ..

كانا يجلسان في صمت وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . وبدأ لي كأنهما
تمثالان للهناء والنعيم .. أو كأنهما يجدان في مس كفيهما كل ما يغيان في
الحياة ..

وسرني منظرهما وبدأت أتمهل في الروضة وأطوف حولهما في هدوء منصتا إلى
همساتهما الرقيقة .

وسمعتة يقول :

— تخيل إلى وأنا أجلس بجوارك أنى لست على قيد الحياة .. إن دنيانا لا يمكن
أن تهب للإنسان مثل هذا النعيم .. لا بد أن نكون مخلقين في السماء .. ولا بد أن
يكون الله قد أدخلنا جنانه .

— أنا أيضا أحس بمتعة غير محدودة .. وليس هناك ما يقلقنى إلا خوف زوالها .. لأنى مثلك لا أثق بالحياة كثيرا .. وما دمنا أحياء فإن نعيمنا لا بد مسترد .. كم أتمنى لو كنا كما تقول نخلق فى السماء .. فتستقر روحانا فى هناء دائم بلا خوف من المنتظر المجهول ..

— ولكن ما الذى نخشاه من الحياة .. ما دمنا واثقين من أنفسنا .. وما دام كل منا لا يريد سوى صاحبه .. لقد أضحى كل شىء أمامنا مذللاً ولم تعد هناك أية عقبة فى سبيل زواجنا ..

ورأيت يرفع يدها إلى شفثيه فيمسها مساً رقيقاً ثم يردف قائلاً :
— لا يجب أن نقلق أنفسنا بخوف مجهول .. ما دام كل ما أمامنا سهلاً معبداً . دعينا نمتع بالحاضر الممتع والماضى الهنىء .. هل تذكرين لقاءنا أول مرة .. فى مكاننا هذا ؟؟ وكيف كنت تبدين قلقة مضطربة كأنك سارقة ؟..
— أولم أكن كذلك .. ألم نسرق من لقاءنا متعة فى غفلة من القدر .. أولم نزل نسرق حتى الآن .. ألا تحس أن هناءنا أشبه بحلم « فى الدجى أو خلصة المختلس » ؟

— لقد سرقنا أجمل ما يمكن أن يسرقه إنسان .. سرقنا الحب الذى لا يورث ندماً ، ولا يعقب حسرة .. سرقنا سرقة بريئة طاهرة .. كنت وقتذاك تكرهين أن تقولى لى أنك تحبيننى ، كنت تعتبرينها جريمة لا تغتفر .. وكنت دائماً تزعمين أن لقاءنا كان محض مصادفة .. وأنت عندما أتيت إلى هنا كنت واثقة أبى غير موجودة ..

— كنت حمقاء صغيرة .. كنت أعتقد وقتذاك أن الحب خطيئة . وكنت أكره من نفسى أن ترتكب الخطيئة ومع ذلك فقد كنت منساقاً إليه بلا وعى ولا إرادة .. كنت أحب أن أراك .. ولا أدري لم .. ولا أكاد أدخلو إلى نفسى حتى أجدين أفكارك .. شاعرة من مجرد التفكير بمتعة ونشوة .. ومع ذلك فقد كنت أكره أن أعترف لنفسى بأنى أحبك .

— كل هذا .. وكنت تتركينى حائرا معذبا .. أسألك نفسى : أتحبيننى .. أم لا تحبيننى .. ؟ أحاول أن أجمع الأدلة حتى أثبت لنفسى أنك تحبيننى .. فلا أكاد أقتنع .. حتى أرى منك ما يجعل كل ما جمعت ينهار فأعود كما كنت حائرا حزينا شاردا .. حتى كان ذات يوم قلت لك إنك تحبيننى .. وإنك لا تحتملين من أهلك مجرد التفكير فى أن يزوجوك من سواى .. لأنك تحبين أن كلا منا جزء مكمل للآخر ..

— كيف جسرت على أن أقول لك هذا .. أنا الآية ١٩ التى كنت أكره لنفسى أن أنزلق إلى هاوية الحب .. ولكنى أذكر أنى كنت لا أستطيع مقاومة حبك .. ووجدت أن أهلى يتحدثون عن مسألة زواجى ويحاولون أن ينتقوا لى الزوج الصالح .. كأن الأمر يهمهم وحدهم .. وكأنى قاصرة لا أملك من أمر نفسى شيئا .. ووجدت المسألة تتخرج .. وبدأ تفكيرهم يخرج إلى الطور العملى .. وأخذ أرى يت فى أمر الخطّاب العديدين الذين كانوا يتقدمون لى .. ويقارن بين هذا وذاك .. وأنا حائرة معذبة .. أشعر أن حياتى بدونك خير منها العدم .. ومع ذلك لم أجزؤ على أن أقول لك لى أحبك .. ولم تحاول أنت التقدم لخطبتى .. وخرجت يومذاك فى الموعد الذى أعرف أنك تأتى فيه لى هنا .. وصممت على أن أبوح بكل شيء .. فقد كانت تلك خير وسيلة أنقذ بها نفسى .

— نفسينا .. فقد كنت أنا أكثر منك حزنا وحيرة وقلقا .. حتى اعترفت لى بحبك فبددت من حولى سحب الشك وظلمات الحيرة وأنرت لى الطريق وجعلتنى أتقدم لى أليك ونفسى مليئة بالثقة .

وكنت أعلم أننى قد أكون أقل قدرا من بقية خطابك .. ولكنى لم أشك فى أنك ستكونين لى .. رضى أبوك أم لم يرض .

— الحمد لله .. الذى جعله يرضى .. إن الفضل لأمى .. فقد أدركت أنى أميل إليك . ولم تعدم وسيلة لإقناعه . فهى شديدة التأثير عليه .

— ماذا تخشين إذن من المجهول المنتظر ؟ هل تخشين حياة تجمعنا إلى الأبد

سويا ..؟

— أبدا .. إلى فقط .. أستكثر على نفسي مثل هذا النعيم .. إلى أتصور حالنا وقد ضمنا بيت واحد .. لا نفترق عن بعضنا لحظة واحدة . نسقى حديقته ونجمل حجراته . وأتصور أولادنا .. يملأون البيت تغريدا .. أية حياة تلك ..؟! — أجل .. أية حياة .. بل أى فردوس يهبط من السماء ليجعلنا فى الأرض ؟ وأبصرتها تستند برأسها على صدره ، فمست وجهيها برفق وغادرتها وأنا أتراقص على الأوراق نشوان ثملا .

ثم تعودت أن أبصرهما بعد ذلك فى نفس الجلسة .. نموذجاً لعاشقين سعيدين . وعلمت من أحاديثهما أن يوم الزفاف يوشك أن يحل .. وأنهما قد أعدا له العدة .. وعلمت كذلك أنهما قد اتفقا أن يكونا وفيين للروضة التى احتضنت جبهما وهو وليد وألا يهجرها قط ..!

ومع ذلك فقد هجرها .. وبدا لى أنهما قد نسيا وعدهما فقد مضت الأيام وأنا أفقدتهما حيث تعودت أن أراها ..

ولم أدر ما حل بهما .. حتى كنت ذات يوم .. أطوف بالمدينة فى زوبعة متربة .. حملت فيها ما استطعت من الثرى لألقيه على رؤوس البشر .. وسريت من إحدى النوافذ قبل أن يستطيع صاحبها إغلاقها .. فإذا بى أصادف منظرا عجبا .

لقد وجدتاه مستلقية على فراش فى ركن الحجرة .. شاحبة الوجه ذابلة الجسد وقد جلس هو بجوارها يحنو عليها حنو الأم على رضيعها ، وشممت فى جو الحجرة رائحة المرض والحزن واليأس .

وخفضت من حدق وسرى إلى الحزن فصارت هباتى عويلا وأنيئا .. وسمعته يهمس إليها وهو يتحسس شعرها فى رفق وحنان .

— أنت بخير إن شاء الله .. ستشفين قريبا وستزوج ، ونمضى شهر العسل فى روضتنا الحبيبة ..

ورأيتهما تفتح عينين كليتين أضناهما المرض ، وأطفأت بريقهما العلة ..
وأجابت في خفوت :

— روضتنا الحبيبة ..؟ كم أود أن أراها ولو مرة واحدة قبل أن أذهب !
— إنك لن تذهبي أبدا .. لا تتحدثي بمثل هذه اللهجة اليائسة .كلنا نعرف
أنك سليمة .

— بل كلکم تعرفون أنى راحلة .. فإذا لم تكونوا تعرفون فأنا أعرف .. إن
لى أمنية واحدة .. قبل الرحيل .

— إنى أفعل لك كل ما تريدین ..

— خذنى إلى الروضة مرة واحدة .. أريد أن أمتع فيها بقاء آخر .

وتركت الحجره من نافذة مقابلة ونفسى مثقلة بالحزن ، واندفعت فى العويل
والنواح والأنين والبكاء .. أصدم النوافذ وأقرع الأبواب وأضرب رعوس
الشجر وأنزع الأوراق .. وهطلت دموعى فأغرقت الأرض وفاضت بها
الغدران .

وتملكنى الإجهاد فعدت أطوف بالروضة متناقل الخطى مهموم النفس ..
فإذا بى أجدهما قد اتخذا مكانهما حيث تعودت أن أجدهما وهما يتفضان كالريشة
فى مهبى ..!

وكفكفت دمعى رفقا بهما وهذأت من نائرتى .. وخففت من حدقى ،
وهبيت عليهما ناعما عليلا كما تعودت أن أفعل بهما فى سابق اللقيا ، وحملت لهما
من عيب الزهور ما أنعشهما .. ومنحهما قوة وجلدا ..

ورأيت منها صحوة ولحت فى عينها بريقا .. وسمعتها تهمس :

— كم أنا سعيدة .. إنى على استعداد لأن أرحل الآن بين هذه الخضرة
النضرة .. والربيع الدائم .. والحب الأبدى ..!

وأغمضت عينها .. وتراخت أطرافها .. وشعرت برجفة وهزة ، فقد
أحسست أن صحوتها كانت صحوة أخيرة وأن بريق عينها قد خبا إلى غير عودة ..
(مبكى العشاق)

ونظرت إليه فلمحت في بصره زيفا وفي وجهه تقلصا .
وانحنى عليها يضمها في لفة وجنون .. وسمعته يناجيا بأعذب ألفاظ الهوى
وأرق كلمات الغرام ..
ورأيته قد ترك جسدها فوق كوم من العشب الطرى . ثم أقبل على فأس ملقاة
يحفر بها الأرض ..
واستمر يحفر .. ويحفر حتى هبطت الشمس من مغربها وأدھم الليل ، ثم رأيته
يسحب الجثة فيرقد وإياها في جوف الأرض ..
ومرت الأيام والجسدان راقدان .. الميت والحي .. وأصابه النحول
والذبول .. وهو صامت لا يتكلم .. راقدا لا يتحرك .. وتملكنى عليه حزن
عميق .. وددت لو استطعت حمله من حفرة وإنقاذه من هذا الذهول والجنون .
وخطر لى خاطر وجدت فيه رحمة به ، وإنقاذا له من هذا الموت البطيء ..
وبدأت في تنفيذه .. فأخذت أعصف بشدة وعنف .. ملقيا الثرى داخل
الحفرة .. حتى غطيت الجسدين وواريتهما التراب ..
ومنذ ذلك اليوم وقد أقسمت أن أحقق أملهما .. واتفقت مع الروضة على أن
يبقى كل ما بها في خضرة نضرة وريبع دائم ..
ذلك يا شاعر هو سر الروضة .. وسر ربيعها الدائم .. هل تحدثنا بسرك كما
حدثناك بسرنا ؟..

* * *

وأطرق الشاب برأسه ، واستغرق في تفكير عميق .. وبعد برهة رفع رأسه
وهمس للروضة قائلا :
— أيتها الروضة ما أشبه سرك بسرى .. إن النسيم ما باح لى بمجديد .. إن
قصة عاشقك هي قصتي .. ليس بين الاثنين فرق كبير ..
وأجاب النسيم في عجب :
— كيف .. أيها الشاعر ؟ إنك ما زلت على قيد الحياة .

— ١٣١ —

— وهى أيضا ما زالت على قيد الحياة .. وتلك هى الكارثة .. إننا لم نستطع
أن نجعل من حبناربيعا دائما..لقد كانت بدايتنا واحدة .. وإن اختلفت النهاية ..
لقد كنا نجلس كعشاقك وكنا نحلم بالفردوس الذى سيجمعنا على الأرض
ونتصور بيتنا المقبل وأولادنا الذين سيملاؤونه تغريدا .
ولم نمت أيتها الروضة .. بل تزوجنا .. وتبددت الأحلام وتطايرت
الأوهام .
مضى شهران .. وبدأ الحمل .. والقيء .. ثم وضعت .. وهبط الأولاد
الواحد تلو الآخر .. فملأوا البيت صراخا وإزعاجا وأمراضا .
وبين آونة وأخرى .. أذكر أنني شاعر وأننى عاشق فأعود إليك أيتها
الروضة .. أعود وحيدا ..
أيتها الروضة .. أليس من سخرية الحياة .. أننا لا نحصل فيها على ربيع دائم ..
إلا بالموت ..

في موكب الهوى

— ١٣٥ —

إِهْدَاء

إلى الخرد الغيد ..

الهيف القدود ..

الداميات الخدود ..

القائرات النهود ..

إلى الصائلات بالجفون ..

المكرّات بالعيون ...

الساقيات من الشفاه رضا ..

الموقدات في الضلوع لهيا ..

إلى الملهمات المشرقات ..

الناضرات الزاهرات ..

إلى اللاتي دفعنني في ركب الغرام ..

وقدنني إلى موكب الصباة والهيام ..

أهدي كتابي هذا :

وهل أنا بإهدائي إلا معيدا إليهن بعض هنتهنّ ..

أو مهديا إليهن صنّع فتنتهنّ ..

« يوسف السباعي »

مقدمة

« كيف أكتب عن سواك والذهن قد خلا إلا منك ؟
كيف أكتب عن سواك ، ونفسك ملء نفسى ؟ وصورتك ملء ناظرى ،
وصوتك ملء أذنى ؟ .

إنى أمسك بالقلم على الورق فيقف فى جمود وحزن واكتاب فلا يكاد يمر بنا
طيفك حتى تصيبه هزة ، وإذا به قد شدا وترنم وصفق وهفا ، وسطر على الورق
أنغاماً وألحانا .

أيتها الملهمه المجهولة .

يا ساقية النعيم .. يا منبع الرجاء .

يا حلوة الروح .. يا مهدية الأمل .

أيتها الملهمه المجهولة .. التى لا تغرب لها شمس ، ولا يافل لها نجم ..
ولا يغيض على الزمن وهجها ، ولا يخبو على السنين بريقها .

أيتها الملهمه المجهولة .. ما أوفاك وقد عزّ الوفاء ، أنت لا تغييبين
ولا تزولين .. أنت دائماً حاضرة تطوفين بالذهن كما يطوف الحلم بالنائم . أشتم
ريحك فى عقب النسائم ، وأسمع صوتك فى هديل الحمام .

قد ألقاك فى حسناء هيفاء ، فتندفع حياك فى رأسى ، وتملك علىّ نفسى ،
وتؤجج شعورى وحسى .

أفكر فيك فأشعر نحوك بحنين لذيد .. وأحس فى نفسى سكينه ممتعة .. وأرى
فى الحياه شيئاً غير ذلك التكرار الممل ، والسامة الموحشة ، والفراغ المعتم .

إنى أحس روحك فى الحسناء .. فلا أجدها غريبة عنى ، بل أبصر منها ألف
روح ، وتوأم نفس .. يجمعنى وإياه ود قديم ، وحب سابق .

وقد تختفى الحسناء من محيط حياتي ، ويغيب عني طيفها وتزول ذكراها ، ولكنك لا تغيبين ولا تزولين ، فقد أرهف السمع في سكون الليل .. فأسمعك في صوت حنون ، يحمله إلى النسيم بعد الرقاد .. وأنا مغمض العينين ، شارد الذهن ، مرهف القلب .. وأعرفك فيه فتصيني من نبراته نشوة ، ومن ألحانه هزة .. ويكاد الفؤاد يشب للقياك ، ويهتف لعودتك .

وقد يضع الصوت بعد ذلك ، ويتبدد مع الريح .. ثم أظل في شوق إليك .. وأبحث عنك في الوجوه الحسان ، والعيون الساحرة ، والشفاه المعسولة .. وانصت إليك في كل لحن شجي ! ونغم شهى .. وأتنسم ريحك في كل عبير فواح وعطر ذكي .. حتى أهتدي إليك في قلب مرهف أو روح شاعرة . إنك تتقلبن من صورة إلى أخرى ، ومن فاتنة إلى فاتنة .. ولكنك لا تتخلين عني قط .. فما مرت بي لحظة من لحظات العمر .. تركتني فيها خالي القلب ، خاوي الفؤاد .. بلا حب يملأ على فراغ الحياة .

وعندما أذكر الحب .. أعني به .. ذلك الحب الذي يمثلنا ، ويغير المراتب في نفوسنا .. فيخلع عليها جمالا ليس فيها .. ذلك الحب المجنون الذي نستعذب فيه الألم ، ونستلذ منه العذاب .. الذي يجعل القلب يخفق لصوت دون غيره من ملايين الأصوات ، والفؤاد يرجف من صورة دون غيرها من ملايين الصور . ذلك الحب الذي يجعلنا نحصر تفكيرنا في خيال جميل لا نكاد نبصر في الخليقة سواه . أو نحس غيره .

إني لم أعدم في حياتي لحظة واحدة .. ذلك الحب الذي يجعل الحياة في نفوسنا ..

إني لم أعدم قط .. الملهمه المجهولة .
أجل أيتها الملهمه .

إني قد أراك .. في ذوائب مسترسلة .. أو في لحن جميل .. أو في رسالة شاعرية .

— ١٣٩ —

أنت دائما تهتفين لى .. من قريب أو من بعيد .. قد أراك وقد لا أراك .. قد
أتحدث إليك ، وأتحسس كيائك ، وأمس شفتيك ، وأشم أنفاسك .. وقد أرنو
إليك عن بعد .. فى حنين ولهفة .. دون أن تشعرى لى ، أو تحسى وجودى .
ولكنك .. وصلت ، أم هجرت .. دنوت ، أم نأيت .. كائنة فى الزهن ،
ساكنة فى الفؤاد .

تحركين القلم ، وتنضرين الورق .. ولولاك يا حلوة الروح .. لجف النبع
ونضب المعين .. ولما جاشت الروح فى الأسطر ، وتنفست الكلمات .
(يوسف السباعى)

دمية...

ما ظننت أن نورك الذى سحرلى .. هو نور قلبى
الذى انعكس عليك .. فأبداك ساحرة مضيئة .. حتى
انطفأ ضوء قلبى .. أو تحول عنك .. فإذا بك خاوية
مظلمة .. وإذا بسحرك قد ذهب .. وإذا بك دمية كغيرك
من الدمى .

أمسكت الفتاة : بالرسالة وفضتها ببطء وبدأت القراءة :
عزيزتى :

هل يدهشك أن أكتب إليك ؟
أنا نفسى فى دهش شديد ، فما دار بخلقى أن أكتب إليك فى يوم ما ،
وما كنت لأدرى ، وأنا أمسك القلم لأكتب إليك .. لم أكتب ؟ وماذا
أكتب ؟
ماذا أكتب ؟ وأنا ما كتبت إلى امرأة من قبل ؟ لقد كتبت كثيرا عن النساء ،
وكتبت عنك ضمن من كتبت .
كتبت عنك فى زمن مضى .. عندما كنت لا أستطيع أن أكتب إلا عنك .
وكيف أكتب عن سواك ، والذهن قد خلا إلا منك ؟ كيف أكتب عن
سواك .. وقد كانت نفسك ملء نفسى .. وصورتك ملء أذنى ؟ كان القلم يقف
على الورقة فى جمود وحزن واكتئاب .. فلا يكاد يمر بنا طيفك حتى تصيبه
هزة ، وإذا به قد شدا وترنم .. وغنى ورقص .. وسطر على الورق أنغاما
وألحانا .

هل تعرفين المصور العاشق الذى لا تجرى ريشته إلا بصورة صاحبه ..
والذى لا يمل من أن يقضى عمره فى رسمها ؟ كذلك كنت .. وكذلك كان
القلم .. كلانا عاجز عن كل شيء ، إلا عن الكتابة عنك . لهذا كنت أكتب
عنك .. فى زمن خلا .. زمن كنا فيه نفسا واحدة .. وكان كل منا يحس أن
لا غنى لأحدنا عن صاحبه .. ولا عيش له بدونه .
ترى لم أكتب إليك الآن ، وقد تبدد ما بيننا وتفرق ؟
لم أكتب إليك وقد أضحيننا « كلانا غنى عن أخيه حياته ، ونحن إذا متنا أشد
تغانيا » .

إنى واثق أننى لم أكتب إليك لأقول إنى أحبك .. لسبب واحد ..
هل أكتب إليك لأقول إنى لا أحبك ؟
لا أظن .. فإن من الحق أن يكتب إنسان لآخر .. لا لشيء إلا ليخبره أنه
لا يحبه .. ولو كان الأمر كذلك لتحتم على أن أكتب للملايين غيرك الذين
لا أحبهم .. لأبلغهم أنى لا أحبهم !
لم إذن أكتب إليك ؟
أتريدى الحق ..؟ إنها نكسة .
هل تذكرين ما قلته لك عن الحب ، وأنه يصيب الإنسان كما يصيبه البرد ..
وأنه يأتيه من حيث لا يدرى .. فيبدأ زكاما سهلا .. ثم نزلة شعبية ، ثم التهابا
رئويا يتركه صريعا محموما ؟

كذا بدأ معى حبك .. وتركنى صريعا محموما .. حتى من الله على
بالشفاء ، فبرئت من حبك ، وأنقذت من نيرك ، وأطلقت من إسارك ..
وفررت بنفسى عن دائرة نفوذك وسلطانك ، وأضحيت حرا طليقا ، وانطلقت
أنعم ببدايع الله من زهر وعيون وشفاه .. وأتسل عنك بغيرك من بنات حواء ،
وتلاشت صورتك فى قلبى وأخذت ذكراك تضمحل فى رأسى ، حتى لتكاد
تمحى .. وأكاد أنساك .. لولا حين يعاودنى فينكأ الجرح بعدما برىء ، ويشير

الذكرى بعدما هجعت . فإذا لى يا صاحبتى أصاب بنكسة .

تلك هى سبب كتابتى !!

* * *

ترى من كان السبب فى كل ما حدث ؟ أنا .. أم أنت ؟ أم الظروف
الحمقاء الهوجاء .. الساخرة العابثة .. التى أبت إلا أن تمهد للقائنا خير تمهيد ؟
من ناحيتى أنا .. لأشك أن الظروف قد أحكمت إعدادى للقائك .. وأعدت
مشاعرى وتفكيرى إعدادا دقيقا لاستقبالك ومواجهتك .. فلم تدفع بك فى
طريقى إلا بعد أن أرهفت حسى .. وهيات نفسى ، بحيث ينجى إلى أننى لم أكن
أصلح وقتذاك ، إلا لشيء واحد هو لقاءك ؟

أجل . إن الظروف الحمقاء هى المسئولة عن كل ما حدث ، فقد أحكمت
لقائى بك فى اللحظة المضبوطة .. ولو التقيت بك قبل اللحظة التى التقينا فيها أو
بعدها .. لما خدعتنى أوهام الذهن وأضواء القلب ، ولما رأيت فىك أكثر من
حقيقتك ، دمية تافهة !!

هل تذكرين رواية عرضت على الشاشة البيضاء .. بعنوان « أنترميزو » أو
« فترة راحة » ؟ .. لقد كانت تلك الرواية .. هى أحبولة القدر لإيقاعى فى
شراكك .. ووسيلة الظروف الخرقاء التى أعدتني بها للقائك .

كان موضوع الرواية يتلخص فى أن بطلها وهو موسيقى فنان ذو زوجة
وابنة ، يلتقى بمدرسة البيانو التى تقوم بتعليم ابنته .. وينسج الهوى شباكه
حولهما ، فإذا بهما كليهما متدله حبا بالآخر .. وتأجج بينهما نيران الحب ،
وتجد الفتاة نفسها مندفعة فى حب يائس .. حب رجل ذى زوجة وابنة ، حب
قد يدمر حياته وحياتها .. فتحاول أن تكبت حبا .. وتفر من طريقه .. ولكنه
يتعلق بها .. ويفران .. ويهجر الرجل بيته وامراته وابنته .. لينعم بحبه ، ويخلو
العاشقان فى وكرهما الجديد .. صورة واضحة للهوى الجارف ، والحب
المأجج ، وتستمر حياتهما هائلة سعيدة ، حياة مثالية لعاشقين .. حتى يزورهما

ذات يوم صديق قديم ، فيخلو إليها ويطلب منها أن تترك الرجل يعود إلى بيته رحمة به وبزوجته وابنته .

وتفكر الفتاة العاشقة الواهلة .. كيف تترك صاحبها وكيف تقوى على فراقه .. ثم ينتهى الأمر بها إلى قبول التضحية .. وإلى أن تقنع نفسها أنها دخيلة في حياة الرجل ، وأن دورها بالنسبة له ليس إلا دور عابر . وأن ما قضاه معها ليس إلا فترة راحة استجم فيها من عناء حياته .. وأن عليها بعد ذلك أن تعيده إلى طريقه المثلئ ، وتنصرف عنه حاملة حبها المستعمر في حناياها .

وهكذا تفر الفتاة دون أن تبيع لنفسها حتى فرصة توديعه .. خشية أن تضعف .. ويتلقى الرجل الصدمة ، ثم يعود إلى امرأته .. وفي عودته يجد ابنته قد أصيبت في حادث صدام ، فيحملها ويذهب إلى الدار .. ثم يستقر به المقام بعد ذلك في بيته ، وتشفى ابنته ، وتعود حياته إلى مجراها الطبيعي .

تلك هي القصة التي سلطتها على الظروف .. لتعدني للقائك .. وقد تكون القصة عادية .. وقد تكون غير ذات أثر كبير في نفس غير نفسى ممن شاهدها ، أما في نفسى فقد كان لها أثر وأى أثر !!

لقد أبكاني في الرواية موقف واحد .. هو موقف الفتاة العاشقة بعد أن قبلت التضحية .. وتركت الرجل وقد كبتت لوعتها في فؤادها ، ولم تمتنع نفسها حتى فرصة وداعه .

قد يكون بكائي حمقا .. ولكن من منا لا يخلو من الحلق ؟ وانطلقت بعد مشاهدتي الرواية .. وقد أرهف حسى وهاجت مشاعرى .. فلقيتك ولقيتك أنت . أجل لقد هيأتني الظروف ، وأحكمت إعدادى . ثم دفعت بك إلى .

وكان لك شبه شديد بالفتاة التي أبكتنى واستولت على مشاعرى . أو هكذا خيل إلى الوهم .. وكان لى أيضا شبه بالعاشق .. فقد كان فناذا زوجه ، وابنة ، وكنت كذلك .

وتعاون على الشباب ، والسحر ، والقلب المضىء ، والذهن المنطلق في
بيداء الخيال ، المخلق في سماء الوهم .. فأراني التراب تبرا ، والشوك زهرا ،
والرماد جحرا ، والماء القراح خمرا .

وأنت ..؟ أنت أيتها البراقة الخادعة ما ظننت قط أن بريقك بريق زائف ..
وأن ضوءك يشع من سطحك لا من قلبك .. ما ظننت أن نورك الذى
سحرنى .. هو نور قلبي الذى انعكس عليك .. فأبداك ساحرة مضيق .. حتى
إذا انطفأ ضوء قلبي .. أو تحول عنك عدت خاية مظلمة .. وإذا بسحرك قد
ذهب .. وإذا بك دمية كغيرك من الدمي .

وأنا ..؟ المصاب بقلب دائم اليقظة ، دائب اللهفة .. قلب فنان .. لا يكف
عن العشق لحظة .. لا يستطيع أن يحيا إلا في جو من الشوق والحنين ..
ولا يتنفس إلا هواء مشربا بالحب الجنوني المتلهف .. فهو يجد عنصر الحب ألزم
له من عنصر الأكسجين .. وإذا لم يجد من يهبى له الحب ، صنع له من الوهم
حبيا .

كيف كنت أستطيع وقتذاك أن أقنع نفسي بأنك لست جادة في حبي ؟ .
وأنت تسيرين إلى جوارى يدك في يدي ، نجوب الطرقات الخالية ، تعصف من
حولنا ريح الشتاء ، فأسألك أن نبحث عن مقر نأوى إليه خشية عليك من عصف
الريح ، فتنبئني وابتسامة الرضا تملو شفئك أن مقرك بجوارى يبعث في جسمك
الدفع ، وفي صدرك الهدوء ، وأنت ما دمت معي فأنت آمنة من كل شيء ،
قريرة بكل شيء ، وأنه ليس أحب إلى نفسك من أن تسيرى بجوارى حتى آخر
العمر .

كيف لا أندفع في حبك ، وقد كنت أتوهم البراءة والإخلاص في كل لفظة
لك ولحظة .. أمسك يديك وأنظر إلى عينيك فألمح فيهما أشعة طهر تجعلنى آنى
إلا أن أشبهك بالملائكة وأربأ بك أن أقارنك بغيرك من بنات حواء .
كيف لا أندفع في حبك ؟ وأنا أسمع همساتك في أذنى كأنها السحر تهتف بى

أنك حائرة .. فى أمرى وأمرى ، تتمنين أن تلقينى فى كل لحظة ولكنك تخشين على نفسك من كثرة اللقاء .. تخشين أن أملك وأهجرى ، وتحسين من مجرد الفكرة مرارة أليمة ولوعة قاتلة .

كيف كنت أستطيع بعد كل هذا ، إلا أن أندفع فى حبك ؟
لقد اندفعت فى حبك ، واندفعت أنت فى حبنى ، أو هكذا أوهمتى .. وبدأت القصة التى شاهدتها تتجسم فتصبح حقيقة ، وأعاننى الوهم ، والهو ، والمظهر الخداع على أن أجعل منك مخلوقة طاهرة نقية ، وأن أضعك فى مصاف الملائكة ، وأن أجعل منك ملهمنى ومبعث وحي .
لقد اندفعت فى حبك حتى خيل إلى أنى أوشك أن أصل إلى فترة الراحة أو « الأنترميزو » التى وصل إليها بطل القصة ، ولكنى رأيتك تنشين فجأة وتقلبين ظهر المبحن ، وتبدلين على حقيقتك ، زائفة نافهة .

رأيتك على حقيقتك دمية تعبت بها الأيدى .. حو لا قلبا لا يستقر لها قرار .. مخدوعة مغرورة .. خلوا من كل ما ظنته بك من جمال النفس ، وسمو الروح .. ليس بك إلا جمال القشور ، وفنة المظهر .. لا تبغين من دنياك إلا مزيدا من مديح ، ومزيدا من إطراء .

ولا أكتفك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد آلمنى وتحولك عنى قد فطر نفسى ، واكتشاف حقيقتك قد عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت صدك بصد مثله ، وجودك بالجمود والهجران ، وصممت على أن أقتلحك من قلبى اقتلاعا .
وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك ، أو أكاد ، حتى أضحيته بالنسبة إلى دمية كغيرك من الدمى .

لا أظننى آسف على لقاءك كثيرا ، فلقد خرجت من حبك متعادل الكفتين ، كفة المتعة وكفة الألم .. فبقدر ما أعطيتنى من متعة فى حبك ، حملتنى شقاء فى هجرى ، وألما فى التجلد على فراقك .

هل علمت لم كتبت إليك ؟
مجرد نكسة .. أو حنين ، استعنت بالكتابة على إطفاء حرقتهما . شفانا الله
منهما ، كما شفانا منك » . (....) .

* * *

وسقطت الرسالة من يد الفتاة ، وبدا عليها شرود شديد ، وترقرقت في عينيها
دمعتان .. سالتا في صمت على صفحة وجهها .
وبعد لحظة أمسكت بقلم وورقة وجلست تكتب :
عزيزى :

لقد أعانتك قدرتك على الكتابة على أن تفضى بكل ما فى صدرك .. وعلى أن
تستعين بالكتابة — كما تقول — على أن تطفئ حرقه فى نفسك .. ترى ماذا
أفعل .. وأنا لا أجيد الكتابة ؟ وبم أستعين على إطفاء حرقى وبرء جراحي ؟
كل شئء يستطيع المرء احتماله .. إلا أن يتهم ظلما فلا يملك رد التهمة .
سأكتب إليك .. فما أظننى أستطيع أن أحتمل مرارة التهمة . سأكتب إليك ..
فقط .. لأرد التهمة .. ولأقول لك إنى لست بدمية .

سأكتب إليك لأقول إنى أحبك .. وإنى لست خداعة ولا تافهة ولا برّاقة ،
وأن الضوء يشع من قلبى .. فلا ينفذ إلى سطحى ، وإنى أكبت حبى بين
الضلوع ، وإنى أتجلد وأنشد الصبر ، فلا أستطيع التجلد ولا الصبر ،
ولا أستطيع أن أنساك .

سأكتب إليك لأشكرك على نسيانى ، ولأقول لك إنى لست حُولا قلبا
لا يستقر لها قرار .. لأننى قد استقر لى قرار عندك .. فما أحبيت فى حياتى
سواك ، ولكن ما الفائدة فى أن أهبك فترة راحة ، كما وهبت بطلة القصة
حبيبها ؟

من يضمن لى أنى سأكون من قوة الإرادة بحيث أعيدك مرة أخرى إلى بيتك
وزوجتك وابنتك ؟ من يدرينى أنى سأستطيع قبول التضحية فأنزِع نفسى

منك ، وأفر من طريقك ، بعد أن أكون قد استوليت عليك ، واطمأنت إلى جانبك ؟

إني أستطيع المقاومة الآن ، وأستطيع التضحية بك من أجل بيتك وحياتك الهادئة .. ولكنني بعد ذلك قد لا أستطيع .. إني أعلم أنني دخيلة في حياتك ، وأن دورى أمامك ليس إلا دورا عابرا ، وأننى يجب أن أدفن حبي في صدرى .. وأناى نفسى عنك .

لقد كنت أستطيع أن أهلك فترة راحة ، ولكننى أخشى على نفسى منها .. أخشى أن تضعف مقاومتى فأودى بك من أجل نفسى .. أخشى أن أستمري المرعى .. وأستعذب المورد ، فلا أستطيع تركه ، والخلاص منه .

أنا ما تميت شيئا غير أن أبقى إلى جوارك حتى آخر العمر .. ما كنت خادعة فى قولى ولا خالبة ، ولكننى فضلت ألا أكون عبئا عليك .. ينقل كاهلك ، وينقض ظهرك .. فضلت أن أترك إلى جوارك المخلوقة التى سبقتنى إلى جوارك .. والتى لها عليك من الحق أكثر مما لى عليك .

إلى أحبك ، ولهذا رحمتك من حبي ومن نفسى .

هل علمت أنني لست بدمية ؟

سامحك الله ..!!

* * *

وطوت الفتاة الخطاب ووضعته فى الظرف .. ثم شرد بها الذهن . وبعد لحظة امتدت يدها إلى الخطاب فمزقته إربا وقذفت به من النافذة وهمست لنفسها .. ما الفائدة ؟ ما الفائدة فى أن أنكأ جرحه وأعيد نكسته ؟ يجب أن أساعده على الشفاء وعلى النسيان .. يجب ألا أرد التهمة .. فخير له ألا يرى فى .. أكثر من دمية !

حديث كرمة

وسكت الريح ، فهدأ الخفيف ، وساد الصمت
لحظة .. ثم عادت الريح تبعث بأوراق الكرمة برهة ..
وكأني بها تسألني قائلة : ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة ؟

ترى أين ولى السرور وذهب الغرام ؟
أما السرور فقد أقفر منه المكان . أما أغاني الغرام فقد أضحت أنات حزن
وزفرات شجن تبعثها الريح من أطلاله الزائلة ورسومه الحائلة .
قصدت الدار بعد طول نأى .. وساقنتي قدماى إلى ربوعها بعد طول
هجران .. ووجدت نفسى أندفع إليها برغبة لا تقاوم .. وبى حنين عجيب إلى
أن أوقظ الذكرى الهاجعة وأثير الشجن الكامن .
دفعت الباب الحديدى .. فأرسلت مفاصله صريرا كأنه الأنين .. ودلفت
إلى الحديقة الخربة المقفرة ، وقد بدت عليها وحشة القبور .. وخيم سكون مخيف
لا يشوبه إلا نعيق بوم .. أو نعيب غراب .. أو صوت نافذة تحركها الريح
فتحدث بها طرقات منتظمة خافتة .. كأنها دقات الزمن بين الرسوم الدارسة .
كانت الحديقة على ما بها من خراب ووحشة . ما زالت تحمل آثار عهد
باد .. وزمن ولّى وانقضى .. آثار لم تستطع كف الخراب أن تمتد إليها .. فبقيت
كما هى .. خضراء مورقة .. تهمس فى أذنى بقصة قديمة .. وتدفع فى رأسى
ذكرى خلعتها امحت .. وتلقانى بابتسامة قد تكون باهتة شاحبة .. ولكن فيها
لنفسى كثير عزاء .

تلك هى « التكمية » لشد ما هرمت وشاخت .. فتآكلت عروقها ..

وتهاوت قوائمها .. وانفصمت عراها .. وأخنى عليها الذى أخنى على لبد .
اقتربت من الكرمة .. وتحسست أوراقها المتدلية فى رفق وحنين .. وهبت الريح
فحركت الأوراق ومست إحداها وجهى وشفتى فكأنما تحمل إلى تحية
الغائب ! .

واستغرق فى المقام على مقعد خشبى .. طالما ضمنى والصاحب الغائب ..
عندما كنا فى مشرق الحياة ومطلع العمر .. وعندما كنا نعيش على المنى وننطم
بأحاديث الحب الوردى والغزل العطرى .

جلست ، وقد شرد فى الذهن ، وكأن ما انصرم من العمر لم ينصرم ..
وكان الزمن الذى ولئى ما ولئى وما ضاع . وكان كل شئ قد عاد إلى ما كان
عليه .. حتى الحبيب الغائب النأى ، وكأنه ما نأى وما غاب ! .

لقد حنت على الكرمة العجوز كما قد حنت من قبل .. وسرى النسيم بين
أوراقها فحمل إلى مسمعى حفيفا كأنه همس الشفاه .. إن الكرمة تذكرنى كما
أذكرها .. وإنها تستعيد لنفسها قصة غابرة .. وكأنى بها همس من خلال
الحفيف لتروى القصة قائلة :

إنى أعرفك أيها العائد بعد طول نأى .. أعرفك تماما رغم ما فعلت بك
الأيام .. أعرفك رغم تناقل خطاك .. ورغم ذهاب خفتك ومرحك .. أعرفك
رغم أنك لم تقبل على قافزا متوثبا .. ورغم أنك حتى الآن لم تمتط ظهري ولم
تتسلق قوائمى .. ولا قطعت أوراقى ، أو قطفت عناقيدى .

إنى لأذكر أول مرة أبصرتك فيها .. كان ذلك منذ زمن بعيد .. ومع ذلك
فإنى أذكره كأنما حدث بالأمس .. وكنت وقتذاك صبيبا عابثا لا هيا .. تقطن فى
الدار المجاورة ، وكان الوقت إبان الظهيرة .. والكل رقود فى مضاجعهم ..
والسكون سائد .. لا صوت ولا حركة .. حتى « عم فضل » البواب قد أوى
إلى حجرته الصغيرة بجوار الباب .. وفجأة أحسست بك تهبط على كأنك
شيطان صغير .. بعد أن تسلقت السور الكائن بين الدارين .. ثم قفزت منه

إلى .. ووقفت برهة تنصت في حذر وخوف لتأكد من أنه ليس هناك من يراك أو يحس بك. ووصل إليك شخير « عم فضل » فبعث الطمأنينة في نفسك ، وأخذت تسلسل فوق ممعنا في تمزيق أوراق في عجلة ولهفة حتى جمعت منها قدرا كبيرا عبأته في حجر جلبابك الأبيض .. ثم هممت بالقفز عائدا إلى السور عندما وصل إليك صوت يصرخ بك ضابطا إياك متلبسا بجريمة سرقة « ورق العنب » ونظرت إلى أسفل .. فوجدتها تنظر إليك بعينها الخضراوين .. وشعرها الذهبي .. وجسدها النحيل .. وقد بدت في عبوسها كأنها هرة غاضبة . وترددت برهة .. وتحيّرت فيما تفعل .. هل تقفز هاربا وتركها تصرخ كما تشاء دون أن تأبه لها ؟ ولكن العاقبة ستكون وخيمة .. فهي تبدو من نوع عنيد ، وستستمر في الصراخ حتى توقف الأهل فيفتضح أمرك .

هل تقذف إليها بالورق لتسكتها وتفوز من الغنيمة بالإياب ؟ خسارة .. هل تهبط إليها « وترنبا علقه » حتى لا تعود بعد ذلك إلى التدخل فيما لا يعينها ؟ لا .. إن هذا سيزيد من صياحها .. ويزيد من سوء المصير ووخامة العاقبة . إذا فليس هناك خير من أن تحاول الاحتيال عليها واكتساب صداقتها .

ولم يطل بينكما الحديث ، حتى أقنعتها في نهاية الأمر أنك ستحضر لها من « ورق التوت » ما يعادل « ورق العنب » الذي سرقته .. وسرّها الأمر ، واعتبرته صفقة رابحة .. إذ كانت في حاجة إلى ورق التوت لتطعم به « دود القز » الذي كان وقتذاك شغلها الشاغل .

ووفيت بوعدها لها ورأيتك تتسلق شجرة التوت في حديقتك فتملأ من أوراقها حجرك ، ثم تعود به لتسلمها إياه .

وهكذا نشأت بينك وبينها أول علاقة .. علاقة تجارية بمحة .. وعقدت بينك وبينها معاهدة صداقة تقضى بتبادل ورق العنب وورق التوت .. واستمر اللقاء بينكما كل ظهيرة .. في « عز القيلولة » .. لإجراء عملية التسليم والتسلم . وكانت لهفتك على أوراق تحيرني .. فماذا يمكن أن يفعل صبي مثلك بورق

العنب ؟. حتى سمعتها تسألك ذات يوم نفس السؤال الذى كان يحول بخاطرى .. ووضح لى الأمر عندما سمعتك تحيها بأنك تبيعه « لأم أحمد » الطباخة وتوفر عليها مشوار السوق .

وبدأت أحس نحو كما بعطف عجيب .. وبدأت تسلينى أحاديثكما البريئة .. ومناقشاتكما التافهة .. وسرّنى أن أجد التآلف بينكما يزداد ، وأن أرى عرى الصداقة والمحبة تتوثق فلا يضحي الأمر بينكما مجرد تبادل أوراق ومنافع . بل إنه أخذ يتطور حتى أضحي تبادل مشاعر وعواطف .. عواطف رقيقة طاهرة نقية .. تشع من القلوب المضيئة الصافية البيضاء التى لم تشبها شائبة تكلف أو خديعة أو رياء .. وبدأتما تتقاسمان عناقيدى حبة حبة .. كأنكما عصفورتان . وهكذا وجدت الحياة قد سرت منكما إلى .. وخيل لى أنكما قد أضحيتما قطعة منى .. وأنى لم أعد بالنسبة إليكما مجرد ورق عنب . بل أضحيتم وكرا جميلا أويكما كما تأوى فراخ الطير إلى أوكارها .

ولأول مرة أحسست بكره للخريف لأنه يجردنى أوراقى ويتركنى عارية لا أستطيع أن أهىء لكما المأوى والستر .. وخشيت أن أفقدكما ، وعجبت لنفسى كيف أطيق الحياة بدونكما وكيف استطعت أن أحتمل مللها وسأمها .. وكيف يمكن أن أقضى الشتاء الطويل دون أن تدفئنى أنفاسكما أو تسلينى أحاديثكما اللطيفة وهمساتكما الممتعة ؟ وحلّ الخريف .. فتساقطت عنى الأوراق .. ولكنكما لم تذهبا عنى .. ولم تهجرانى .. بل زادت بينكما هنيهات اللقاء وما حال بينكما وبينى قارس قر ولا عاصف ريح .

كيف يحس مثلكما بالقر .. وقلبيكما يشعان بالحرارة !؟

ومرّ الخريف ، ومرّ الشتاء .. وأنبئت التوتة أوراقها وأنبئت أوراقى .. ولكنكما لم تحاولا تبادل الأوراق .. فما كان لدى أحداكما فرصة فى أن يفكر فى غير صاحبه . وكان كل منكما يجد فى حديث الآخر أقصى متعته . ومرّ بعد ذلك شتاء .. وآخر .. وآخر .. ونضجتا ، ونضج حبكما .. وشاهدت منكما من

آيات الحب والوله ما لم تشهده البيد من قيس وليلى .. كنتما تضيئان جوائحي ..
وتشيعان النور والسحر فى أرجائى ، حتى لكأنى قد أضحيت وكر اللملائكة ..
كم تمنيت وقتذاك ، لو وقف الزمن فلم يتحرك ، أو لم تحولتما إلى شجرتين
متعانقتين نبتان بجوارى .. حتى لا يتفرق ثلاثنا .. وحتى لا تحل بنا نهاية ..
بل نضحى شيئا بلا نهاية .

ولكن النهاية حلت .. حلت فى ليلة سوداء غبراء قائمة حالكة .. عندما
أبصرتها تتقدم إلىّ فى خطوات متثاقلة .. وسيما الحزن عليها بادية ، وبعد
لحظات أقبلت أنت فاتخذت مجلسك بجوارها . ثم أنبأتك فى صوت باك أن أحد
أقربائها الموسرين قد خطبها من أيها .

وافترقتا ليلتذاك وفى قلبيكما لوعة ، واتفقتما على أن تتقدم أنت لخطبتها ، وأن
ترفض هى أن تتزوج سواك ..

ولم أركما بعد تلك الليلة .. إلا لحظة خاطفة .. لحظة وداع ، كنت أسمع فيها
بكاء القلوب ونواح الأفئدة .

ولم أدر ما حدث بعد ذلك . ولكنى فوجئت بعد بضعة أيام بأن أرى أهل
الدار على قدم وساق ، وأقيمت على البيت الأعلام والزينات ، وصدحت
الموسيقى ، وتعالّت الزغاريد ، وانتشرت الثريات فى الدار ، وانبعث
الأضواء .. فلم يعد هناك فى الدار إلا شيئان مظلومان .. قلبى وقلب
صاحبتك .

ووقع بصرى عليها فأدركت أن الكارثة توشك أن تحل وعرفت من ملاحظها
أنها على وشك أن تزف إلى الرجل الآخر ..

أحسست كأنى عصارى قد جفت ، وكأنما قد أمسكت بى يد قاسية شريرة
فاقتلعتنى من جذورى ، ولم تستطع الثريات التى وضعت فى أرجائى أن تضىء
شيئا من ظلمة قلبى .. أو وظلمة قلبها . ومنذ تلك الليلة .. والنكبات أخذت تحل
بالدار .

مات عائلها في اليوم التالي بالسكتة القلبية ، وانقلب العرس مأمًا . واستبدل أهل الدار بالزغاريد نواحا وصياحا .

ثم حدثت بضعة أشياء تافهة أوهمت الناس أن الدار مسكونة بالجن .. ففرّق أهلها وهجرها السكان ومرت السنون دون أن يقع بصرى إلا على « عم فضل » البواب ، وهي كما ترى قفر في قفر وخراب فوق خراب . وسكنت الريح ، فهدأ الخفيف وساد الصمت لحظة ، ثم عادت الريح تعبث بأوراق الكرمة برهة .. وكأني بها تسألني قائلة : ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة ؟ .

ووجدتني أجيب هامسا ..

— لقاء عابر أثار الذكرى ، وأيقظ الحنين .. كنا نزور بالأمس مريضا في إحدى المستشفيات أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة .. وجلسنا مع المريض فترة .. ثم التفت حولي باحثا عن ابنتي .. فوجدتها بين ذراعي إحدى الممرضات .. وقد احتضنتها في لفة مثيرة .. والتفت إلى الممرضة فوجدت في عينيها عبرات تترقق ، وبدا على سيماها أنها تغالب البكاء ثم مدت يدها فصافحتني وقالت : إن ابنتي تشبهني تماما .

وسألتني زوجتي بعد أن انصرفت الممرضة : هل تعرفها ؟ فهزرت رأسي وأجبت : أجل أعرفها .

آيتها الكرمة العجوز .. كيف لا أعرفها وقد كانت هي رفيقة الطفولة وحبوبة الصبا ؟ .. أصابها القدر فأفقدتها الزوج والثراء .. وأجبرها أن تعمل لكي تعيش .

هل عرفت .. ماذا أعادني إليك .. بعد طول غيبة ؟

ولم تجب الكرمة .. بل أجابني صوت حنون رقيق .. أجل ..

وتلفت خلفي .. فوجدتها .. هي ..

لا تظنوا سوءا .. فقد حلمنا برهة تحت الكرمة الحنون .. ثم افترقنا .. فلم أرها منذ ذلك الحين .

هذه الربوة

هذه الربوة كانت ملعبا لشبابينا وكانت مرتعا
 كم بنينا من حصاها أربعا واثنيينا فمحوها الأربعا
 وخططنا في نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى
 (شوقى)

كم بنينا الأربع وشيدنا القصور . وكم غرسنا فيها ورود الأمانى وزهور
 الآمال ، واثنيينا فمحوها الأربع وهدمنا القصور .. واثني الزمن فأودى بالأمانى .
 وأذبل الزهور .

خططنا فى الرمل .. فما وعى الرمل .. وهبت الريح فمحت ما خططنا ..
 وبع الرمال والرياح .. لقد أضاعت العهد .. وما أبقت على الود .. ترى ماذا
 فعلت ريح الزمن بما خط فى القلب ؟

لا أكتمك القول يا صاحبتى ، إن القلب شديد الشبه بالرمال ، وإن الأثر
 الجديد يمحو منهما الأثر القديم .. وإن كلا منهما سريع التغير والتبدل ، وإن هبة
 ريح تذهب بما حوى من رسوم وآثار وذكريات . فيصبح وكأنه صفحة منبسطة
 خالية ملساء .

لقد هبت ريح الزمن على رسوم القلب .. وبسطت عليها كف النسيان ..
 حتى بدا لى أن الرسوم قد أمحت .. وأن القلب قد خلا مما به .. وعاد أملس
 فارغا .. وخيل إلى أنى قد نسيت ما كان من أمرنا معا .. وأن غرامك .. كان
 غرام صيف . سريع الانقشاع .

هكذا خيلَ إلىّ يا صاحبتى .. حتى احتوانى مرة أخرى مرتعنا السابق ..

وملعبنا القديم .. ووجدتني مرة أخرى فوق الربوة الصخرية ، والرمال المنبسطة
في سیدی بشر .

يا للقلب العجيب الذى ظننته خلا .. ويا للرسوم التى آتحت .. لكأني
بالزمن ما مر بنا .. ولكأني بك تجلسين إلى جوارى وقد تلاصق جسدانا ..
وأخذنا نرقب الأمواج تتصارع مع صخور الشاطئ .. ويعلو منها الزبد ويتطاير
الرشاش . إلى لأذكر كيف رأيتك أول مرة .. وكنت أقضى الصيف حينذاك مع
أخى الذى كان يعمل بالإسكندرية . وكان يقيم معنا صديق عزيز .

كنا وقتذاك صحبة عجيبة ، حفزنا الشباب وجنونه إلى أن نغمض عين
السخط التى تبدى مساوئ الحياة .. فلم نعد ننظر إليها إلا بعين الرضا الكليلة
عن كل عيب .. التى لا تبصر من الحياة إلا الناحية البراقة المضيئة ..

كنا ثلاثة أقسمنا أن نأخذ من الدنيا أقصى ما نستطيع خلال أشهر الصيف ..
وأن نلقى عن كواهلنا كل عبء ، ونركل بأقدامنا كل هم .. وأن نضحك من
كل شيء .. فإذا لم نجد شيئا .. ضحكنا من لا شيء ..

كنا نأكل ونضحك .. وننام ونضحك .. ونستحم ونضحك ، ونغازل
ونضحك .. ونحب ونضحك .. ونضحك ونضحك حتى نحس أن عضلات
وجوهنا قد أنهكها الضحك ، فنضحك من أنفسنا .. كنا لا نفعل شيئا
إلا بالضحك .. حتى ليخيل إلي أن الأقدار لو أصابتنا بما ييكينا ، لبكينا
وضحكنا .

كنا نكسو نفوسنا حللا قشبية من الأوهام البهيجة الفرحة .. وكنا نعرف
كيف نعطيها ما تشتهي ، حتى ولو لم تهب لنا الأقدار ما تشتهي .. كنا نسمى
« الطعمية » كباب ، و« الفول » حمام .. ثم يسأل بعضنا : ماذا نتغدى
اليوم .. كباب ، والا حمام ؟

فيجب أحسنه:

— كباب .. وحمام .. حد واحد منها حاجة !!

فإذا ما انتهينا من الغداء صحننا طالين الحلو قائلين للخادم :
— هات الخوخ .

فبهز أحدنا رأسه ويقول :
— أنا حاحلى بتفاح .

وبعد برهة يحضر الخادم .. الخوخ والتفاح .. فعلا .. ولكنهما داخل
« برطمانى مرى » .. يتناول كل منا منها ملعقة .. « على الماشى » ونحن
مسرورون .

هكذا كنا .. وهكذا كانت الدنيا معنا .. نضحك منها فتضحك لنا ..
لا هم ولا حزن ولا أسى .

وحدث ذات صباح والشمس لم تشرق بعد أن أقبل على صاحبي يوقظني من
النوم ، ولم نتعود الاستيقاظ إلا والشمس قد ملأت الحجره ، فسألته عما به
فأجابني :

— قم .. سنجرّب حمام الصباح .. إنه مفيد جدا .. إن اليود موجود فى
الصباح بوفرة .. وكذلك الأشعة البنفسجية .

ونظرت إليه حائقا والنوم ملء عيني :

— يا أخى ابعد عني .. من قال لك إني أريد يود أو أشعة فوق البنفسجية ؟
ولكنه لم يتركنى ولم يغادر الدار إلى الشاطئ .. إلا ويدي فى يده . وكانت
الساعة حينذاك تبلغ السادسة والنصف .. ونسيم الصباح يهب فيملاً النفس
نشوة والجسد نشاطا ، وهبطنا نعدو على الرمال .. وقد بدا الشاطئ خاليا
إلا من بضعة أفراد تناثروا هنا وهناك .. ونظر إلى صاحبي متسائلا :

— ما رأيك ؟

— مدهش .. إلا من عيب واحد .

— ما هو ؟

— قلة الحرير .

— بالعكس .. هذا ليس عيبا .. فإن ذلك سيتيح لنا فرصة العوم والريضة .

— صدقت ..

وقفزنا إلى الماء .. كقنبلتين أو صاروخين .. وأخذنا نسبح بكل ما لدينا من قوة .. حتى وصلنا إلى الصخرة .. وشرعنا نتسلقها .

واختفى صاحبي خلف إحدى الصخور .. ثم سمعته فجأة يصفر بأصابعه صغيرا متصلا .. فعدوت إليه وأطلت برأسي من فوق الصخرة وسألته عما به فأجاب هامسا وهو يشير بأصبعه وراء إحدى الصخور . « حريم » .

وحمدا لله الذى لا ينسى عبده .. وبدأنا نتسلل إلى الصخرة التى حملت إلينا الريح من ورائها .. الأصوات النسائية الناعمة .

وفجأة وجدنا أنفسنا أمام فتاتين ، كانت إحداها أنت ؟

كيف وجدتك وقتذاك ؟ وكيف كان وقعك فى نفسى ؟

لكى تدركى كيف كان وقعك فى نفسى .. أخبرك أننى كنت — وما زلت — أرى للجمال نموذجاً واحداً .. وإننى كثيراً ما لقيت من الصحاب سخريه شديدة من أجل هذا رأى ، ومع ذلك فما حدث عنه قط .. وما زلت حتى الآن على استعداد لأن أعشق كل فتاة تنطبق عليها تلك الأوصاف .

كان نموذج الجمال فى نظرى هو الشعر الذهبى الذى يشع الضوء من منابته والذى يتهدل منسكبا كالذهب المنصهر .. والعينان الخضراوان المتألفتان كعيون الهرة .. والأنف الدقيق ، والشفقتان الجميلتان اللتان لم يلوثهما أحمر الشفاه بعد .. والجسد الرقيق الذى لا تبدو به ثنية ولا زائدة .

كان هذا هو ما أراه نموذجا للجمال .. وكان هذا أيضا هو أنت ! هل لى من حاجة إلى أن أخبرك كيف كان وقعك فى نفسى حينذاك ؟ .

وبدأنا المشاغبة .. مشاغبة صيبانية ابتدائية .. وأخذت وصاحبى فى

« التلقيح » عليكما وتبادل النكات « البايخة » التى نجحت فى أن تزيد وجهيكما عبوسا وتجهما ، وفى إرغامكما فى النهاية على ترك الصخرة والفرار من وجهينا . وقفزتما إلى الماء .. وسبحنا وراءكما فى شبه مطاردة .. حتى عدتما إلى الشاطئ ووقفتا تعبثان فى المياه .. وتوجهت إلى صاحبي أسأله إن كان قد آنا الخروج من الماء .

ومرة واحدة أحسست بكوم من عشب البحر يهبط على رأسى .. وتلفت حولى فلم أجد سواك وصاحبتك .. ووجدتكما تضحكان ، وسمعت صاحبتك تقسم لى أنها ليست هى .. وسمعتك تقولين فى ضحكة خجلى إنك آسفة لأنك لم تكونى تقصديننى .

وللمرة الثانية حمدت الله ، فقد كانت فرصة قل أن يجود البحر بمثلها .. ولم أجد طريقة لانتهازها خيرا من أن أمسك بكوم آخر من الأعشاب ثم أقذفك به ضاحكا كأن بيننا سابق مزاح .. أو كأنتى أصرّ على أنك كنت تقصديننى . وهكذا استطعت أن « أجر رجلك » .. أو من يدرى ربما كنت أنت التى استطعت أن تجرى رجلى .. فقد نشبت بيننا معركة تبادلنا فيها التقاذف بأعشاب البحر .. والتقاذف بالكلمات الناعمة .. والضحكات اللينة والعواطف الرقيقة .. ثم انتهت المعركة .. فإذا بالتعارف قد تم .. وإذا بنا قد أصبحنا صديقين .

ومنذ ذلك اليوم .. أضحيت أو من بضرورة اليود والأشعة فوق البنفسجية ، وأضحيت أو من كذلك بأنهما لا يتوفران إلا فى الصباح المبكر .. حيث تكونين أنت تسبحين فى البحر وتستلقين فى الشمس تتمتعين بأشعتها . وبدأ صاحبي يملّ الاستحمام المبكر .. ولكنى لم أمل .. بل أخذت آتى إلى البحر وحدى .. لأجذك أنت أيضا وحدك .. ولنستوى على أريكة الماء والرمال والصخر كأننا قد تملكنا الفضاء .. لا شريك لنا فيه . واندفعنا فى الحب بسرعة خاطفة .. جعلتني لا أشك فى أن كلا منا نصف

متمم لصاحبه .. وأتساءل كيف استطعنا العيش قبل أن نلتقى ، وأحس كأنما كنت تأتينا فاهتديت .. وضالاً فأويت .

كان الزمن يعدو بنا وقتذاك ، والساعات تمر كالدقائق .. أما الدقائق فما كنا نحس بها أو ندخلها في حساب الوقت .

. كنت دائماً أذهب فأجدك هناك .. كأنك جنية من جنيات البحر .. فنستلقى سوياً على الرمال .. نتناجى ونتهامس ، ونعبد في الرمال ، ونخطط فيها بيتنا المقبل .. ونرتب الحجرات . ونرسم التفاصيل والدقائق .. فلا نترك مكاناً لكرسى إلا بيناه .. شاعرين من ذلك بمتعة عجيبة .. ونشوة هائلة ، كأننا قد تزوجنا فعلاً ، وكأننا قد بنينا الأربع ، وأقمنا القصور .

ما أقدر الذهن على خلق المتع واللذات .. كانت متعنا وقتذاك قد خلت من كل شيء .. عدا مرييات الذهن وأوهامه .. وأمانيه وأحلامه .. كنا بارعين في تجسيدها .. وكنا لا نمل قط من الحديث فيها مهما طال الحديث .. سقى الله ذاك الزمن ورعاه .. فقد كان كريماً بأوقات النعيم .. كان الحصول على السعادة فيه لا يكلفنا أكثر من أن ينظر أحدنا في وجه صاحبه .. كنا نرقد على الرمل كأننا ملوك الرمل .. ونقفز في البحر كأننا سادة البحر .

ونسبح برفق ونحن ما زلنا نتناجى ونتحدث ، فقد كان الحديث لا ينتهى بيننا قط ، حتى نصل إلى الصخرة ، فأعاونك على تسلقها حتى نصل إلى قمته ، ثم نهبط إلى الجانب الآخر ونجلس على مقعدنا الصخري ، نرقب الأمواج الشائرة الفائرة ، الصارخة الغاضبة .. يعلو شفتيها الزبد ويتطاير الرذاذ .. لا ينتهى لها صراع مع الصخر ، فهما أبداً في هدير مستمر وثورة دائمة .

وهكذا مرت بنا الأيام حثيثات سراعاً .. لا نكاد نحس خلالها من دنيانا إلا حلاوة اللقاء ، ومتعة الصبابة ، حتى كان ذات صباح حضرت إلى الشاطئ فلم أجدك ، ومرت الدقائق وأنا أنتظر في قلق وضيق ، فما عودتنى أن تخلفى موعداً قط .

ولم تأت في ذلك اليوم .. ولا في اليوم الذي بعده ، وتملكني حزن شديد وخشيت أن تكون قد أملت بك علة أقعدتك عن الهجى .. إذ كانت غيبتك مفاجئة لم تنذرني بها ، وزاد من حزني أنني لا أستطيع زيارتك .. فما كنت أجسر على ذلك ، وصممت في نفسي إن لم تحضري في اليوم التالي فعلى أن أذهب إلى داركم وأخطبك من أيك ، فما كنت أستطيع أن أحتمل بعدك ، وأنا أعلم أنك تقاسين المرض .

على هذا عقدت النية .. ولكنك لم تعطني الفرصة ، فقد حضرت في اليوم التالي ، وأقبلت عليك أشد على يدك في شوق ولهفة وأسألك عما بك .. وأجبتني أنه قد ألم بك برد خفيف ، ولحت إذ ذاك في عينيك آثار سهد وفي وجهك شحوبا وذبولا .

وجلسنا برهة على الرمال ، وقد تملكنا الصمت وخيم علينا السكون ، وطلبت مني أن أستأجر « برسوار » نمتطيه في الماء ، لأنك لا تودين السباحة .. وهبطنا إلى الماء فوق « البر سوار » .. وكان البحر هادئا والأمواج تهرز القارب الخشبي هزات خفيفة ، وأخذت أدفعه إلى الداخل بالمجداف بين يدي .

ونظرت إليك فوجدت سحابة حزن مخيمة على وجهك ورأيتك تملئين صدرك بالهواء ثم ترسلينه زفيرا شديدا كأنك تخرجين من صدرك بعض آلامه .. وسألتك ما بك ، فتضاحكت وقلت لا شيء ، وبعد لحظة انقشعت عنك سحابة الحزن وعدت إلى طبيعتك المرححة الضاحكة .

وجاوزنا الصخرة مبتعدين عن الشاطئ إلى عرض البحر وكلما زاد بنا البعد عن الشاطئ زاد بك المرح والسعادة .. وطلبت مني أن أبعد أكثر وأكثر ، وقلت لي إنك تكرهين العودة إلى الشاطئ وتودين الهرب منه ، وتتمنين لو قضيت عمرك في عرض البحر .

يا لسخرية الزمن وهزاء الأقدار .. لقد حققت لك أمنيته المروعة .. التي بدت لي حين نطقت بها .. أنها هزل وعبث يستحيل تحقيقه .

لقد أمعنا في الدخول في عرض البحر ، وازدادت وطأة الموج .. وفي غمضة عين انقلب البرسوار ، وأخذ الموج يدفعه بعيدا عنا .. وأنا أحاول اللحاق به عبثا .. حتى أصابني اليأس .

وعدت إليك .. لأعود بك إلى الشاطئ .. فوجدت الوهن قد أصابك ، ووجدت وجهك قد زاد شحوبا .

وبدأت أصتارع الموج والقدر ، وأذهلني أن أسمعك تهمسين في أذني وأنا أحاول حملك إلى الشاطئ .. إنك لا تودين العودة .

أجل .. لقد كنت مصرّة على الهرب من الشاطئ .. وكان بك إلى الموت لهفة وحنين .

وانتهى الصراع .. بيني وبين ثلاثكما : أنت والموج .. والقدر .. بأن هزمت شرّ هزيمة .. فقد أنالك القدر والموج أمنيته . وأحسست أني أعبط وإنيك إلى جوف الماء .. وأفقت أخيرا لأتلفت حولي وأسأل عنك .. وأسمع أنني وحدي الذي نهجت .. فقد استطعت أنت الفرار .. من الشاطئ .. أو من الحياة .

وأغمضت عيني .. وأنا أحس بقلبي يتفتت في أضلعي .. وحاولت أن أوهم نفسي أن ما حدث لم يكن سوى كابوس مخيف وحلم مروع .. وتمنيت بأن أكون ما زلت في جوف البحر .. وأن يكون الصراع بيني وبين الموت لم ينته بعد .. وأن يترقب بي فيترك لي .. أو يأخذني معك .

ولكنني فتحت عيني مرة أخرى .. لأجد ما أنبت به حقيقة واقعة .. وأجد أن من العبث أن أخدع نفسي فأتناوم أو أتماوت .. وأنه لم يعد هناك شك في أنني عدت إلى الشاطئ من غيرك .. وأن الموت قد سخر مني وأذلني .. فأخذك مني أخذ عزيز مقتدر .

لقد تمنيت أن تمضي عمرك في عرض البحر .. وألا تعودى إلى الشاطئ أبدا .
لَمْ لم تشركني في أمنيته ما دام القدر الغصوم قد أبى إلا أن يحققها لك بمثل

(ميكي العشاق)

هذه السرعة ؟

لِمَ لم تشر كيني في مصيرك فغيب معا . أو نعود معا ؟
ومرّت بي الأيام بعد ذلك وأنا أحس بوحشة أليمة وفراغ مرير ، كأني فقدت
صنوا خلق معي .. أو كأني حطام بلا روح .

وفي ذات يوم التقيت ببعض ذويك فشكروني على محاولتي إنقاذك ..
وأنبأوني واللوعة ملء نفوسهم .. أنك مت « عروسا » فقد أرادوا أن « يكتبوا
كتابك » في نفس اليوم الذي غرقت فيه .. وتملكني دهش شديد .. وأحسست
من قولهم برجفة تسرى في جسدي .

أترى ذلك كان سبب رغبتك في الهرب من الشاطئ .. وتمنيك أن تقضي
عمرك في عرض البحر معي ؟

لم حملت كل العبء وحدك ؟ .. لِمَ لم تنبئني بما سهدك وأقض مضجعك ؟
فربما كنت أستطيع أن أفعل شيئا .. ؟ لم هربت وحدك .. أيتها الأنانية الهاربة ؟ .
إن السنين تمر .. ويخيل إليّ أن ريح النسيان قد محت ما بي .. كما محت ريح
الشاطئ ما خططناه بالرمال .. حتى تضمني الصخرة مرة أخرى .. فأجلس
وحيدا حيث تعودنا أن نجلس سويا .. فإذا بالشوق قد هاج .. وإذا بي أهتف
بالربوة .

ما لأحجارك صمًا كلما	هاج بي الشوق أبّت أن تسمعا
كلما جئت راجعت الصبا	فأبّت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة	وتهون الأرض إلا موضعا

فترجى شفتيك

قرّى شفتيك .. واتركيهما تستقران على شفتى ..
صامتين .. ساكتتين .. لا تعتذرى .. ما حاجتك إلى
الاعتذار .. وأنا لا أملك لك سوى الغفران .

منى النفس .. قرّى فاك من فمى ..
قرّى شفتيك .. فزادى فيهما وشرائى .

ما فمك .. وما شفّتك ؟ من أى نسيج نسجا ؟ ومن أية مادة صيغتا ؟ من
صانعهما ؟ ومن خالقهما ؟ أو خلقهما الذى خلقنا ؟ وصاغهما الذى صاغنا ؟
لا تتحدّثى .. ولن أتحدّث . هاتى شفتيك صامتتين ساكتتين لا أريد منهما
همس مناجاة .. ولا رنين قبل .. أريد هما مطبقتين مضمومتين .. تضغطان على
شفتى وتمسانهما فى لين ورفق لا همسة ولا كلمة ، إن صمتهما أملاً لنفسى من
أعذب الحديث وأجمل المناجاة .

قرّى شفتيك .. إلى أحس بهما سحرا خفيا .. إنهما تجذبان شفّتى .. كأن
بهما مغناطيسا لا يمكن مقاومته .

ما بهما ؟ .. إن عذوبة الكون ومتعة الحياة قد تجمعت فيهما . نشوة الخمر ..
وجمال الزهر .. وعبق الورد .. وحلاوة الشهد .. إنهما تطعمانى من جوع ..
وترويانى من ظمأ ..

إلى أحس من مسهما دفء الشمس فى يوم قرّ .. وهذوء المضجع فى ريح
صر .. وحلاوة المذاق فى عيش مر .

كم نبا إلى المضجع والتهب الفراش .. كم راقبت مطلقك بمقلة أذبلها السّهر

وأرقها الجوى .. كم أذبت النفس حسرة على هوى ضاع وحب ذوى .
كنت أعجب منك ! كيف هنت لديك فجزيتنى على الحب بغضا .. وعلى
المودة قطيعة .. كيف أضعت العهد وما أقمت على الود .. وكيف أصبح كل
شيء لديك ذا قيمة إلاى .

أيها الهاجرة . لا تفتحى شفتيك .. ما حاجتك إلى الاعتذار .. وأنا
لا أملك لك سوى الغفران ؟

لا تفتحى شفتيك .. إني سأعتذر عنك لنفسى .. فحرام على أن أكلفك
مشقة الاعتذار .. صمتا .. واتركى شفتيك تستقران على شفتى .. إن مسهما
خير شفيح لك وغافر لكل ما على الأرض من ذنوب ! ..

أنا لا أنسى كما نسيت .. أنا أكثر وفاء بالعهد وإقامة على الود .. أنا ما زلت
أذكر الهوى الغابر .. والحب القديم .. ما زلت أذكر لقاءنا أول مرة فى ذلك
الحفل الخيرى الساهر وقد تهاديت بين المدعوين تبعين لهم الورد .
ما زلت أذكر كيف تعلق بك بصرى .. فما تجوّل عنك لحظة ..
وما استطعت أن أبصر فى الحفل سواك .

وسعيت إلى التعرف بك وساعدنى الحظ عندما وجدتك تجلسين بعد أن
انتهيت من بيع الورد مع بعض الأصدقاء فقدمت عليهم وصافحتك مع من
صافحت .. وجلست قريبا منك .

وتم بيننا التعارف ليلئذ .. تحدثنا بضعة أحاديث عابرة تافهة .. ثم افترقنا فى
نهاية الحفل .. ولكن صورتك لم تفارق ذهنى منذ تلك الليلة لحظة واحدة .
وبدأ القدر يدبر لنا اللقاء تلو اللقاء .. حتى بت أو من أنى أساق إليك بإرادة
فوق إرادتى .. وأن عرى العلاقة بيننا توثقها يد خفية .

وإلا فخبرينى ما معنى أن أبقي على قيد الحياة خمسة وعشرين عاما أسعى فى
الأرض بعيدا عنك دون أن تتيح لى الظروف اللقاء بك مرة واحدة خلال تلك
المدة الطويلة .. فلا يكاد يحس أحدنا بالآخر ؟ .. ولا يكاد يبصر أحدنا للآخر

وجها، فكأن كلا منا بالنسبة لصاحبه غير كائن، فإذا ما لقيتك تلك الليلة .. بدأ اللقاء يتوالى بيننا .. فإذا بى ألقاك فى كل مكان أذهب إليه بمحض المصادفة وبغير قصد منك أو تدبير منى .. أدخل إلى «جرونى» فأصافدك خارجة .. حتى كأن القدر يحكم لحظة خروجك ودخولى .. أفكر فى الذهاب إلى «السينما» فيستقر بى رأيى على الذهاب إلى سينما مترو .. وأذهب إلى هناك فأجد التذاكر قد نفذت فأتوجه إلى سينما ديانا .. فأجد امرأ يحاول إرجاع تذكرته فأبتاعها منه وأدخل السينما فإذا بك تجلسين بجوارى .. لا .. لا هذا منتهى التدبير من الظروف الحكيمة . وهكذا أخذت المصادفات تسخر نفسها لجمعنا .. حتى وثقت بيننا الصلة .. ثم تركتنا ندبر أمرنا .. وكان آخر تدبير لها هو ذلك اللقاء الذى أحكمت نسج خيوطه فى بيت أحد أقاربنا .

التقيت بك هناك مع والدتك وأختك .. وعلمت أن هناك صداقة قوية بينكم وبين أقاربى .. وكنت وقتذاك حديث التخرج من كلية الطب .. وبدأت أتخصص فى الولادة وأمراض النساء .

وجرى الحديث بينى وبينكم سطوحيا عابرا .. حتى علمت والدتك بمهنتى فقالت ضاحكة :

— نحن فى حاجة إليك يا دكتور .

وعلمت من والدتك أن أختك الكبرى حامل .. وسألتنى أن أتولى العناية بها .. فأجبتها مرحبا .

وفارقتكم يومذاك على أن أزورك من آن لآخر .. لرعاية أختك حتى تحين الولادة .

وبدأت أزورك فى بيتكم .. زيارة طبيب فى ظاهره .. مريض فى باطنه .. بيده حقييته وبقلبه خفقة هوى ورجفة غرام .

كنت أسعى إليك محمومًا من فرط الشوق .. وكنت أجد فى تلك الهنيهات التى أخلو فيها بك فى الحديقة أو الشرفة دواء لعللة القلب ودواء الفؤاد .. وكنت

أصافحك فأستبقى كفك بين كفى .. وأنظر في عينيك صامتا .. فأحس براحة
كبرى ..

كانت مسة كفك .. ونظرة عينيك .. أشبه بمخدر يسرى في دمي .. كان
صفاء عينيك بعيد الغور .. وكنت أتخيل فيهما نوافذ للجنة أطل منهما على نعيم
دائم وسعادة سرمدية .

وأكثر من زيارتك إلى حد لا يقره عقل ولا منطق ؛ ومن أين آتى بالعقل
والمنطق ، وقد أضعت منى الصواب وأطشت العقل ؟ وكنت أزوركم يوما بعد
يوم .. ثم كل يوم .. متعللا برعاية أختك .. وكنت أدرك فيما بيني وبين نفسي
أنها حجة واهية ، وعذر مضحك .. فما كانت أختك في حال تستحق تلك
الزيارات المتكررة ، وما فكرت ذات مرة أن أزور مريضة غيرها بمثل ذلك
الإلحاح .

وبدأ بيننا التجاوب .. فتخاطبنا بضغط الأيدى .. ثم بحديث العيون .
وبهمس الشفاه .. وجرى التفاهم بيننا رويدا رويدا .. حتى وجدنا أنفسنا مرة
واحدة .. وقد أضحي لكل منا على الآخر حقوق وواجبات .. وبدأت
تسأليني إذا تأخرت يوما عن سبب تأخيري .. وأين كنت ؟ .. وبدأت أنا
أطلب منك ألا تفعل هذا .. وأن تفعل ذلك .

وهكذا تطور الأمر بالتدرج فإذا بي أتخذ منكم لا موضع الطبيب بل موضع
الخطيب .. وأضحى مفهوما في أسرتك أن بيني وبينك شبه خطبة .. ولم أعد
أجد غضاضة في زيارتي ، وبدأنا بنى معاقص الأمانى .. حتى جاء يوم انهارت
فيه القصور !

بدأ الأمر بجو من الجفاء حيرني كنهه .. فما كنت أذكر أنى قد أتيت
ما يستحق منكم الجفاء .. ولم أعد ألقاك في الدار إذا ما ذهبت لزيارتكم وإذا
لقتك فلقاء بلا خلوة وإذا خلوت بك فخلوة سريعة صامتة لا تفاهم فيها
ولا انسجام .

ولم تطل بى الحيرة حتى علمت بعد بضعة أيام أنك قد زفقت إلى أحد الوجهاء الأثرياء .

واضيعة الهوى ! لقد صادف منك تربة جذباء .. فأثبت لى المرارة وأخرج الشوك .. واضيعة الحب !! لقد عرضت فى سوقه الخاسرة نفسى وروحى وقلبى وكل ما بى .. فما جنيت منه سوى الخيبة والخذلان .

يا ويلتا !! لقد جزيت منك على الوفاء غدرا .. وعلى الحب هجرا .. وعلى المودة سوءا وشرأ .. لقد بذرت أملى منك فى مثل الهواء فما جنيت منه سوى العواصف الهوجاء والريج والأنواء .

لقد بعث هواى بحفنة من الذهب .. واستبدلت بسمو الروح والمشاعر ضعة المادة فى أرض ملؤها الشرور .

إنى أحبك يا هاجرة .. رغم هجرىك وغدرىك .. وشر ما فى الحب أن القلب المحب لا يستطيع أن يجاوب غدرا بغدر ولا سوءا بسوء .
إن الفؤاد يا هاجرة ليتفتت على المهجر .. فلا يزداد إلا ولعا . كالمرآة تترك صورة ثم تتفتت فتترك ألف صورة .

وانطويت على نفسى .. أشغلها عنك بتوافه الحياة واستعنت عليك بالذكرى أجترها فى باطنى لأغذى بها القلب الجائع والنفس المحرومة .. ومررت الزمن وأنا أعيش على الذكرى والأوهام .. فلا أنت واصلة .. ولا أنا سال .

ومرت الأيام وأنا لا أرى منك سوى شبح أطوف به ويطوف بى .
لقد كنت أعبرك رغم نأيك وهجرىك .. شيئا أساسيا فى حياتى .. ولم أشعر قط أننى فقدتك .. فما كان هناك من يستطيع أن يسلبنى إياك .. لقد فقدتك جسدا .. ولكنى لم أفقدك روحا .

قد تتساءلين ماذا يمكن أن آمل منك .. وقد تزوجت وأصبحت ملك إنسان آخر ؟ .. وقد تتساءلين لم لا أتعزى عنك بسواك والنساء كثيرات ؟
أنا نفسى لا أدرى .. ولكن الذى أستطيع أن أوكدّه هو أنى كنت دائما

أحس أنى لم أفقد منك الرجاء .. وأنت ما زلت لى .. وما استطاعت امرأة غيرك أن تعزىنى عنك أو تنسينى إياك .

قد يكون فى ذلك نوع من التعلق بالضائع والتشبث بالمفقود .. وقد يكون هناك وحى خفى يوحى إلى أنك لا بد عائدة .. أو قد يكون بك ما لا يمكن لغيرك أن يهبه لى .. قد يكون كل هذا سببا جعلنى أنتظرو آمل .. وجعلنى أعيش على ذكراك دون أن أياس من عودتك .. حتى فوجئت ذات يوم برؤيتك أمام ناظرى .. أنت نفسك لا طيف ولا شبح .

نظرت إليك فى دهش شديد .. وكأنى أنظر إلى ألف عام من الفرح .. والحزن .. والألم .. والبأس .. والفرج .. والضيق .. والراحة .. والعذاب .. تأملتك هنية .. فإذا بك كما أنت .. وإذا بقلبي يكاد يخر راکعا أمامك .

كدت أندفع فأحتويك بين ذراعى ، ولكنى كبحت جماح نفسى وحييتك فى شىء من الكلفة ، وسألتك فى أدب عما أستطيع أن أؤديه لك ؟ .

ومضت فترة صمت وأنت تحدقين فى الفراغ الذى بدا من خلال النافذة وقد شرد ذهنك وبدت على وجهك صفرة وفى عينيك ألم .. وقلت هامسة : إنك تريد أن أجرى لك عملية إجهاض .

وأخذت من قولك .. ورفعت حاجبى فى دهشة وتساؤل ولكنك لم تنظرى إلى .. بل تحركت إلى النافذة فلم أبصر سوى ظهرك .. وبدا لى كأنك تقضمين أظافرك .. وأنت فى أزمة نفسية شديدة ، وخيل إلى أن فى جسدك رجفة ، وأنتك تنتفضين كريشة فى مهب الريح ! .

وأحسست اضطرابا شديدا وتظاهرت بالتشاغل فى بعض أدواتى .. ووجدت الأسئلة تتزاحم فى رأسى .. والشك يساورنى ويعصف بى .. لم تريد أن الإجهاض ؟ . إن زوجك ثرى وهو فى سن يتلطف فيها على الولد ؟

وسألتك فى صوت خافت عن عدد شهور الحمل .. فأجبتنى .. وزادت دهشتى فإن المسألة لم تكن هينة .. بل إنها تحتاج إلى عملية خطيرة .. وما كنت

أحس من نفسى الجرأة على أن أجرى لك .. أنت .. أية عملية .. مهما خف خطرها .. إني أخاف عليك مس النسيم .. فكيف بقطع المبيض ؟
ومضت فترة وكلانا صامت .. وقلت لك متسائلا لعل أقنعك بعدم الإجهاض :

— ألا بد من الإجهاض ؟ .. إنها عملية خطيرة ؟ .
وأطرقت برأسك بحجية ، وما زال بصرك شاردا من النافذة .. وعدت أسأل :

— هل وافق زوجك على إجرائها ؟ .
— زوجى ؟ إنه لا يملك الموافقة أو الرفض ، لقد مات .
— مات !! .

— أجل .. بعد أن أفلس .. ومات أبى .. وأضحيت وحيدة فى الحياة .. إنى فى حاجة إلى أن أعمل .. ولكنى — بذلك العبء فى جوفى — لا أستطيع العمل ..
إن خير ما تفعل لى هو أن تخلصنى منه .. كيف أريه ؟ وكيف أحمل عبه وعبى .. لا أريد لى ابنا يتشقيه الحياة .. وتذيقه مرارتها .. خلصنى أرجوك .. افعل لى ذلك الجميل .. من أجل حينا القديم .
حينا القديم ! .. واقتربت منك .. واحتويت كفك بين كفى .. ونظرت إلى عينيك .. وقلت هامسا :

— إنى لا أجسر .. لا أستطيع .. كيف أجرؤ أن أمسك بمبيضى ؟ إن حينا القديم .. ما زال فى نفسى جديدا .. يقظا دائما ..
وأطرقت برأسك فى يأس .. وعدت أمس :

— علام اليأس ..؟ إنك لن تحمل عبه ولا عبك .. إنى أستطيع أن أحملها معا ، إن الولد لن يكون يتيما .. ولن تشقيه الحياة .. لأنى أستطيع أن أكون له خير أب .. إنى أحبك كما أحببتك دائما .. وأريدك الآن كما أردتك فى كل وقت .. إنى لم أنس كما نسيت أنت .

— ١٧٠ —

منى النفس .. قرّى فاك من فمى ..
قرّى شفتيك .. واتركيهما تستقران على شفتى .. صامتتين ساكنتين ..
لا تقولى : إنك أجبرت على الزواج .. وأن زوجك قد أنقذ أباك بأمواله ..
لا تعتذرى .. فما حاجتك إلى الاعتذار .. وأنا لا أملك لك سوى الغفران .

هل تذكرين؟

هل تذكرين بشط النيل مجلسنا
نشكو هوانا ونفنى في شكاوانا
تنساب في همسات الماء أنتنا
وتستثير شجون النهر نجوانا
« عزيز أباطة »

قلت لصاحبي وقد جلسنا على شاطئ النيل في ليلة صيف ، رقيقة النسمات ، لينة
الخفقات ، حلوة البسمات .. ليلة يستحق الرثاء فيها من لم يك عاشقا أو شاعرا
أو .. أو مجنونا .. قلت له غننا لحنا فما أحق هذا الليل الجميل يلحن جميل ..
وصمت صاحبي لحظة حتى انطلق يغنى « همسة حائرة » .. وأخذت
أصغى إليه .. وقد مسنى من سحر الماء والسماء والغناء ما جعلتنى أحس أننى لم
أعد آدميا .. بل شيئا أكثر من هذا .. ولست من دم ولحم بل من أحاسيس
ومشاعر .. تذوب وتحلل .. وتفنى في ذلك الجمال العجيب الذى غمرنى
وفاض في نفسى ..

وعلا صوت صاحبي يردد وسط السكون الشامل « هل تذكرين بشط النيل
مجلسنا ؟ » .. ثم وجدته قد توقف فجأة وحلق في وجهى وسألنى
مستضحكا :

— ألا يوحى إليك هذا القول بشيء ؟

وشرد بى الذهن وأجبت بصوت حالم :

— كيف لا يوحى إليّ ؟.. هذا الهوى على شاطئ النيل الذى أوحى إلى

الشاعر أن يقول شعره .. وللموسيقار أن يبدع لحنه .. وللرسام أن يرسم لوحته .. وللمثال أن يصنع مثاله .. كيف لا يوحى إلى بشيء؟ .. لقد أثار في كل منهم إحساسا واحدا أبرزه كل منهم على طريقته الخاصة .. وعبر عنه بلغته التي يستطيع التعبير بها ، إن الأصل واحد في نفس كل منهم .. وإن اختلفت الصور التي انعكس لنا بها .

— قل بم أوحى إليك ؟ وما الصورة التي انعكس بها في نفسك؟ حدثني يا صاح حدث !

واستغرقت في الصمت برهة طويلة كان صاحبي يدندن خلالها بصوت خافت .. ثم كف أخيرا عن الغناء وشمطنا سكون عميق .. إلى أن بدأت أحدثه قائلا :

— إني لأبصره على شاطئ النيل .. في ليلة حاملة كهذه الليلة .. وقد احتضن قيثارة وأغمض عينيه وبدأ مستغرقا في إغفاءة طويلة .. ليس به من علامات اليقظة إلا أصابعه التي تتحرك ببطء فوق أوتار القيثارة لتصدر نغما شجيا .. وإلا همسة حائرة تشدو بها شفتاه :

« هل تذكرين ؟ » ..

تذكر .. أو لا تذكر .. إنه يذكر كل شيء .. إنه ليذكر مجلسهما بشط النيل .. وبغير شط النيل .. إنه يذكر كل شيء له بها أوهى صلة أو أدنى علاقة .. إنه يذكر كيف أتى إلى القاهرة لأول مرة وب نفسه هفة إلى المدينة الواسعة وإلى ضجيجها وأنوارها .. وكيف هبط إليها فراعها الضجيج وأذهلته الأضواء ، وأحس بالحنين إلى بلدته الهادئة وتمنى لو استطاع أن يعود أدراجه .

تذكر حجرة « أم واسيلي » في أحد شوارع روض الفرج التي كان يسكن فيها مع طالبين من بلدته .. وتذكر مدرسة شبرا الثانوية ، وكيف كان يتحلق حوله الطلبة في « فسحة الظهر » يرجونه أن يغني لهم .. وما كان هو في حاجة إلى رجاء .. إذ لم يكن أحب إلى نفسه من الغناء .. ولو لم يغني لهم لغنى لنفسه كما

كان يفعل في كل لحظة من لحظات يقظته .
الموسيقى .. والغناء ..! لقد كان يحس وقتذاك أنهما له من ألزم الأشياء ..
بل إنهما ضروريان لحياته ضرورة الماء والهواء .
وتذكر كيف استطاع الحصول على قيثارة قديم .. فأصلح أوتاره . وبدأ يقع
في أحد أركان الحجرة محركا عليه أصابعه دون سابق معرفة .. وساءه ألا يستطيع
أن يجعله ينطق بما يجب .. ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت الأوتار تطيع
أنامله ، وحتى أحس أن بينه وبين القيثارة القديم ود .. وسابق معرفة .. وكأنهما
التقيا بعد طول فرقة .. وسرعان ما عرف كل منهما صاحبه .
وبدأ الفتى يصطحب قيثارته إلى كل مكان : إلى المدرسة ليغنى خلال
الفسح .. وإلى بيوت أصدقائه يطربهم لمناسبة ولغير مناسبة .. وفي الشوارع ليلا .
حيث يحلو له التجوال مع زملائه ..
وفي ذات يوم ذهب مع ثلة من أصدقائه إلى روض الفرج للنزهة في أحد
القوارب .. وبينما هم بالهبوط إلى القارب إذ أبصر فتاة مقبلة على الشاطئ ..
وسرت بينهما نظرة سريعة خاطفة .. ولكنها كانت كافية لأن تجعل الفتى يتسمر
في مكانه .
كانت الفتاة خمرة اللون ، حالكة الشعر .. وكانت عيناها السوداوان مبعث
السحر ، ومكمن الفتنة .
ومنذ ذلك الوقت لم تفارق صورتها ذهنه لحظة واحدة فقد عاد إلى الدار
ورأسه ممتلئ بها .. وفي اليوم التالي كان ينتظرها في نفس المكان وفي نفس
الموعد .. ومرت به عابرة في طريقها إلى « الكازينو » كما مرت بالأمس .
وعرف الفتى أنها تغنى في ذلك الملهى ، وتضاعف شغفه بها وازداد حنينه
إليها .. وتعود أن يقف خارج السور في كل ليلة ليصبرها من خلال فتحاته ،
وليشنف أذنيه بسماع صوتها عندما تعلى المسرح .
ولم يكن الفتى في قرارة نفسه براض عن طريقة غنائها .. ولكن صوتها كان

يطربه ويشجيه .. وكان يتمنى لو استطاع أن يحملها من المسرح فيفر بها إلى تلك الناحية من الشاطئ التي تعود أن يخلو فيها إلى نفسه .. فيغنى لها وتغنى له .

وفي ذات ليلة اتفق مع ثلة من أصحابه على دخول ذلك الملهى .. واقتحم الفتية المكان وهم يضحجون بالضحك وانتحوا ركنًا خاليا ، وقد غمرتهم موجة من السرور .. وأحس الفتى بنشوة من المكان ومن أضوائه ونسائه ، وهو الذى لم يسبق له أن ارتاد مثل هذه الأماكن .. وأخذ ينقب بعينه عن فتاته .

وطلب الفتية خمرًا .. ولم يكن الفتى قد تذوق طعمها قط ولكن الرفاق تضاحكوا منه ، فاعتراه الحجل وجرع كأسه كما يجرع المريض الدواء .

وازداد ضجيج الفتية وصخبهم .. لا من تأثير الخمر .. بل لجرد تخيلهم أنهم قد ثملوا .. أو لتنافسهم فى الظهور بمظهر الثمالي .

وخطر لأحدهم أن يطلب إلى الفتى أن يغنى .. لأن غناؤه خير بكثير من ذلك العبث الذى يروونه ويسمعونه على المسرح ، واستملح الرفاق الفكرة .. وصاحوا بالفتى يطلبون إليه الغناء وسرعان ما حملوه ووضعوه فوق إحدى المناضد وأصروا على أن يغنى !! .. وعلت حمرة الحجل وجهه وتولاه الارتباك .. ولكنه تبين من أصرار رفاقه أنه ليس من الغناء مناص .. فبدأ الغناء .

ودهش الناس فى أول الأمر .. واستنكروا ذلك العمل الأخرق من الفتية الطائشين ، وعلت بضعة أصوات من هنا وهناك تأمرهم بالسكوت وتهدهم بالطرد .. ولكن لم تمض فترة قصيرة .. حتى ساد المكان هدوء .. ووجد القوم أنفسهم ينصتون برغمهم إلى غناء الفتى .. وقد تملكهم الطرب .. وأخذوا يديرون وجوههم من خشبة المسرح إلى ذلك الركن الذى جلس فيه .

وانتهى من غنائه ونظر إليهم خجلًا مرتبكا .. فإذا به يلمح فتاته وقد جلست بجوار رجل بدين أشيب إلى منضدة فى أحد الأركان علتها زجاجات الخمر والكؤوس ، وبدا عليها كثير من الدهش وصوبت إليه نظرة ملؤها الإعجاب وكان بينهما سابق صداقة ، فأحس بنشوة عجيبة .. وغمره من الفرح

والسعادة .. فعاورد الغناء ..

رفعت الفتاة كأسها إلى شفتيها وأخذت تحتسيها ببطء وقد تعلق بصرها بالفتى ، وإلى جوارها جلس الرجل البدين وقد انهمك في ثرثرة لا تنتهى .. دون أن تحاول هى أن تفهم شيئا مما يقول .. كانت ترقب وجه الفتى يفيض بالحياة ويزخر بالمشاعر ، وقد تدلت خصلة من شعره الأسود على جبينه وبدأ به سحر يشدها إليه .. ووضع الرجل البدين يده على ذراعها فأحست بفرط ثقلها .. واقترب منها بوجهه فلفحتها أنفاسه الكريهة الساخنة .. ولحت وجهه المنتفخ المملوء بالمسام والتجاعيد فملأها بغض شديد له ... وأحست بنفسها تثور على هذه الحياة التى تضطرها إلى مجالسة هذه الحيوانات البغيضة .. المنتفخة الجيوب .. بينما تحنُّ إلى من تستطيع أن تهب له نفسها وتحن إلى ذراعين قويتين ووجه فتى تحس منه رغبة متدفقة وعاطفة فياضة فوارة .. فتى تشعر بجواره أنها منه وأنه منها .. فتى ما أشبهه بذلك الفتى الذى يعتلى المنضدة وقد التف حوله رفاقه وهو يكاد يفنى فى أغانيه الحلوة ، وألحانه الرائعة .

وعلا صوت الفتى يشدو بموال كأنما وضع كلماته وألحانه خصيصا لها .. ووصلت كلماته إلى أذنى الفتاة .. وقد صحبتها منه نظرات والهة لهفى .. فأحدثت فيها النغمات والكلمات والنظرات فعل السحر ، وأحست بنفسها تطير إلى عالم طالما حنت إليه .. لا تسمع فيه إلا شفاها تردد :

« يا ساكن القلب يا سالى بسحر العين

منين أجيب الدوا قول لى أجيبه منين »

وسرت بين الاثنين نظرة .. جمعت كل أحاديث الهوى والصبابة .. نظرة لا يفهمها إلى كل عاشق وله الحب قلبه .. وأضنى الجوى فؤاده .. ومنذ تلك اللحظة أحس كل منهما أنه لا غنى لأحدهما عن صاحبه .

وفى الليلة التالية عاد الفتى وحده فتسللت من الملهى حيث قادها إلى تلك البقعة من الشاطئ التى تعود أن يخلو فيها إلى نفسه .. هاربة من الضجيج

والأضواء وكؤوس الصهباء .. ومن ذلك الجو الملبد بغيوم الخداع والرياء .
 وجلسا متلاصقين على الشاطئ .. ونظر إلى عينيها السوداوين الصافيتين ..
 وقد أحاطت بهما ظلال الأهداب الطويلة السوداء .. وطلبت منه أن يحدثها عن
 نفسه .. فاندفع الفتى يتحدث ببساطة عن أحلامه وأمانيه .. وجلست ترقبه ..
 وتصغى إلى همساته .. وبدأ لها وجهه أشبه بوجه طفل صغير .. بتلك الخصلة
 المترامية على جبينه ، والتي كان يحاول رفعها بيده من آن لآخر .. ومدت يديها
 فاحتوت بينهما يده .. وأحسست برجفة تسرى في جسدها .

وعندما افترقا .. لم تبارح صورته رأسها .. بسماحته وصراحته وعينيهِ
 الرزينتين ونظراته الهادئة .. وكانت تحس أن حياتها لم تعد فارغة جوفاء .. بل
 تملؤها لهفتها عليه ، ورغبتها في أن تفنى نفسها فيه .

واستمر لقائهما على الشاطئ ، حتى كانت ذات ليلة وقد اضطجعت ،
 ورنّت بصرها إلى النجوم ، بينما جلس الفتى بجوارها وقد لف ذراعه حولها ،
 ورمى بقيثاره فوق العشب الأخضر ، وغمرهما سكون عميق ، وأحس الفتى
 أنه يهيم في فردوس من النعيم وكأنما يحيا بجسد على التراب ، وروح على هام
 السحاب ..

وقطع الصمت همسة من شفيتها تقول : « غن لى » ، ونظر إليها فلمع في
 عينيها بريقا ناعما وسحرا عجيبا .. وهمّ بأن يقول شيئا ، ولكن الكلمات لم
 تطاوعه . فأمسك القيثارة وبدأ الغناء « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا » ؟ .
 وأصغت الفتاة إليه ، وقد استلقت على الأرض ، ورنّت بعينيها إلى عينيهِ ، ثم
 أخذت في الاقتراب منه حتى أسندت رأسها إلى ساقه ، ومدت يدها فوضعتها
 برفق على ذراعه .

وانتهى من الغناء .. ووضع القيثارة جانبا .. فأحس بيدها الدافئة تتحسس
 صدره ، ثم تدفعه ببطء إلى الوراء حتى استلقى على الأرض ، وأخذ ينظر إليها
 وقد انحنت عليه وانساب شعرها الغزير متدفقا حول وجهها وأحس بأصابعها

تضغط برفق على كتفه ، ثم أخذت تحديق في عينيه برهة ، وقد لفتها الظلمة ، فلم يبد له منها إلا شبح وجهها ورأسها ، وقد بدت خلفها السماء الداكنة المرصعة بالنجوم .. ثم أطبقت على شفتيه في لهفة شديدة ، وشوق جارف .

وظل الفتى راقدا في شبه استكانة لضميتها الثائرة .. مضطرب النفس .. ولكنها ما لبثت أن رفعت جسدها في شيء من العنف لتدفن وجهها في الحشائش ، ثم انفجرت باكية .. واقترب منها ومسها بيده مترققا في شيء من الحياء .. وساد السكون برهة ، ثم قامت الفتاة عائدة أدراجها إلى الملهى . ثم التقيا بعد ذلك بضع مرات دون أن يحدث بينهما أكثر من الحديث والغناء .. فقد فشلت الفتاة في أن تثير في نفسه الرغبة التي تجعلها تفنى فيه ، والتي تشعرها أنها قد أضحت ملكا له .

ثم مرت بعد ذلك بضعة أيام دون أن يتمكن من لقائها ولم تعد تخرج إليه من الملهى كما تعودت أن تفعل .. وكان يعود إلى داره في كل مرة وقد عصف الشوق بنفسه .. وشعر بحنين شديد إلى حرارة شفيتها .. وإلى يدها تتحسس صدره وتضغط على كتفيه .

وأخيرا دخل الملهى ، وبحث عنها برهة فوجدها قد جلست إلى منضدة في ركن المكان .. وقد حف بها بضعة رجال يتقارعون الكؤوس .. وبدأت في وسطهم ، وقد أتملها الشراب .. فأحس بقلبه يخفق في صدره .. والاضطراب يتملكه .. ولكنه اندفع متجها إليها ، ونظرت إليه الفتاة ثم مالت برأسها إلى من جلسوا حولها ، وأسرت إليهم بضع كلمات انفجروا على أثرها ضاحكين . واقترب الفتى منها ، وقد تصاعد الدم حارا إلى وجهه .. فصاحت به الفتاة ضاحكة عابثة « غن لى أغنية الفتى الذى لا يعرف كيف يصنع بفتاته » وانطلق القوم من حوله يقهقهون .

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ، وأحس من كلماتها بطعنة أدمت قلبه ، فاستدار في صمت ، وغادر المكان .

سار في الطريق مطأطئ الهامة ، قد أثقل اليأس كاهله ، وأنقض الهم ظهره .. وبدأت له الأضواء والمارة من خلال دمع ترقرق في عينيه كأنها أشباح تتراقص ، أو كأنه في حلم مزعج ، أو كابوس مخيف ، ووصل إلى مكانه على الشاطئ ، وجلس على الحشائش ، ودفن وجهه في كفيه ، وعصفت به نوبة من البكاء . وأحس بعد برهة كأنما غسلت الدموع شيئا من هم نفسه وأحزان قلبه ، فنهض في تناقل عائدا إلى داره ، وقد أحس بالحنين إلى بلده . وتمنى لو استطاع أن يفر إليها .

وفي ساعة متأخرة من الليل .. بدأت أضواء الملهى تجبو وأخذ رواده ينصرفون عنه . وشوهدت الفتاة ، وقد جلست في ناحية مظلمة منه ، وقد شرد بها الذهن وبدأت في غمرة من التفكير .. لقد انقضت من رأسها سحب الخمر ، وبدأت تذكر كأنها تذكر حلما كيف سخرت من فتاها الحبيب وردته أمام الكلاب الضالة مخذولا محسورا .. وودت لو استطاعت أن تجثو أمامه باكية مستغفرة ، فتفرق بدموعها قدميه . لقد كانت تحس بأن كل جارحة فيها تحن إليه .. وإلى روحه الجميلة وقلبه النقي .. وإلى صراحته ونقاء سريرته . وعندما أغلق القوم الملهى افتقدوا الفتاة لكى تعود معهم فلم يجدوها .. ولو أمعنوا البصر في الظلمة لأبصروا شبحها يتسلل إلى الشاطئ .. حيث جلست منكشمة تنتظر ، وقد لفتها حلكة الليل .

لقد أحست في مكانها بشيء من العزاء ، وخيل لها أنه قد يعود إليها .. ولكن الساعات مرت وهي غارقة في حزنها ووحشتها حتى أصابها اليأس .. فعادت أدراجها تترنخ وقد أنهكها الشراب والتعب والسهر ، ولم تسر بضع خطوات حتى أقبلت في الظلمة عربة تسابق الريح . وقد أمل الشراب سائقها فدهم الفتاة وانطلق في سبيله .

وفي الليلة التالية أحس الفتى بقدميه تسوقانه إلى حيث تعود أن يجلس .. وهناك جلس على الشاطئ واحتضن قيثارة وبدا مستغرقا في إغفاءة طويلة ..

وتحركت أصابعه ببطء على الأوتار .. وشدت شفتاه بهمسة حائرة ..
« هل تذكرين بشرط النيل مجلسنا ؟ » إن المسكين لا يدري أنها قد ثوت
ببطن الأرض ، وأنها قد أضحت دفين قبر بقفرة .. وأنه سواء لديها الآن أن
تذكر .. أم لا تذكر .

ولكنه لم يكذب ينتهي من أغنيته الهامسة حتى أحس بشيء يلمس شفتيه لمسة
خفيفة كأنه جناح طائر .. وخیل إليه أنه يسمع همسة تحملها نسيمات الليل .
« يا حبيبى .. إني لأذكر .. وأذكر .. وأذكر » .
لقد كانت روحها تهيم حوله ، فأشجاها الحنين ، وأرسلت إجابتها مع الريح ،
فأدت الريح الرسالة .
وأحس الفتى بعد ذلك بالسكينة تملأ قلبه ، وبلوغته تخف ، وبجزنه يغيبض .

سلوا الربيع

... وأحسست كأن أغصان قلبي التى عصفت ريح
الخریف بأوراقها، قد عادت إليها الحياة، وملأتها المشاعر.
لقد ذهب عني الاتزان، وتلاشى العقل والحكمة ..
لا تسألوني عما فعلت، بل سلوا الربيع .. والهوى ..
والشباب ..

سلوا الربيع فهو المسؤول عن كل ما حدث .. وسلوا ساعة من العمر لم
ينسها القلب .. وموضعا من الأرض لم يهجره الفؤاد .
سلوا ذكريات طوتها السنون .. وحنينا أخمده الزمن .. سلوا أوراقا
جفت .. وأغصانا تجردت .. عصفت بها ريح الخريف .. وأودى بها قر
الشتاء .. سلوها كيف مسها الربيع فسرت فيها الروح .. وجاشت بالحياة ..
بسلوها .. وسلوا الربيع، فعندهما الخير اليقين .
كان الوقت قبيل الأصيل .. وقد انتهت من الطواف بمعرض الأزهار الذى
أقاموه فى حديقة الأورمان .. وخرجت من المعرض أجول فى الحديقة ..
وقادتنى قدماى من حيث لا أشعر إلى بقعة نائية .. وعلى مقعد تحت شجرة
ضخمة جلست وسبحت ببصرى فى الأفق البعيد .
وشرد بى الذهن جوًّا فى أرجاء الماضى .. ينقب فى ذكرياته الغابرة ..
وتذكرت جلسات كانت لنا فى سالف الزمن .. حيث كان الربيع ربيعين ..
ربيع الزمن .. وربيع الحياة .

كانت النسمات وقتذاك ترنما ، وحفيف الأشجار أنغاما .. كانت الأزهار تضيء الأرض كما تشرق البسمات في الوجوه الضاحكة .

وأغمضت عيني وبدأت أنشر من طوايا الماضي كتابا حافلا بالنعيم وتذكرت كيف لقيته أول مرة ، منذ سنين خلت ، وقد وقفت أمام مجموعة من أزهار « السنانير » تتأملها بإعجاب وسمعتها تقول :

— مدهشة .. أظن أن هذه المجموعة من أحسن ما بالمعرض !

وتلفت حولى فلم أجد أمام المجموعة سوى .. فلم أشك في أن الحديث موجه إلي .. فأجبتها في دعة ..

— إنها مدهشة فعلا .

وأخذت الفتاة عندما سمعت صوتي .. ونظرت حولها في دهش .. فأدركت أنها كانت توجه الكلام إلى صاحبة لها انتقلت أمام مجموعة أخرى دون أن تحس بها .

وانتقلت وإياها إلى مجموعة أخرى .. وجرى بيننا الحديث سهلا بسيطا .. حتى لقيت صاحبته .. وأخذت أطوف معهما أنحاء المعرض .. وأنا أشرح لهما شرح خبير كأنني أحد مراقبي المعرض .. حتى انتهينا من الطواف .. وافترقنا . وملكنى الإعجاب بالفتاة فقد وجدت في وجهها طفولة وبراءة وطهرا ، وفي جسدها نضجا وامتلاء واستواء .. وجدت فيها نموذجا للمخلوقة التي طالما تمنيتها .. ولست أدري كيف تركتها تنصرف دون أن أحاول معرفة شيء عنها .. اسمها أو عنوانها .. ولكنى في الواقع لإنسان خجول .. قليل الخبرة بالنساء .. ولولا أن الحديث جرى بيننا عن الأزهار .. ولولا أنني شديد الخبرة بكل شيء عنها لما استطعت أن أتحدث معها بكلمة واحدة .

وأصابني الندم يومئذ ، ولكن الأيام سرعان ما أنستني إياها .. حتى رأيته بعد ذلك تسير في شارع ٢٦ يوليو .

التقت أبصارنا ، ولم أشك من الابتسامة الخفيفة التي علت ثغرها أنها قد

عرفتني ، ولم أعرف وقتذاك ما أستطيع أن أفعل ، وسرت في طريقي برهة وأنا حائر متردد ، ثم استقر أمرى على أن أعود لأحدثها .. ولكن عندما أدبرت وجهي وحثت الخطى كانت قد اختفت .

وأنى القدر بعد ذلك إلا أن يدفع بها في طريقي مرة ثالثة فألفتها خارجة من إحدى دور السينما ومعها سيدة كبيرة — لعلها أمها — ثم لمحتهما يركبان سيارة فخمة .. واستطعت في تلك المرة أن أعلم عنها شيئا ، فقد عرفت رقم السيارة . ومضت بضعة أيام وأنا أشبه « بقلم مباحث » ، حتى استطعت أخيرا أن أعرف من تكون ؟ .. ومن أبوها ؟ وأين تسكن ؟

ولقد أحسست بشيء من الخيبة والخذلان .. وتملكني خوف من أن أكون مندفعاً وراء سراب ، فلقد كانت الفتاة ابنة ثرى ثرى معروف ليس من السهل الوصول إليه ، ولكنني قلت لنفسي : إننى شاب في مستهل الحياة .. وإن المستقبل أمامى زاهر متفتح .. وإنى قد أصبح في يوم من الأيام مثل أبيها ثروة وخيرا منه ، وما قيمة المال والمكانة التي يرثها المرء دون أن يكسب في الحصول عليها ؟

وهكذا أقنعت نفسي بقيمتي ومكانتي .. وبدأت أندفع في حب الفتاة ، وكادت المسألة تنتهي إلى لا شيء .. لولا أن القدر أبى إلا التدخل من أجل فوهب لي من بنات المصادفات ما قرَّب بيني وبين الفتاة ، وما جعلني أجزم أنه لا بد أن يكون لأحدنا دور في حياة الآخر .

وبدا لي من مرات اللقاء العابرة التي وهبتها لي الظروف أن الفتاة تعرفني جيدا . وأن مرآى يثير في نفسها شيئا من الاضطراب والارتباك .. قد يكون مبادئ حب !

واستبد لي داء الحب .. واستحكمت العلة .. وأنا إنسان خيالي ، مرهف الحس .. فبدأت ألتخذ من دارها كعبة أطوف حولها كل ليلة ، وكدت من فرط الوهم أسمع أنفاسها من وراء الجدر ، وأبصر وجهها المشرق وقد أغفى على

الوسادة .

كانت دارها — أو على الأصح قصرها — في المعادى ، وكنت أستشعر لذة كبرى في أن أتجه كل مساء إلى محطة باب اللوق .. فأستقل القطار وأجلس بجوار النافذة ، يلفح النسيم وجهي ، وقد شردت في البصر والذهن في أشباح الأشجار والدور والنخيل .. وفي آفاق الأحلام تتوالى بها صور لمستقبل ممتع سعيد .. صور لقاء .. وقبل ، وخطبة ، وزواج ، وحياة كلها رغد وهناء .

ويقف القطار في محطة المعادى ، فأهبط منه وقد ملأني الأمل وأفعم نفسي الرجا .. ثم تحتويني شوارع الضاحية ، ويضمنني سكونها وصمتها ، وتحملني قدماي إلى دار السعادة ، دار الحب والنعيم .

كنت أتطلع إلى النوافذ .. فلا أكاد ألمح بها شيئا يتحرك حتى أعرفني إذ ذاك هزة ، وأنتنفض « كعصفور بللّ القطر » .. ولقد يكون الشبح خادما أو رجلا ، ولكن ذلك لم يكن يغير في نفسي شيئا ، فلقد كنت أراها في كل ما أرى ، وأسمع صوتها في كل ما أسمع ، من همس النسيم ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ، وتغريد الطير .

وفي ذات مساء انتهيت من طوافي ، وعادني القطار إلى القاهرة ولم أكّد أهبط منه ، حتى لقيتها وجها لوجه .

كانت وحيدة ، وكانت رؤيتها مفاجأة شديدة الوقع على نفسي . فلقد كنت أتمخّلها منذ نصف ساعة جالسة وراء نافذة الدار ، ولم يكن يخطر ببالى أنى سأراها على قيد خطوات منى .

وتمالكت نفسي ، وحيتها ، فأجابت نحيتى بابتسامة رقيقة .. وشجعنتني على أن أتقدم لمصافحتها .. ووقفنا برهة نتحدث .

سألتني : « من أين ؟ » فأجبتها : « من المعادى » وعادت تسأل ضاحكة « وإلى أين ؟ » فأجبتها مرة ثانية « إلى المعادى » واستغرقت في الضحك وسألت في سخرية ودهاء :

— هل عنت « كمسارى » قطار ؟

وعلا صفير القطار ، وصعدت إليه ، وقفزت وراءها .
وللمرة الأولى فى تاريخ سكة الحديد .. يقطع القطار المسافة بين القاهرة
والمعادى فى بضعة ثوان أو فى غمضة عين فى لم أحس مرور الزمن ، وهكذا
الزمن دائما ، أسرع فى السراء من القطاة .. وأبطأ فى الضراء من السلحفاة .
وودعتها حتى باب الدار .. وعدت وأنا أحس أنى لا أسير على قدمى .. بل
أطير بأجنحة . وهل هناك سعادة تعادل سعادة عاشق قد استقر قلبه بعد طول
تخبط وهيمان ؟

والتقينا بعد ذلك بضعة مرات .. وكان لقاء خاطفا لم يسمح لنا إلا ببضع
كلمات . وأخيرا التقينا .. اللقاء الأكبر .. فى ساعة قد يهون العمر إلا إياها ،
وفى بقعة قد تهون الأرض سواها .. هذه البقعة التى أجلس فيها الآن على نفس
المقعد ، وتحت نفس الشجرة ، وفى نفس الساعة .. ساعة الأصيل .
الشباب وحده ساحر ، والحب وحده قوة ساحرة .. والربيع ساحر ..
وساعة الأصيل ملؤها السحر .

فكيف إذا اجتمع الشباب والحب والربيع فى ساعة أصيل !!؟
جلست وإياها وكأن موضعنا الجنة لا الأرض .. ووضعت كفها بين يدى
ونظر كل منا إلى الآخر . وتناجينا وتحدثنا عن كل شىء .. عن حينا وعن
مستقبلنا ، وعن زواجنا ، وعن بيتنا ، وعن أولادنا .. وبنينا من الأرواح قصورا
شامخات ، وزرعنا من الأحلام حدائق غناء .
وافترقنا أخيرا .. وقد اتفقنا على أن أتقدم لخطبتها .
وتقدمت وى من الأمل والحب وغرور الشباب .. ما ملأ نفسى ثقة ..
وأفعم قلبى اطمئنانا .

ولكنى أخفقت ! فقد رفض أبوها بأدب ولباقة ، معتذرا بأنها ما زالت
صغيرة وأنه لا يود أن يرتبط من الآن ، وأدركت أن قوله ليس سوى عذر ، وأن

السبب الحقيقى .. هو أن الثراء يطمع في الثراء ، والجاه يطمع في الجاه .
ولقد أصابتنى إذ ذاك صدمة .. ولكنى بقيت أتعلق بخيط من الأمل ، وهو أن
الفتاة ستثور على أهلها وأنها سترغمهم على قبولى وستستعمل حقها في اختيار
زوجها .

كنت واثقا من حبها .. واثقا من قدرة الحب على فعل المعجزات .. فقد
كنت أنا نفسى على استعداد لأن أفعل من أجلها المعجزات .. وأن آتى في سبيلها
« بما لم تستطعه الأوائل » .

كنت حسن الظن بالحياة وبالناس .. وكان يخيل لى أنه يكفى أن يتحاب
اثنان حتى يستطيعا التغلب على كل صعاب الحياة .

كنت أعتقد أنه لا يمكن أن يحول في الدنيا حائل بين قلبين متحابين .. وأن
من شدهما وثاق الهوى لا تقدر على تفريقهما قوة إلا الموت .

كنت موقنا أنها ستضرب برغبة أهلها عرض الحائط وأنها لن تسمح لأبيها بأن
يتحكم في مصيرها .. ويدمر صرح سعادتها .

ومرت الأيام وأنا حائر قلق .. أترجح بين اليأس والأمل .. وبين طيفى
الخوف والجاه .. أطوف بدارها في حلقة الليل فلا ألمح لها طيفا ولا أبصر لها
شبحا .. وأذهب إلى مكان اللقاء .. الذى تعودت أن ألقاها فيه .. علّ الحنين
الذى دفعنى إليه يكون قد ساقها إليه .. ولكنى لا أجد فيه إلا الوحشة
والفراغ .

وأخيرا ، وبعد طول انتظار ، وصلتني منها رسالة .. قطعت خيط الأمل
الذى كنت أتعلق به ، ودفعت لى إلى قرارة اليأس .

فقد قالت إنها علمت برفض أهلها لى .. وأنها قد ثارت على هذا الرفض
وأنبأتهم صراحة — رغم ما وجدته من غضاظة على نفسها — بما بيننا من حب ،
وأنها لا تقبل زوجا سوى .

وثار أبوها وبقية أهلها ، وهددوها بالطرد والحرمان ، وأصر أبوها على أن

تختار بينى وبينه .

ولقد فكرت طويلا قبل أن تختار .. ثم اختارت أباه . اختارته ، لا لأنها تحبه أكثر منى ، بل لأن حبه أبقي لها على الأيام ، وقالت إنها لا تجسر على أن تعصى لأبيها أمرا لأنها تعرف أنه يجيها وأنه عاقل متزن .. ولقد قال لها إن حبنا سيتطير بعد الزواج وأنها ستكون عبئا على بحياة الترف التى تعودت أن تحياها وإن زواجنا لن يكون فيه أى تكافؤ ، وإن على كل منا أن يحتمل الفرقه حتى ينسى الآخر .

وصدمنى قولها .. وتركتنى رسالتها صريعا أتخبط فى دياجير اليأس . كيف تقول هذا ؟ . وأين الحب .. وأين الوفاء بالعهد والإقامة على الود ؟ أهكذا هنت عليها .. وهان حبيبى .. حتى باتت تنظر إليه تلك النظرة المادية ؟ أيمثل هذه السهولة قد فرطت فى ، وأقنعت نفسها أنها لم تعد فى حاجة إلى ؟ أتبيعنى وحبى بحياة الترف والنعيم ؟

لقد تملكتنى وقتذاك ثورة جامحة عنيفة .. وأحسست بإيمانى يتبدد . ولم يكن جنون الحب واندفاع الشباب ليجعلنا فى أفهم معنى لهذا الكلام ، ولم أر منها سوى فتاة مادية لا تعرف معنى الحب وأن أباه رجل أناى أعماه المال . ومرت الأيام بعد ذلك ، وتوالت السنون ، وسار كل منا فى طريقه ، ودفنت حبيبى بين ضلوعى ، وبرئت من ذلك الجرح الذى سببته لى .. وضربت بيننا أيدى الزمن ، فلم يعد يبصر أحدا الآخر أو يسمع عنه إلا لماما ، وتزوجت أنا بفتاة من أقربائى ، وتزوجت هى رجلا من طبقتها الثرية الأرستقراطية . وأقبل على الزمن فوهب لى المال والمكانة .. أو على الأصح باعنى إياها بسنوات طويلة من الكفاح .. لم تبق منى باقية ، سوى جسد واهن ورأس اشتعل شيبا .

وماتت زوجتى بعد أن أنجبت لى ابنة وحيدة وهبت لها كل ما بنفسى من حب وحنان ، ولم يعد لى هم فى الحياة سوى إسعادها .

وسُتّ الابنة وترعرعت وأصبحت فتاة مكتملة ناضجة كأنها ثمرة حان قطفها ، ولم يكن هناك ما يشغلنى إلا أن أجد لها زوجا صالحا .

ما أشد ما يتغير الإنسان ويتطور تفكيره وتبدل نظراته إلى الحياة !! لقد ذهب عنى جنون الصبا .. وحق الشباب . وبت لا أسخر من شيء كسخرتى بالحب ، ولم أعد أعده إلا نوبات من الطيش تصيب الإنسان برهة ثم تذهب عنه ، وأنا يجب ألا تفكر فى مستقبلنا أو نقدم على عمل يتوقف عليه مصيرنا ونحن فى هذه النوبة .. نوبة الطيش ، أو ما يسمونه الغرام .

واستقر رأيى أخيرا على زوج لابنتى .. كان فى نظرى نموذجا للزوج ، فهو رجل فى مقتبل العمر لا يزيد على الخامسة والثلاثين ، عاقل رزين .. من عائلة طيبة وله مركز محترم ومستقبل باهر .

وعرضت أمره على ابنتى بعد أن طلب منى يدها .. فأنبأتنى أنها لا تريد الزواج . ولم أكن من الحق بحيث لا أدرك أن هناك إنسانا آخر يمنعها من قبول هذا الزوج المثالى .

أجل .. لقد أدركت أنها لا بد مصابة بتلك النوبة التى يسمونها بالحب .. وبدأت أستدرجها حتى عرفت حقيقة الأمر .. وعلمت أنها تحب فتى فى السنة النهائية فى الجامعة وأنها تنتظر حتى يتخرج فيتقدم لخطبتها .

ولم أثر عليها لأنى رجل هادئ عاقل .. وصممت على أن أصبر حتى أقنعها باللين والمنطق ، وأن أحولها رويدا رويدا لأن هذا هو الحب الطائش ، وهكذا بدأت أضع الخطط وأحكم التدابير حتى أوجهها إلى الرجل الذى أريده زوجا لها .

* * *

مرّ بذهنى كل ذلك وأنا جالس فى مقعدى وقد سبح بصرى فى الأفق البعيد .. أرقب الشمس الغاربة ، ونظرت إلى الساعة فوجدت أن ميعادى مع ابنتى قد أزف .. فقد دعانا الرجل الذى اخترته زوجها إلى تناول الشاي معه فى

جرونى وكان هذا ضمن تدبيرى .
ونفضت من مكافى وسرت بضع خطوات فوق بصرى على منظر كان آخر
ما أتوقعه .

لقد وجدت ابنتى ممتدة على الحشائش وإلى جوارها فتى حلو التقاطيع
جذاب الملامح .. وهما يتهاامسان كأجمل ما تهامس عاشقان ، والأزهار متفتحة
حولهما كأنها قد صنعت لهما عشا طبيعيا يحميها من عيون الرقباء .
وتذكرت الشباب .. والحب ، والريبع .. وتذكرت ساعة الأصيل ..
وتبدد من ذهنى الجمود الذى أصابه ، وأحسست كأن أغصان قلبى التى
عصف الخريف بأوراقها قد عادت إليها الحياة وملأتها المشاعر ..
لقد ذهب عنى الاتزان وتلاشى العقل وفقدت الحكمة .

لا تسألونى عما فعلت ، بل سلوا الربيع .. والهوى والشباب .
لقد أخذت الفتى والفتاة ودعوتهما إلى الشاى ، وضربت صفحا عن موعد
الزوج الآخر .

وبعد أيام جاء الفتى وأمه لخطبة ابنتى ، ولشد ما كان وقع المفاجأة على نفسى
عظيما ، فلقد كانت أم الفتى .. صاحبتى الأولى . مات زوجها ، وتبدد
الثراء ، وأصبحت من الطبقة المتوسطة ، كما كنت أنا فى سالف الزمن ، وسمعت
الأم تهمس فى أذنى .. ما الذى جعلك ترضى بابنى زوجا لابنتك مع الفارق
الذى بينهما ؟

فأجبتها مبتسما :
لأن أباهما أكرم من أبيك .

ليته ماعاد!

الحمد لله الذى جعل الموتى لا يعثرون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا قد عادوا ، فأفسدوا علينا حياتنا التى نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا حزننا عليهم .. وزيارتنا لمقابرهم ؟.

لست أدرى .. من أين أبدأ قصتها الزاخرة الحافلة .. تلك التى أحسست وهى تقص عليّ بأنى عثرت على صيد قصصى ثمين .. فهى ليست مجرد قصة .. بل مادة يستطيع الكاتب أن يفصل منها مائة قصة .. تكون هى فيها بمثابة القاسم المشترك الأعظم ، ويكون الطرف الآخر أولئك الرجال الذين ألقى بهم القدر فى محيط حياتها .

لن أحاول سرد تاريخها الحافل — كما قصته عليّ — فهو شيء يطول سرده ولكنى سأنتقى منها قصة أحدهم ، أحد أولئك الذين قاموا بدور البطولة فى قصصها المتعددة ، وقد يكون مبعث اختياري له دون غيره ، هى تلك الحرارة التى حدثتني بها عنه ، والحين الذى بدا لى منها إليه ، فهى تتحدث عنه مغمضة العينين ، حاملة اللهجة ، قد أرهف فيها الحس ، وهاجت منها المشاعر .

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أدعها تتحدث إليكم لتروى لكم قصتها ، أن أقدمها لكم كما أراها ، حتى أوفر عليها مشقة وصف نفسها ، وأريحها من عناء الغرور ، ومشقة التواضع .

هى امرأة من ذلك النوع من النساء الذى كانوا يسمونه فى عهد الإغريق : طبقة الرفيقات ، ولست أعنى بقولى هذا إهانة لها ، فقد تبدو هذه الطبقة فى

عهدنا هذا ، رغم وجودها فعلا ، طبقة غير معترف بها علانية ، ولا يشرف امرأة أن تعلن الانتساب إليها ، أما في عهد الإغريق فإننا نجد أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون نظاما طبيعيا من نظم الحياة الاجتماعية ، فقد كانت الحياة تنقسم إلى طبقتين : طبقة الزوجات الشرعية اللاتي تحجبهن جذران البيوت ، وطبقة الرفيقات اللاتي يتمتعن بقسط وافر من نعيم الحرية والحياة .

ولم تكن الرفيقات أو صاحبات (companions) — كما كن يسمين في ذلك العهد — بأقل مكانة لدى الإغريق من طبقة الزوجات ، ولا كان لا تنسابهن إلى طبقتهم حط من كرامتهن ، أو خفض لقدرهن ، أو تشويه لسمتهن ، بل — على النقيض — كن محل تقدير أهل العلم والأدب ، وموضع إعجاب الفنانين والشعراء ، إذ كن فوق جمالهن الفياض وأنوثتهن المتدفقة ، مثققات ، مهذبات ، ذكيات ، لبيبات ، محدثات ، لبقات ، واسعات الاطلاع ، حصلن على قسط وافر من التعليم ، ونهلن الكثير من موارد الشعر والأدب والموسيقى . وكان مقرهن وقتذاك مدينة كورنث ، مدينة الشعر والهوى ، والفن والجمال ، أو الكعبة التي يحج إليها الأثرياء ومشهورو الرجال كى يرفهوا عن أنفسهم ، ولم يكن في مرافقتهم للصاحبات انتقاص لقدرهم أو خيانة لزوجاتهم ، بل كان أمرا طبيعيا لا غبار عليه ، فقد كانت الزوجات حبيسات الدار ، واجبهن تهيئة بيت هادئ وإنتاج أبناء شرعيين .

هذه كلمة عابرة عن الرفيقات في عهد الإغريق ، وقد أبدوا في سردها خارجا عن موضوع القصة ، ولكنى أؤكد لكم أنى لست كذلك ، فما قصدت بها سوى أن أعطيكم صورة صحيحة للمرأة التي نحن بصدددها ، فاستغنيت بوصف الرفيقات عن وصفها ، فإن خير ما تصلح له — كما سبق القول — هو أن تكون رفيقة ، ولكيلا نهون من شأنها ، أو نبخسها حقها ، رفيقة من رفيقات الإغريق .

أول ما يمكن أن يقال عنها ، إنها امرأة بكل ما تعنيه كلمة — امرأة — جميلة

وجها وجسدا في بلد ندر فيه جمال الوجه والجسد ، بادية الطيبة .. تستطيع التحكم في مظهرها ، وفي مشاعرها ، رغم أن شيطان المرأة قد يغلبها على أمرها ، فيفقددها كل سلطان لها على نفسها وعلى مشاعرها ، فإذا بها ألغوبة في يده ، أو في يد غيره من الشياطين ، ولست أشك أن شيطان المرأة هذا الذي عجزت أن تكبح جماحه في نفسها هو الذي صنع منها ما هي عليه ، والذي ملأ تاريخها الحافل بالحوادث والمغامرات ، وأخرجها عن طريقها المعتدل السهل الذي تسلكه كل زوج وأم ، وأثارها عن الدار الهادئة ، فدفع بها إلى أن تركب الصعب في خضم الحياة ، فتتقاذفها الأنواء ، وتدفع بها بين القرارة والقمة ، وتذيقها الكثير من المرارة والكثير من المتع ، وتنهكها ، وتوهنها ما بين إرخاء وجذب ، وبسط وشد ، حتى تصل بها إلى حالة بادية الرضا والاستقرار ودرجة من الفوز قد يغبطها عليه غيرها ، وإن كنت أشك كثيرا في أنها تغبط نفسها عليه .

أقول إنى أكاد أجزم بأن شيطان المرأة هو الذي حاد بها عن الطريق السهل المعبد ، ودفع بها في هضاب الحياة ووهادها فهي كما قلت : من نوع الرفيقات المنطلقات في رحاب الحياة ، لا الزوجات المحجوبات وراء الجدر المثقلات بقيود الدار ، ولكنها أنكرت علىّ قولي ، وبرأت شيطان المرأة من كل ما بها ، وألقت العبء كله على الظروف السيئة والقدر الساخر ، أو كما قالت على أول « لا » ؟ دعونا نسمع إليها ، وقد قبع في ركن من الأريكة ، وثنت ركبتيها وساقها وانكمشت في « طرفها » الحريري وأخذت تنفث من شفيتها ، حلقات من الدخان المتكاثف ، وتقول في صوت الحالم :

— كانت أول « لا » هي السبب في كل ما حدث .

كنت أعطى كل ما أطلب ، وكنت أجاب إلى رغبتى .. حتى قبل أن أقول « أريد » .. كانت « لا » لا تعرف طريقها إلى شفاه من حولى ، بل كانوا لا يملكون لمطالبي ، إلا : نعم وحاضر .. حتى كان ذات يوم .. صدمتى

منهم « لا » فكانت القاضية .
كنت فتاة مدللة .. لا لمجرد أنى وحيدة أبوى .. بل لأننى الوحيدة من بين
بنيهما التى غفل عنها الموت فلم يشكلهما فى .. كنت الوحيدة التى أبقى عليها
القدر العنيد .. فكنت لديهما كل شىء ..
هكذا تعود أى أن يخضع لرغباتى التى لم تكن تتجاوز الرغبات الصبيانية
التافهة .. حتى إذا ما بدأت تلك الرغبات تتخذ مظهرا جديا ، يتوقف عليه
مستقبل حياتى ، روعنى منه قوله « لا » .
لست أدرى من كان المخطئ ومن الذى كان يجب أن يخضع لرغبة الآخر .. أنا
أم هو ؟ ولكنى أعتقد أنى حتى ولو كنت مخطئة فهو المسئول عن خطئى .. فقد
عودنى دائما أن يرضخ لرغبتى .
كنت ما زلت وقتذاك صبية .. عندما سمعت أنهم سيزوجوننى من ابن
عمى ، وكان أبى يرغب على حد قوله ، فى أن « يفرح بى » . ووقع اختياره على
ابن أخيه حتى يحتفظ بى فى الدار .. وحتى لا يسبب زواجى فرقة بيننا .. وكان
يجد كذلك أنه أحق بى وبماله من الغريب .. وأنه يستطيع أن يعاونه فى أعماله .
كانت هذه كلها مبررات للزواج من وجهة نظره .. أما أنا فلم أكن أجد
مبررا واحدا يدفعنى إلى الزواج .. لا حب ولا رغبة .. ولا حتى مجرد
استلطاف .. ووجدتنى ببساطة أقول لهم : إني لن أتزوج .
لقد أبيت الزواج .. وكنت أعتقد أن هذا يكفى جدا لكيلا يتم الزواج ..
فقد كانت تلك هى رغبتى .. ورغبتى دائما مجابة . إذا قلت لا أريد شيئا .. فلن
يعارضنى فى رفضى أحد .
قلت لن أتزوج ، فليل لى « لا » .. أبيت ، وبكيت ، وشكوت ..
وتمارضت .. فليل لى « لا » ستزوجينه وأنفك راغم .
ومرت بى الفترة التى سبقت الزواج ، وأنا أكافح وأناضل أشبه بمحمومة أو
مجنونة .. فلقد زادنى إصرارهم كرها فى الزواج ورغبة عنه ، حتى لقد حاولت

عدة مرات التخلص من الحياة ، ومع كل ذلك فقد تم الزواج ، اعتقادا منهم أننى لست سوى طفلة ، وأن رفضى مبعثه طيش زائل ، وأن الأيام كفيلة بأن ترد لى صوابى وتجعلنى أنعم بالزواج ، ومرت الأيام لا تحمل فى طياتها سوى العجز والفشل . ماذا تستطيع الأيام فعله ، إزاء هذا الجحيم الذى كنت أحس أنه يلهب أحشائى ؟ . وكيف يمكن أن أنعم بالزواج ، وأنا لا أرى فى زوجى سوى شيطان مريد ، لا أطيع منه مجرد اللمس ؟ .

كيف ترد الأيام صوابى ، وأنا ما ضمنى وإياه فراش الزوجية إلا وأصابنى قىء شديد .. من فرط بغضى له .. ونفورى منه ؟ . ماذا تستطيع الأيام أن تفعل إزاء هذا الكره المتغلغل فى نفسى .. لقد مضت لى وهى لا تحمل لى إلا المزيد من الملل والحزن والتبرم .. كل يوم يمر يزيدنى بغضا لزوجى ، ورغبة فى الانطلاق من إيساره ، حتى أصبحت لا أحتمل العبء ، وحتى لم يعد هناك مفر من أحد . أمرين : إما أن أظل أرزح تحته حتى يقضى عالى .. وإما أن ألقيه عن كاهلى .. وأنطلق من أقرب منفذ يلوح لى .

وتدخل القدر فأبدى لى المنفذ الأول ، أو المرفأ الأول أو سمه ما شئت ، فى صورة طبيب شاب يتولى علاجى من داء ألم لى .. ووجدت فيه رقة نفس .. وطيب خلق .. ولقيت منه حنوا شديدا ، وعظفا بالغا ، واهتماما يفوق كثيرا اهتمام الطبيب كمجرد طبيب .

وأحسست بنفسى تهدأ إلى جواره .. وهبطت حرارة الجسد .. واشتدت حرارة القلب .. وإذا لى أستبدل بحمى الجسد حمى الفؤاد .. وطال المرض .. وطال وجود الشرر بجوار الهشيم ولم يكن هناك مفر من أن تشتعل النيران .. نيران أكلة حامية وقودها الأفئدة المشتعلة ، والقلوب المستعرة .

وهكذا وقع المحذور ، وحدث ما لم يكن من حدوثه بد ، فما كان فى الإمكان إلا ما كان . مريضة النفس والجسد .. حبيسة دار هى والجحيم فى نظرها سواء ، أسيرة زوج ، أبغض أعدائها أحب إلى نفسها منه .. مقيت (مبكى العشاق)

كرهه .. البعد عنه — كما يقولون — غنيمة ، تلقى بها المقادير ، وهى فى حالتها تلك ، فى طريق طيب شاب رعوف رحيم .. مرهف الحس .. رقيق المشاعر .. متأجج العاطفة .. يلمس ما بها من علة وما أصابها من داء ، علة النفس وداء جسد ، ويحس ما هى فيه من شقاء وتعاسة ، ويرى فيها زهرة جميلة تذبل وتذوى .. وتكاد تتساقط أوراقها ، وتسير فى طريقها إلى الفناء .. فيحاول إبراءها من علتها .. وشفاءها من دائها .

أيمكن أن يلتقى بها القدر إلى مصير غير الحب ؟ .
لا تلمنى .. فما أظن هناك مخلوقة مهما قويت إرادتها ، واشتدت مقاومتها ، تمر بهذه التجربة ، إلا وتندفع إلى هذا المصير .
لا تلمنى ، ولا تلمه ، ولا تلم الشيطان ، ولا النفس الأمارة بالسوء .. فقد كنت أشبه بالسفينة الضالة ، طال بها عصف النوء . فلما لاح لها أول مرفأ .. ألقى بنفسها بين أحضانها .

وهكذا اندفعت وإياه فى هوى عنيف .. وحب جارف .. لا قبل لأحدنا بمقاومته .. وعلام المقاومة ؟ ولماذا ؟
إن الإنسان فى هذه الدنيا يحاول أن يقاوم مثل هذه الاندفاعات .. أو النزوات ، خشية أن تفسد عليه حياته .. ورغبة منه فى ألا يستبدل متعة طارئة بهدوء مقيم ، وحياة هائجة مستقرة .

أما أنا .. فما فائدة المقاومة ؟
ماذا يمكن أن تخشى مثل على حياتها المظلمة الفارغة ؟ .. ماذا يمكن أن يفسدها أكثر مما هى ؟ .

لقد أقبلت على المتعة الطارئة ، بنهم الجائع المحروم ، الذى لم يذق فى حياته متعة قط وأخذت أجرع منها كصيد أوشك أن يهلك ظمأ .
ويبدو لى أننى فى اندفاعى هذا لم أعبأ كثيراً بالتستر ، ولكن هبنى قد حاولت التستر ! .. أمثل هذه الأشياء يمكن سترها ؟ .

لا أظن .. فإن هذا النوع من الحب .. يثير وراءنا عاصفة من الغبار من العبت أن نحاول لإخفاءها بل إنها قد تخفيها قبل أن نخفيها .
وبدأت الألسن تلوك حديثنا ؛ ونحن في بلد يتغذى الناس فيه بالطعام وبسيرة الناس ، فهي تكون عنصرا هاما في وجودهم ، ففي هتك الستور ونبش الفضائح حياة لهم ومتعة .
وهكذا شاع الأمر ، ووجدته بدأ يتطور تطورا خطيرا ، ويكاد ينتهي بكارثة كبرى .. وإذا بالحب الذى نشدت فيه عزاء عن حياة بغیضة وزواج مقیت ، قد أصبح مبعث شقاء ومورد خوف وقلق ، ووجدت نفسى أوشك أن أدمر حياة من أنقذ حياى .

ووجدت العباء قد زاد ثقلا ، وأحسست بالحياة لم تعد تطاق . وفى ذات ليلة استقرى الرأى على أن أركل بقدمى ما مضى من حياى وأن ألقى عبئها عن كاهلى ، وأن أنطلق فى الحياة هاربة منهم جميعا .

هكذا غادرت الدار .. لا أملك فى جيبى إلا دراهم معدودات ودون أن يعلم أحد من أمرى شيئا ، سوى مخلوقة واحدة . كانت أوبر الناس بى وأشد هم حديبا على .. مخلوقة لم يتنكر لى قلبها مرة واحدة ، فكانت تمنح على خطئة أو مصيبة ، مذنب أم بريئة ، ما رأيت لى قط هنات ولا سيئات بل كانت ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى فى الحلقة الموحشة .. تلك أُمى .

انطلقت فى الحياة ، لا أحمل سوى بضعة جنينيات .. وبضع دعوات طيبات .. هاربة من الدار التى لم أفارقها يوما واحدا .. هاربة من مرتع الصبا وملعب الطفولة ، هاربة من الماضى بقسوته ومرارته ومتعه ولذاته .. هاربة من كل من كان لى به أدنى علاقة .. علاقة حب أو بغض ، أو عطف أو حنان ، هاربة من : الزوج ، والأب والأبناء ، والحبيب .. هاربة منهم جميعا .

وصمتت محدثتى برهة .. ألفت خلالها بعقب السيجارة من يدها ومدت ساقها لترجيحها من عناء الثنى .. وضمت أطراف الروب حول جسدها ، وأزاحت شعرها المتهدل عن وجهها ، وأطلقت من صدرها نفسا طويلا .. ثم عاودت الحديث .

ويبدو لى أن من الخير أن اقتضب حديثها بعد ذاك فإنى — كما سبق القول — لا أريد أن أسرد تاريخها الحافل ، وهو شيء يطول سرده ، وليس من السهل وضعه فى بضع صفحات .. ولأنى كذلك لا أريد رسم الظلال والتفاصيل التى قد تلقى الضوء على شخصيتها .. حتى أجنب نفسى ما لا قبل لها به ، والمسألة كلها — بعد كل هذا — لا تعدو أن تكون قصة .

وعلى ذلك فلنمر على حديثها مرًا سريعًا حتى نصل إلى القصة التى تعيننا منها لنسمع لها مرة أخرى .

انطلقت صاحبتنا فى خضم الحياة .. تتقاذفها الأنواء ، وطفًا بها الدكاء والجمال والحظ الحسن .. فى محيط تلك هى خير عدته وأمضى أسلحته ، وصادفها النجاح فلم تغرق ، بل ظهرت وبرزت ، وقفزت ، وأصبحت تتمتع بالكثير مما تتشوّف إليه النساء : الكثير من الشهرة .. والكثير من المال .. والكثير من قلوب الرجال .

وكان أول قلب صادفها قلب كهل ثرى .. مفطر الثراء أغدق عليها الكثير ووهبت له الكثير .. وخرجت من الفندق الكبير بعد أن احتوتها وإياه الغرفة الفخمة وهى — على حد قولها — تتحفز وتتحدى ، وتتخيل أن كل إنسان يشير إليها ليتهمها بما فعلته وتظهرهى إلى الناس متحدية ، وهى تكاد تقول أجل .. لقد فعلت هذا . ماذا تريدون منى ؟ سأفعل كل ما أريد . لقد كانت تتحدى الناس ، وتتحدى الحياة ، وتتحدى ..

هل تقول الشرف أيضا ؟ لا .. لا داعى .. هذا شيء يتوارى سريعًا فى مثل هذه الظروف ، فلا نكاد نجد له أثرا .

ومرت عليها القلوب بعد ذلك ، بعد أن اختفى القلب الأول من محيط حياتها ، قلب ثان ، وثالث ، ورابع ، ولا أظن هناك ضرورة لذكر شيء عنهم أولا لأنى أريدهم فى قصص أخرى ؛ وأخيرا لأنى — كما سبق القول — لا أريد أن أكثر من الظلال والتفاصيل .

لقد مرّت عليها القلوب الواحد تلو الآخر .. قلوب محملة بالحب وبما هو أجدى وأنفع من الحب حتى كان ذات يوم ، مرّ عليها قلب صاحبنا ، وصاحب القصة .

عذار .. لقد أطلنا وقوفه بباب القصة .
كل هذه الصفحات ولم ندخله بعد .. لندعه يتفضل ، ولندعها تتحدث عنه ، حاملة النظرات ، ملء صوتها الحنين ، وملء عينها اللهفة والشوق .

* * *

رأيت أول مرة فى خلال الحرب فى ليلة من ليالى الشتاء ضابطا إنجليزيا برتبة (ماجور) وقد جلس فى شبرد .. أمام مائدة رص عليها الساقى صحاف العشاء .

وجلست أرقبه وقد علق ذراعه — التى أحاطتها اللفائف — فى عنقه وأخذ يتناول الطعام باليد الأخرى .. حتى لم يبق أمامه سوى شريحة اللحم .. ونظر إليها فى حيرة دون أن يدري كيف يقطعها ليأكلها ، وهو بيد واحدة لا يستطيع أن يمسك بالشوكة والسكين ، وبدت لى فى نظراته حسرة وهو يدفعها جانبا ويلقى بالشوكة من يده .

ولست أدرى مبعث هذه الشفقة ، التى أحسست بها نحوه ، لأنه حقا كان يستحق العطف ، وهو يجلس أمامى كطير غريب مهيب الجناح .. أم تراها نوبة من نوبات الرقة التى تصيب الإنسان أحيانا فترهف حسه ، وترقق مشاعره ، وتتركه عطوفا على الناس محبا لهم يوزع الحنان ذات اليمين وذات اليسار ؟ أم تراه القدر الذى يدفعنا إلى أن نأتى بأفعال تافهة ، قد لا يخطر فعلها ببالنا ، ومع ذلك

فنحن نقدم عليها لا لشيء إلا لتغير مجرى حياتنا !؟ أم تراه الحب الخفى الكامن الذى يحس به الإنسان — كما يقولون — من أول نظرة ؟

على أية حال ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، لقد أحسست دافعا لا يقاوم .. يدفعنى إلى التقدم إليه ، فأجلس بجواره وأتناول الشوكة والسكين ، وأسأله فى خجل أن يسمح لى بأن أعاونه على تقطيع شريحة اللحم مادام لا يستطيع تقطيعها . وبهت الرجل ، ولست أشك أنى أنا نفسى لو فكرت فيما أقدمت عليه لبهت ، بل لأحجمت قطعاً عن الإقدام عليه .. وخاصة وأنى كنت أربأ بنفسى أن تهون حتى تأتى بما لم تكن تقدم عليه وقتذاك سوى « أرستات الحرب » من مجالسة الضباط الأجانب وتصيدهن .

ولكنى فعلت ما فعلته .. بلا أقل تفكير ولا روية .. ووجدت نفسى قد انتهيت من إعداد قطعة اللحم .. وأخذت أرقبه وهو يتناولها ، كما يرقب الإنسان قطا جريحا يتناول الطعام من يديه .

وانتهى من الطعام ونظر إلى نظرة ملؤها الحمد .. وقال لى باسم « شكرا » . ولم يكن هناك بد بعد ذلك من تبادل الحديث ، حديث عام عن الجو والحرب ، وبعد برهة نهضت للانصراف ، ومددت له يدى مودعة ، وتولاه الدهش لمحاولتى الانصراف دهش لا يقل عن دهشه عندما أقبلت عليه وجلست بجواره فما كان يظن أن المسألة يمكن ألا تعدو مجرد مساعدة منى لإطعامه « بلا مقابل » .. وأن عطفى عليه ليس من باب إلقاء الشراك ونصب الأحاييل ، وما كان يتصور قط أننى سأنصرف عنه بنفس الطريقة التى أقبلت عليه بها .

ورجائى أن أنتظر معه وألا أتركه سريعا ، فمن حقه على أن يرد الجميل ، وأنبأنى أن مغادرتى إياه كأنه عابر سبيل ستؤلمه كثيرا .. وأن أقل ما يمكن فعله هو أن أتبع له فرصة لقاء أخرى ، وألا أذهب عنه هكذا بلا أمل فى صداقة ، أو وعد بلقاء .

وقلت له إننى لست من النوع الذى قد يخطر بباله ، وإن محاولتى إطعامه لم تكن سوى دفعة عطف .. وإن من العبث أن ننشئ بيننا أية رابطة . وإن من الخير له ألا يأمل فى شيء أكثر من هذا اللقاء العابر .
وهكذا حاولت جهدى أن أصدّه ، وأوقف كل ما بيننا عند هذا الحد ، ولكنه ألحّ .. وألحّ .. ورفض أن يتركنى أنصرف دون أن أعطيه رقم تليفونى ، وأعطيته الرقم .

وقد يخطر ببالك .. بعدما قلت عن محاولتى صدّه ، أنى أعطيته رقماً غير صحيح ، ما دمت حقاً لا أريد أن أنشئ بينى وبينه أية علاقة .. ولكنى مع ذلك أعطيته الرقم الحقيقى لأننى رغم كل ما قلت .. كنت أحس بدافع يدفعنى إلى أن ألقاه مرة أخرى . وكنت أكره أن يختفى عن عيني فلا أراه بعد ذلك .. أهو الحب ؟ .. أم القدر ؟ .. أم الشيطان ؟ .. أم ثلاثهما معا ؟ .. من يدرى !
والتقينا بعد ذاك مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. وأحسست أنى أندفع بمجنون إلى هاوية حب عجيب ، حب إباحى منطلق من كل قيد لقد أحب كل منا الآخر حبا جنونيا خاطفا . وكنت حرّة ، وكان حرّاً ، فانطلقنا نعب من كل المتع ، لا يقف فى سبيلنا عقبة تقاليد ، أو خشية عواقب .

كنت أشعر لأول مرة أنى محبة محبوبه ، وأنى أستطيع أن أمتنع بحبى على ملأ من الناس فى وضوح النهار ، وأنى أعيش لساعتى ولحاضرى ، لا أعبأ بماض ولا مستقبل . أجنى ثمار اليوم مغمضة عيني عن مرارة الأمس وأشواك الغد .
أية سعادة يمكن أن يحسها الإنسان أكثر من هذه ؟ سعادة الحب المحبوب الذى يرتع فى حبه بلا خوف ولا خشية .

ومرّت الأيام بنا .. وبدأ يضع خططه كأننا زوجان ، وكأننا لن نفترق فى يوم ما ، وإذا ما افترقنا ففراق مؤقت إلى اللقاء مصيره ومنتهاه .. حتى كانت ذات ليلة جلسنا وأحد أصدقائه للعشاء .

وسأله الصديق بطريقة عابرة عن زوجته وأولاده .. وعن آخر أنبائهم ..

وسرى السؤال الذى ألقاه الصديق ببساطة مسرى الكهرباء . فتملكه الاضطراب .. وتملكتنى الرجة .

وساد السكون برهة ، سكون ما قبل العاصفة ، وأجاب هو عن السؤال باختصار ، وانتهى العشاء .. وانصرف الصديق ، وهبت العاصفة . هبت العاصفة من ناحيتى فما كانت لدى أقل فكرة عن زوجته وأولاده ، وتلقى هو الزوجة بهذوء .. وأقسم لى أنه وزوجته فى شبه فرقة . وأنه ينتظر أول أوبة إلى الوطن حتى يطلقها .

ومرت العاصفة بسلام ، وليس أسهل على المحبين من تهدئة العواصف والزوابع ، فما وجد الحب إلا وجد السلام ، وهكذا استمررنا نهمل من المتع ونهب من اللذات ، حتى كان يوم حلت الفرقة ، فقد كان عليه أن يغادر مصر إلى أحد ميادين القتال .

وبكىنا كثيرا ، هو الرجل الذى أشابت قوديه المعارك ، وأنا المرأة المخنكة المجربة ، وقف بعضنا يودع بعضا ونبكى كطفلين غريرين .. لقد حل بنا الغد المرير .. الذى كنا نظن أنه لن يولد .

ومن مساوئ الحياة ، أنها بقدر ما تعطيك من المتع .. تعطيك الآلام ، وبقدر ما ترفعك إلى قمم السعادة والأمل ، بقدر ما تهوى بك إلى قرارة اليأس والمرارة والشقاء ، فكأنى بها تندم على ما وهبت فتسترده منا مضاعفا .

لقد أحسست بعد الفرقة برد فعل شديد ، وفراغ كبير ، وظلمة حالكة ، أشبه بالظلمة التى يحسها الإنسان بعد طول حملقة فى ضوء خاطف .

وبدأنا نتبادل الرسائل ، فحملت لى رسائله الكثير من العزاء والطمأنينة ، وكان يكتب إلى كائنى زوجته . وظلت الرسائل تترى على الرسالة تلو الرسالة ، ملء طياتها الأشواق والحنين والآمال العذبة .. حتى كان ذات يوم وصلتني إحداها ، فإذا بها تحمل لى نبأ موته .

أجل !.. لقد كنت أول من أبلغ نبأ وفاته ، باعتبار أنى زوجته .

ولم أصدق عيني في بادئ الأمر ، أيمكن أن تضع هذه الكلمات القلائل ،
نهاية لكل ما كان بيننا ؟. أيمكن أن توضح الخاتمة المروعة ، في بضعة كلمات في
رسالة مقتضبة لا تزيد على سطر أو سطرين ؟ أؤيئى كل هذا الحب والأمل بمثل
هذه السهولة ، ويصبح كل شيء في لحظة واحدة لا شيء ؟

* * *

وصمتت محدثتى ، ولحت في عينيها عبرات تترقق ، ورأيتها تضغط بأسنانها
على شفيتها ، وأطرقت برأسها ، وبدا لي أنها تبذل جهدا كبيرا لتمالك قواها
ولتعاود حديثها ، فتهمس قائلة :

إن من العبث أن أحاول أن أصف لك مشاعرى وقتذاك ، فأنت أدرى بها
فلا شك أنك أحبيت ، ولا شك أنك تستطيع أن تتصور كيف يكون حبيبك
ملء ناظر ، ومتهى أملك ، في لحظة من اللحظات ، وفي اللحظات التالية
يصبح كأنه ما كان ، يصبح لا شيء .

عندما يحاول أن ينتزع منك شيئا تملكه ، فإن جهادك في محاولة الاحتفاظ به
قد يعزبك بعض الشيء عن فقدته . ولكنك عندما تلتفت فجأة فتجد أعز شيء
لديك قد تسرب من بين يديك بلا سبب ولا مناسبة ، وبلا أى أمل في
استرجاعه ، فإن ذلك أمر يبعث على الجنون . وهكذا أحسست أنى أو شك أن
أجن من فرط التفكير وفرط الحزن . ووجدت أن القدر قد أمعن في السخرية
منى ، وأنه قد استرد منى أكثر مما أعطى مئات المرات ، وأنه غبننى غبنا فظيعا ..
إن الجرح الذى خلفه موته فى قلبى لا يبرأ ولا يندمل .. إنى أبصر صورته فى كل
ما أرى .. وأسمع صوته وهمساته تطن فى أذنى كلما خلوت بنفسى .

كل قطعة من هذا الأثاث تذكرنى به ، وما سرت فى الطريق إلا خيلت ذراعه
فى ذراعى ، يتأبط أحدها كما تعودت أن أسير معه .

إن الأيام لم تحمل لى فى مرها النسيان .. إنى أعيش على الذكرى وأتمس فيها

— ٢٠٢ —

العزاء فما خفت لهفتى عليه وحنينى إليه . بل إن الحنين ليشدنى فى وحدتى ،
فلا يكاد يطرق الباب حتى أتوهمه الطارق ، وأندفع إليه لأرتعى بين أحضانه .
إنى أتعلق بالأوهام الضائعة الزائلة .. وأعلل نفسى بآمال سرايية كاذبة ،
وأقول لها : من يدري .. قد يعود إلّى مرة أخرى .
أجل يا سيدى . إنى أعلل النفس ، بعودة الميت . تلك هى الذبالة الخاوية ،
التي تبعث فى حياتى بصيصا من ضوء .

* * *

وصمتت محدثتى مرة أخرى . يا لها من امرأة عجيبة .. تحيا على أمل
عجيب . « من يدري ؟ قد يعود إلّى » ..
يا له من أمل ضائع ، ووهم كاذب .. إن الموت إذا أخذ لا يعطى ما أخذ ..
إن الموتى لا يعودون قط .

* * *

ومع ذلك .. فقد عاد الميت ، وأضحى الوهم الكاذب حقيقة واقعة . لقد
غادرت محدثتى فى ذلك المساء بعد أن قصت على قصتها ، وتركها كما تقول :
تحيا على الذكرى ، وعلى موات الأمل وعلى البصيص الخائى .
ولم نلتق بعد ذاك إلا فى فترات قصيرة متقطعة ، لم يتعد الحديث بيننا خلالها
السؤال عن الصحة ، وعن الأحوال .. حتى كان ذات يوم زرتها فى دارها
وانتهينا من التسليمات والتحيات ، ثم ساد الصمت لحظة ، ووجدتها تقطعه
بقولها ببساطة .. لقد كتب إلّى .
وهزرت رأسى مستفهما .. من ؟

— هو .

— لا أفهم من تقصدين ؟

وبلهجة هادئة نطقت باسمه .

وساد السكوت ، ونظرت إليها مشدوها مأخوذا ، لقد دهشت طبعاً من عودة الميت إلى الحياة وكتابته لها . ولكن الذى أدهشنى أكثر هو تلك البساطة وذلك الهدوء الذى أسرت بهما الخبر إلى .

ووجدتها تقول فى صوت خافت :

— إن عودته لا شك تبعث على الدهش .

— ليست عودته فقط هى التى تبعث على الدهش .

ورفعت حاجبها وهزت رأسها متسائلة ..

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن الشيء الذى يدهش أكثر من عودته ، هو وقع عودته عليك .

ووجدتها تغرق فى صمت عميق ، وبدا عليها شرود الدهن . وبعد لحظة

هزت رأسها فى حيرة وقالت كأنما تحدث نفسها :

— لقد قرأت خطابه ، وأنا لا أصدق عيني ، وأمسكت به أعيد قراءته المرة

بعد المرة ، وقد تملكنى شعور خليط من كل شيء إلا شيئاً واحداً ، هو الفرح .

أجل لقد تملكنى شعور بالدهش والحيرة والحزن ، هل تصدق إذا ما قلت لك

إننى أحسست أنى فقدت عزيزاً لى .. فقدت الميت الذى كنت أنتظر

عودته .. فقدت الأحلام الغامضة ، والانتظار المبهم .. فقدت لذة الحزن . لقد

أحسست أن حشد الذكريات الذى كنت أعيش عليها لم تعد لها قيمة

ولا فائدة .

ووجدتنى أفكر ، ماذا أكتب له ! ماذا أكتب للحى الذى أباد الميت الذى

كنت أعيش على ذكره !

ماذا يمكن أن أفعل وإياه ، بعد أن استقرت فى الحياة فى جوار رجل آخر ، قد

لا يهينى الحب ولكنه يهينى الاستقرار ؟

ثم أين كان هو طوال تلك المدة التى كنت أبكيه فيها وأعذب نفسى من

— ٢٠٤ —

أجله .. ولَمْ لم يذكرني قبل اليوم ؟
 إنه يقول : إنه سيوضح لي ما حدث .
 ولكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث ، لقد مضت سنون على نهاية الحرب ،
 فلم لم يكتب إلى قبل هذا ؟
 ماذا أريد منه الآن ؟ ماذا أريد منه وقد بدد أوهاما خلقتها لنفسى من ذكريات
 غابرة ، وأضفيت عليها جوا من الوفاء للميت الراحل .. والإخلاص للحبيب
 المفقود ؟

لقد بدت لي عودته أشبه بضحكة ماجنة ساخرة .. تنبعث في مشهد مؤثر
 حزين .. فتضيق رهبته ، وتذهب رونقه ، وتمسخ تأثيره .
 لقد عودت نفسى دور الحزينة الوهلى الحاملة الشاردة ، الأمانة على العهد ..
 الباقية على الود .. المتعلقة بالذكرى .. المتعلقة بالأوهام .
 لقد تعودت الدور حتى أجدته ، وحتى أضحيت أحسن منه بلذة ممتعة .
 كيف يعود بعد هذا .. فيهدم قصور الأوهام ، ويسلبنى متعة العيش فيها ؟ لقد
 فقدته مرتين : مرة عندما مات ، ومرة عندما عاد إلى الحياة .
 لقد مات فخلف لي الذكرى والأحلام ، فلما بعث أضاع الذكرى وبدد
 الأحلام .

ولم أشعر إلا وأصابنى تطبيق على الرسالة وتمزقها إربا . وأحسست أن كل
 شيء قد انتهى .. بينى وبين الاثنين : الميت والحي .

* * *

ونظرت إلى المرأة ولم أستطع أن أكنم ضحكة انطلقت من فمى ، وقلت لها :
 — الحمد لله .

وهزت رأسها متسائلة :

— علام ؟

— ٢٠٥ —

— الحمد لله الذى جعل الموتى لا يبعثون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا
قد عادوا فأفسدوا علينا حياتنا التى نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا حزننا
عليهم ، وزيارتنا لمقابرهم ، واستعادوا الإرث ممن ورث ، واسترجعوا التركات
من أصحاب التركات .
الحمد لله الذى جعل الموتى لا يبعثون لمجرد دعوات من الأحياء المنافقين .

حائرة

قد يخيل إليك أنها تعبت بنا ، وأنها كانت تتسلى بكل
منا ؛ ولكنها لم تكن من هذا النوع .. أجل إنها ما كانت
عابثة ولا طائشة ، بل كانت حائرة .. ذات قلب يتأرجح
لا يقر له قرار .

أخرجني الضجر ذات ليلة هاربا من ضجيج المدينة وضوضائها إلى مقهى
منعزل قد لفه الفضاء الفسيح وسترته الطبيعة بحجاب من خضرة الروض ونضرة
الزهر ، وكانت الليلة ليلة صيف .. والقمر الساحر توسط كبد السماء وغمر
المكان بضوئه الفضى ، وقد ساد السكون إلا من حفيف أوراق تعبت بها
نسمات كأنها الخفقات .. نسمات صيف قد رقت حتى حسبتها تجيء بأنفاس
الأحبة نعماً .

ليالى الصيف .. حياك الحيا .. ما فتن القلب مثل نسماتك وهمساتك ،
وما أطرب الفؤاد كنغماتك ، ونفحاتك . أنت زمن الحب وموسم الهوى ..
ما تنفس الحب إلا فى هوائك .. وما نبت غرسه إلا فى ثراك .. نجومك تشع
بضوء الحب ، ورياضك تزخر بالعشاق كأنها معا كف الحب .. وكل ما فيك
يبعث على الهوى ويوحى بالحب . كان المكان قد خلا إلا منى ومنه وقد أبصرت
شبحه فى ضوء القمر ، وقد رفع إلى شفتيه قدحا من الجعة يحتسيها ببطء ..
وتبادلنا التحية وبضع كلمات تافهة ثم ساد السكون ، وبعد هنيهة اقترب منى
بمقعده ، فاستطعت أن أتأمل وجهه بوضوح عن ذى قبل فرأيت رجلا وسيما ..
نبيل التقاطيع .. وإن كنت لم أستطع أن أحدد عمره بالضبط .. ولا حتى

بالتقريب .. فقد كان من ذلك النوع الذى قد يخطئ الإنسان فى تقدير عمره عشر سنوات أو عشرين سنة .. ربما كان كهلا .. ولكنه يفيض بالحياة ويمتلئ بالشباب .

وتجاذبنا الحديث .. وفى مثل هذه الليلة .. وفى مثل هذا المكان .. لا أظن حديث اثنين يمكن أن يخرج عن دائرة الحب . فليالى الصيف ، كما قلت ، مواسم الحب ، وإذا لم يكن الإنسان فيها عاشقا . فلا أقل من أن يكون متحدثا عن الحب .

قال الرجل وهو يهز رأسه ببطء .. لقد أدبر زمن الحب فما أظن هناك نساء يمكن أن يثرن فى النفوس الحب .. الحب بمعناه الحقيقى .. لا اللهو والعبث الذى يظنونونه حبا .. لقد كانت وحدها هى التى تستطيع أن تثير الحب .. وقد أحبا كل منا حبا عميقا .

— كلا كما ؟

— أجل ! أنا وأخى .. لقد كنت أكبره بعام ، ولكننا كنا كثرأمين .. وكان كلانا يحب الآخر كما يحب نفسه .. فما افترقنا منذ مولدنا لحظة واحدة .. وكان كل منا يشارك الآخر فى كل شيء .. حتى عندما أحبينا .. أحبينا فتاة واحدة . دعنى أولا أصف لك الدار التى كنا نقيم فيها وقتذاك .. والتى كانت موطن حبنا .. ومرتع صبانا .. إننى لأتخيلها أمام ناظرى ، وقد ظللت مدخلها شجرة التوت الوارفة الظلال ، وامتدت ساحتها الفسيحة التى كانت تفصل بين جناحى الدار وتجعل كلا منهما دارا قائمة بذاتها .. كم عدونا فى الساحة وهونا .. كم طربنا وضحكنا .. كم جعلنا من حجرات « البدرى » مخاض كنوز .. ومن الساحة ميادين قتال .. ومن الأشجار معاقل وحصونا .. لقد كان القلب إذا ذاك خاليا .. وكان الفؤاد حرا طليقا .

كان القلب خاليا حتى بدأنا ندخل مرحلة الشباب ، وحتى أنبأنا والدتنا ذات يوم .. وقد جلسنا فى الشرفة المطلة على الساحة بأن « عائدة » قد عادت ،

ونظرنا إليها وهز كل منا رأسه مستفهما « عائدة .. من ؟ » .. فما كنا نذكر من تكون « عائدة » وذكرتنا أننا بيجران كانوا يسكنون الجناح المقابل لنا ثم سافروا منذ بضع سنين ، وأردفت تقول متسائلة : لقد عادوا لسكنى الدار مرة ثانية كيف لا تذكرون ابنتهم « عائدة » ؟

والواقع يا سيدى أننا كنا قد نسيناها فعلا .. رغم أننا — بعد فترة من الوقت عندما أصبحنا لا نكاد نفكر إلا فيها أو نتحدث إلا عنها — كنا نقسم أنها ما غادرت رأسينا طوال تلك السنين وما نسيناها لحظة واحدة .. كذب في كذب ! فإن أقصى ما كنا نحمله لها في رؤوسنا عندما أنبأنا أنها قد عادت .. هى صورة باهتة لصبية ناحلة شاحبة ترقبنا من شرفة دارها فى صمت وسكون .. لا نكاد نذكر شيئا من تفاصيل وجهها .. فقد كانت دائما متناثية متباعدة .

ورأيناها أول مرة بعد عودتها عند زيارتها لنا هى وأبويها .. وأذكر أننا أخذنا من مرآها وقتذاك .. فقد كانت شيئا آخر غير ما توقعنا أن نراه .. شيئا يختلف تمام الاختلاف عن تلك الصبية الناحلة الشاحبة التى كانت تقف فى الشرفة كالطائر الهزبل .. لقد كانت تبدو كأنها أميرة من هؤلاء الأميرات اللاتي نبصر صورهن فى اللوحات الزيتية القديمة .. بشعرها الذهبى المتهدل على كتفها ، وقد زين مفرقة بوردة بيضاء قطفتها من الحديقة .. وعينها الزرقاوين الصافيتين . وأنفها الدقيق . وشفتيها القرمزيتين تفتران بين آونة وأخرى عن صفين من اللآلىء ..

وعندما مسست يدها مصافحا ، سرت فى جسدى هزة ! وخيل إلي أنها قد ضغطت على يدي ضغطة خفيفة ، ولحت فى عينيها بريقا وشاعت فى أساريرها ابتسامة حلوة .. وبدا عليها كأنها تصافح صديقا قديما سرها لقاءه مرة ثانية ، وأقبل أخى يحببها وأحسست بقلبي يدق بشيء من العنف ، فقد بدا فى عينيها نفس البريق .. وشاعت فى قسماتها نفس الابتسامة .. وانتابنى شعور

بالضيق .. لست أدري ما كان مبعثه .. أهو الخوف من شيء مجهول .. أم هي الغيرة من أخي الذي كنت أعتبره كنفسى ؟ لقد التقت أعيننا وقتذاك ، فخليل إلى أننى أبصر فى عينه ذلك الشيء الذى كنت أحس به .. وبدالى كأن سحابة قاتمة قد قامت بيننا .

وصمت الرجل برهة ليعيد ملء قدحه من زجاجة الجعة .. أو ليعيد ملء ذهنه من ذكريات غابرة نائية .. وليستعيد إلى نفسه صورة الفتاة الذهبية الشعر بوردة بيضاء فى مفرقها .. وقد وقف أمامها هو وأخوه .. فتيان فى زهرة العمر وميعة الصبا .. تفيض نفساهما بالأمل العذب والحلم الجميل .. ويتطلعان بأبصارهما إلى أفق بدت فيه شمس الحب ، وضاءة مشرقة .. وبنفسيهما قلق مبهم وجزع خفى .. من أن يمر الوقت بالشمس المشرقة فتضحى مضنية محرقة .

ورشف الرجل من قدحه رشفة طويلة .. ثم عاود الحديث قائلاً :

— لا أظن من السهل على أن أستعيد تفاصيل الحوادث فى الأيام التى تلت ذلك .. فقد اندفع كلانا فى الحب كما يندفع جواد جامع أطلق له العنان .. أو كما تتدفق مياه نهر يهبط من فوق شلالات عالية .. حتى لقد كان اليوم الذى يمر بنا دون أن نبصرها نحس فيه أننا أصبنا بكارثة أو فاجعة .. ولكن أين ذلك اليوم الذى كنا لا نبصرها فيه .. ونحن اللذان قد حفظنا عاداتها وحركاتها وسكناتها .. عن ظهر قلب .. حتى لنستطيع أن نعرف فى أية لحظة من لحظات اليوم ماذا تفعل ، بل إننا — من فرط ما كانت تشغل رأسينا — لنستطيع أن نتنبأ ما تنوى فعله فى الغد .

وتغيرت عادتنا طبقاً لعاداتها .. فقد كرهنا الخروج من الدار وأحببنا الجلوس مع أمنا ، وهى التى كانت لا تكاد تبصر وجهينا إلا فى أوقات الطعام .. فقد كانت أمى تحب الفتاة لأنها لم تنجب بنات ، وكانت تعتبرها كابنتها .. فكانت الفتاة تقضى معظم اليوم فى دارنا .

إنى لأبصرها أمام عيني وقد جلست فى الشرفة أمام أمى وانهمكت أصابعها

في عمل « التريكو » ، وأخذت أشاكسها أنا وأخى بخطف « التريكو » من يدها أو بنزع إحدى الإبر .. وهى تنهرنا غاضبة .
وصمت الرجل مرة ثانية ، ورأيته قد سبج ببصره فى الظلمة المترامية ، ثم عاد يسألنى :

— أظنك تتساءل .. كيف استطعنا أن نسير فى حبها سويا جنباً إلى جنب .. دون أن ينشب بيننا نزاع أو نضال ؟ وأظنك تتساءل كيف كنا نتحدث عنها عندما نخلو إلى بعضنا ؟ حسناً .. لقد حاول كل منا فى مبدأ الأمر أن يدعى أن الفتاة ليس لها فى نفسه موقع غير عادى .. حتى كانت ذات ليلة ، أصبح الأمر لا يحتمل ادعاء ولا كتماناً . كنا جلوساً فى الشرفة .. وقد لفنا جو شاعرى عجيب .. صاغه سكون الليل ، ونور القمر ، وهمس النسيم وأضفت عليه نفوسنا العاشقة الحاملة روعة وسحرا . وسألناها أن تغنى .. فقد كانت تجيد الغناء .

وترددت برهة .. ثم بدأت تشدو بصوتها العذب الحنون « وحقك أنت المنى والطلب » . لن أحاول أن أصف لك مشاعرى فى تلك اللحظات .. فأنا أدرك أن كل محاولة منى فى ذلك ستكون عبثاً فى عبث ، لأنك إما أن تكون قد جربت الحب ، ومرت بك تلك اللحظات أو لحظات مشابهة .. فتستطيع أن تفهم تلك المشاعر دون أن أصفها لك . وإما أن تكون امرأة قد أقفر من الحب قلبه ، فلن تستطيع أن تفهمها مهما حاولت وصفها لك .

وتركنا الفتاة فى تلك الليلة .. وفى قلبينا جمرة تتأجج .. ولم نذهب إلى الفراش .. فقد كان من العبث أن نحاول النوم بتلك الأعصاب الثائرة .. والنفوس المرفهة .. وأخيراً قلت له فى صوت خافت !

— دعنا نتكلم لنواجه الحقائق فهذا خير لنا .. إني أحبها وكذلك أنت .. لقد دفعتنا الظروف الحرقاء إلى أن نعشق فتاة واحدة .. لقد وقع الأمر .. ولم يعد لنا فيه حيلة .. ولكن لا بد لنا أن نستقر على حال .. لا بد أن يفسح أحدنا الميدان

للآخر .

وفي تلك الليلة اتفقنا على أن نساها في الغد — كل على حدة — أن نختار أحدها زوجا لها حتى لا نظل هكذا نترجح بين اليأس والرجاء .

ولما كنت الأكبر سنا فقد كان عليّ أن أكون البادئ بالسؤال ومكثت طول اليوم أتحين الفرصة .. حتى استطعت أن أدخل بها أخيرا . وخرجنا نجول في الحديقة وقد تملكني اضطراب شديد . وكنت أكاد لا أتمالك نفسي وأحسست برأسي يعصف بما فيه .. ولساني يعقده الحياء .. فلا أنبس ببنت شفة .. وأنا الذى قد حفظت ما سوف أقوله عن ظهر قلب .. ولكنه تبخر من رأسي فلم أعد أذكر منه كلمة .. وأخيرا منّ الله عليّ فقلت لها إنني أحبها . ولم يبد عليها أن قولى قد فاجأها .. بل شرد بها الذهن وبدأت مستغرقة في تفكير عميق .. وطال بها الصمت دون أن تقول شيئا حتى لم أعد أحتمل .. فأمسكت يدها وقلت .

منفعلا .. تكلمى .. قولى إنك تحبيننى كما أحبك .. كفى عن هذا الصمت فإنه يقتلنى .

وأخيرا نظرت إليّ فلمحت في عينيها دمعة تترقق وسمعتها تقول بصوت حبيس .. إننى أحبك .. ولكننى لست واثقة .. دعنى أفكر .

وأفلتت يدها من يدي وانطلقت هاربة . وأنبات أخى بما حدث .. وأنا أحس بشيء من الألم .. وطلبت منه أن يسأها بدوره حتى نرى ما ستقول .

وسأها أخى .. فأجابته يا سيدى تماما كما أجابتنى !

قد يخيل إليك أنها كانت تعبت بنا .. وأنها كانت تتسلى بكليتنا ولكنها لم تكن من هذا النوع .. أجل إنها ما كانت عابثة طائشة .. بل كانت حائرة .. ذات قلب يترجح لا يقر له قرار .

ومرت الأيام .. والشك يعصف بنفسينا .. دون أن نعرف أينما الرابع ..

وأينا الخاسر .. استقر الرأي بيننا أخيراً على أن نضع نهاية للأمر .. فقد كنا نشقى ونتعذب .. وكنا نرى أن اليأس قد يكون خيراً بكثير من هذا الشك المرير .. وصممنا على أن نطلب منها أن تحسم الأمر وتقول كلمتها .
ولقيتها على حدة وأنبأتها بما عزمنا عليه .. فعلاً وجهها الحزن وأجابت هامسة .. لم تصران على إيلا مى .. ألا نستطيع أن نبقى كلنا سعداء سوياً ؟
— لا فائدة من ذلك .. لا بد أن تختارى أحدنا .

وبدأت أشرح لها ما اتفقنا عليه ، وكانت عائلتها ستناول العشاء عندنا في الليلة التالية .. فكان عليها قبل الحضور إلينا أن تقف في شرفها وتقذف وردتين .. وردة بيضاء للذى وقع عليه اختيارها .. وأخرى حمراء للذى كان عليه أن يخلي الطريق ويذهب في سبيله .

وقد تقول لى يا سيدى إن هذه طريقة عجيبة أو خيالية بعض الشيء ، ولكن تذكر أننا كنا عشاقاً ، وأننا كنا في ميعة الصبا ، والصبا والحب لا يريان فى أى شيء عجباً ولا غرابة .

وفي الليلة التالية .. قبيل الموعد .. كنت وأخى نجلس فى حجرتنا وقد شملنا صمت عميق .. لقد كان كل منا يكاد يثق بأنه هو الذى سيقع عليه الاختيار .. وكان كل منا يحس بالرتاء للآخر ، وأخيراً رفعت رأسى متسائلاً .. من منا سيذهب قبل الآخر ؟ .

— كما تشاء .. لنقترع .

ولما كنت واثقاً من نفسى فلم يكن يهمنى أن أذهب أولاً أو آخراً .. واقترعنا فكان عليه أن يذهب هو أولاً .. ووقفت أرقبه وقد ملأنى الخوف والرغبة .. وبعد أن انتظرت برهة خرجت أنا ، وكانت الساحة شديدة الظلمة أكثر مما أتوقع .. ووقفت تحت الشرفة ، ولحمت شبعها وقد اتكأ على حافتها .. ثم

مددت يدي أتلقف الوردة التي قذفت بها . وأحسست بقلبي يكاد يقفز من صدرى عندما أبصرت لونها .. ورفعتها إلى فمي ولوحت بيدي حياء ثم عدت إلى الدار .

أه يا سيدى لو عرفت تلك السعادة التي كانت تفيض بنفسى وقتذاك .. تلك السعادة التي تملؤنا عندما نعلم أننا قد سمعنا لنداء قلبنا جوابا .. وعندما نعلم أن نصف أنفسنا قد أحس هو الآخر أننا نصف نفسه .

ومرّ العشاء كأنه حلم ، وكنت أبصرها وقد جلست بيننا وقد شع من عينيها سحر عجيب ، وأخذنا نحن الثلاثة نتحدث كأننا إخوة ، ولحت أخى وقد أخذ يعبث بيده فى الوردة الحمراء ، وأحسست له بلوعة ، وتملكنى عليه أسى وحزن .. لقد فقد المعركة .

وانتهينا من العشاء ، وعندما جمعتنا الشرفة بعد ذلك .. تبينت غياب أخى . وغيابها فتسللت من الجمع . وذهبت لأبحث عنهما فلم أجدهما فى الدار ، ونزلت إلى الحديقة ، وتقدمت فى سكون ، ولم أبصر أحدا فى بادئ الأمر .. فقد حجبت السحب نور القمر ، ولكن بعد لحظة انقشعت السحب وظهر القمر ليرينى إياهما على قيد خطوات ، وكانت بين ذراعيه ، وحمل إلى النسيم همساتها . تقول له .. لقد كانت البيضاء لك .. فقد ظننته سيأتى أولا .

وانطلقت من الرجل زفرة حارة ، ثم ساد صمت عميق قطعه بقولى :
— وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

— لا شيء ، حدث ما يمكن أن يحدث لكل إنسان يصاب بنفس الصدمة ، أو على الأصح لكل إنسان يعلو به القدر إلى ذرى السعادة ويسرى به فى سماء النعيم ، ثم يتركه فجأة فىهوى من حالىق ويندفع إلى هاوية سحيقة من اليأس المميت .

لو أننى لم أوهب تلك اللحظات الخاطفة من الأمل البراق ، ولو أننى استمررت على ما كنت فيه من شك وحيرة ، ثم حدث ما حدث ، لاستطعت أن أحتمل .. أما أن يلوح لى بالأمنية العزيزة ، فأذوق حلاوة الفوز لحظة ، ثم أخرج فى اللحظة التالية مرارة الهزيمة ، فذلك كان أكثر مما أحتمل . أجل لقد كان كثيرا على أن أنتقل فجأة من يقين بحبها لى إلى يقين بحبها له ، لقد كانت صدمة ما أظن أنى تلقيت فى حياتى أكثر منها عنفا ولا أشد أثرا .

إنى لم أحتمل البقاء فى الدار لحظة .. فذهبت أهيم على وجهى ، وصممت على الرحيل بلا عودة ، فما كنت أظن أننى أحتمل العودة بعدما تلقيت من مرارة الخيبة وألم الخذلان ، ولم أكن أتصور كيف يمكن أن ألقاها .. وكيف يمكن أن ألقاه ، وعزت على نفسى أن أجعلها موضع عطف أو محل رثاء ، وصممت على أن أكبت الحزن فى صدرى وأكتم اللوعة بين جوانحي ، وأن أحمل عبء الهزيمة . وأرحل بعيدا حتى يمنحنى الزمن السلوى ويهب لى النسيان .

ولم يكن ذلك على الزمن بعسير ، فما أظن هناك أقدر منه على منح السلوى والنسيان .. مرت بى الأيام وأنا ممعن فى البعد والشroud .. حتى بدأ أثر الصدمة يزول ، وأحسست بمبلغ ما فى قرارى من حمق وجبن ، وتمنيت لو كنت أكثر احتمالا فاستطعت أن أبقى وأتجملد .

وأخيرا عدت إلى الدار وقد أحسست أنى شفيت مما بى وأن جرحى قد اندمل .. وصممت على أن ألقاها بصدر رحب ونفس راضية وأن أسوق لهما أطيب الأمانى ، وأجمل الرغبات ، وأن أبارك حبهما وأقتل كل ما يمكن أن يستيقظ فى صدرى من حب وحنين ..

وعدت إلى الدار محملا بكل هذه النوايا ، ولكنى لم أجد قط ما يدعوا إلى إظهارها السبب بسيط هو أننى وجدت أخى وحده حزينا محسورا .. أما هى فقد

— ٢١٥ —

هجرته .. وهجرت الدار .. ورحلت هي وذويها ..
ماذا حدث ؟ كيف هجرته ، ولم أعرضت عنه من يدري ؟ قد تكون ندمت
على قرارها معه ، وأنها أحست أنها جرحتنى جرحا بالغاً ، ولم ترغب في إيلا مى
أكثر من ذلك ، فصممت على هجره .
أو قد تكون لم تخطئ في الوردة ، وأنها قصدتنى فعلاً بالوردة البيضاء ، وأن
قولها في الحديقة لم يكن إلا على سبيل العزاء عندما أحست بفرط لوعته ومرارة
حييته !
من يستطيع أن يجزم ؟ .. لا أحد .. حتى .. هي نفسها .. لا أظنها
إلا ما زالت حائرة حتى يومنا هذا .

رسالة راحلة

إني راحلة من أجلك .. إني أحبك ، وبودى لو
تسللت ورقدت إلى جوارك ، وقضيت عمري بين
ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى أعلم أن هذا ليس
مكاني ، بل مكان امرأة أخرى .

تقلب الرجل على فراشه برهة وفتح عينيه فأبصر أشعة الشمس تتخلل
النافذة ، وأحس بيده تلمس مظلوماً من الورق قد وضع تحت الوسادة ،
فأخرجه في شيء من الدهش ، وأخذ يقلبه بين يديه فوجد اسمه مكتوباً عليه ، ولم
يجد عليه طابع بريد ، وسرعان ما فضه وأخذ في قراءة ما به .
عزيزى :

أية سخرية هذه التى تجعلنى أكتب إليك وأنا منك على قيد خطوات ؟ أنا
أفهم أن يكتب الإنسان لصاحبه الغائب النأى ، ليقرب بكتابته نأيه ، ويرد
غيبته ، وليستعين بالكلمات على إطفاء حرقة وإرواء غلته .
أما أن يكتب إنسان لآخر ، وهو يراه رأى العين ، فذلك والله أمر عجيب ،
أو قل إنها إحدى السخریات .

إني أكتب إليك كأن بيننا مئات الأميال ؟
مع أنى لو تقدمت بضع خطوات لألقيت بنفسى إلى جوارك على الفراش
وضممتك إلّى .

ولكن ما الفائدة ؟ .. ما فائدة أن يلهى المرء نفسه بمتعة سرابية وأمل خلب
زائل ؟ وأن يطمع فى شيء ليس له ، أو يعلق نفسه بمتاع غيره ؟

إن من العبث أن نحاول مقاومة القدر ، أو مغافلة الزمن أو محاولة اختلاس متعة قد أبأها علينا .

إني أكتب هذا لأنبئك ، قبل كل شيء ، أنني أحبك ، ولا أظن أنى بقولى هذا أنبئك بما لا تعلم ، فليس على الإنسان لكى يفصح عن حبه أن يقول : « إني أحبك » — فالحب — كما قيل — تفضحه عينونه ، بل إن حر كاته وخلجات نفسه لتنبئ بذلك عنه .

إني ذاهبة عنك بلا رجعة ، لأنى أحبك ، ولا أريد أن أجعل من حبى ما ينغص عليك راحتك ، ومن نفسى حشائش طفيلية تفسد عليك زهرة حياتك .

لم أحبيتك ؟ .. وكيف ؟

أما لم أحبيتك ؟ .

فذلك أمر من السهل الإجابة عنه : أحبيتك ، لأنك مخلوق لا يمكن إلا أن تحب .. أما كيف ؟ فذلك والله سؤال لا أدرى كيف أجيب عليه حتى الآن .. فلقد تسلل حبك إلى قلبى تسلل النوم إلى الجفون ، فهل يعرف الذى نام كيف تسلل النوم إلى مقتلته ؟

إني لأذكر كيف رأيتك أول مرة فى أوائل الصيف ، وقد طرقت بابنا تسأل عن « بنسيون » تنزل فيه . وكنت أعلم أن عمى قد أخبرت السمسار أن لديها حجرة تريد تأجيرها خلال الصيف . فتركتك تنتظر على الباب وذهبت أنبئ عمى بأن رجلا يريد أن يستأجر الغرفة . ولقيتك عمى بالترحاب وأدخلتك لمشاهدة الحجرة ، ولم تمض لحظات حتى اتفقنا على الأجر ، ونزلت بدارنا . ومرت بضعة أيام ، وأنا لا أكاد أبصر منك إلا شبحا يتسلل من الحجرة أو إليها ، حتى إني ما استطعت أن أثبتن ملاحك وقتذاك . فقد كنت لا تحضر إلى الدار إلا ساعات قلائل للنوم .

وكنت أقوم بالعناية بمجرتك ونظافتها . فقد كنت فى الدار أشبه بخادم ، إذ نشأت يتيمة الأبوين ، فكلفتنى عمى هذه ، ولا أظننى عالة عليها فى يوم من

الأيام ، فلقد استغلت جهدى كل الاستغلال . فمند طفولتى وأنا أعمل فى الدار خادما .. أقوم بالكس والمسخ وغسل الأواني ، فلما اشتد ساعدى علمتنى الطبخ وغسل الملابس وألقت على كل أعباء الدار . ولم يكن لها سوى ابن واحد ، هو ذلك الفتى الفاشل ، الخاسر ، الأحمق ، الأهوج ، الذى لم يصلح قط لأى شئ ، والذى كان يعيش عائلة عليها .

ولقد صممت العمة على أن تزوجنى منه ، ولم أبد أنا رأى . لأنى لم أتعود قط أن أبدى رأى فى أى شئ كان ، فقد نشأت على أن أقبل كل ما أعطى . لم أكن أحب الفتى ، ولم أكن أحب غيره لأنى لا أعرف معنى الحب !! ومتى كان لى أن أحب أو لا أحب ؟ لقد كنت أعتبر الزواج واجبا لا بد لى من تأديته ، كالكنس والمسخ والطبخ والغسيل ، وأنا ما ترددت قط فى تأدية إحدى تلك الواجبات ، فكيف أتردد أو أناقش فى مسألة الزواج ؟ وكيف أقول لى لا أريد هذا لأنى لا أحبه ، وأنا ما فعلت شيئا فى حياتى لأنى أحب فعله ، وإنما أفعله لأنه يجب فعله ، وهكذا وطنت نفسى على زواج الفتى ، حتى ظهرت أنت فى أفق حياتى ! .

قلت لك إنه مضت بضعة أيام وأنا لا أبصر منك إلا آثارك فى الحجرة : ييجامتك المعلقة على المشجب ، ملابسك المرسومة فى الدولاب ، وأدوات الحلاقة النظيفة المرتبة ، وفرشة الأسنان .

كانت المرة الأولى التى أتولى فيها أمر رجل غريب ، فقد كان ذلك هو أول صيف تؤجر فيه عمتى إحدى حجرات الدار . وكنت أعلم من الحالة التى أجد عليها غرفتك بعد ذهابك ، أنك تحاول جهدك أن ترفع عنى عبء ترتيبها وأن تبدو منظما مرتبا ، فترتب الأغطية على الفراش ، وتعلق ملابسك على المشجب . وكانت تلك المحاولات منك تثير ضحكى ، لأنك رجل والرجال لا يفهمون قط فى ترتيب الحجرات أو نظافة الدور فكنت أعيد ترتيب الحجرة . ولست أدري ما الذى جعلنى أحس عطفًا عليك فأحاول أن أقدم لك فنجانا

من الشأى قبل أن تخرج ، والتقيت بك فى ذلك الصباح وأنعمت فىك البصر
وفحصتك جيدا فوقعت من نفسى موقعا حسنا ، ووجدت منك إنسانا رقيقا .
ومنذ ذلك اليوم نشأ بيننا نوع صامت من الود والصداقة وبدأت أستشعر
شيئا من المتعة وأنا أنظف حجرتك وأرتب الملابس ، كما كنت أنتظر مجيئك فى
الليل حتى أسألك عما إذا كنت تريد حاجة أقضيها لك .

ويخيل إليّ أنك قد بدأت أنت الآخر تحس شيئا من المتعة عند وجودك فى
الدار ، وأنت لم تعد كما كنت غريبا نافرا ، فأخذت تعود إلى الدار ظهرا
لتستريح ، حتى كان ذات يوم سألتنى إن كان يمكنك أن تتناول الغداء فى الدار .
ولم تمنع عمتى بالطبع ، مادمت ستدفع ثمن ما تأكل .
وبدأت أجهز لك طعامك كل يوم .

وهكذا طالت الفترات التى كنا نقضيها معا ، وزادت صلة ألدنا بالآخر ،
وكنت أجد فى معاملتك الرقيقة المهذبة خير مشجع لى على أن أزيد من رعايتى
لك وعنايتى بأمرك فلقد كانت معاملتك شيئا غريبا علىّ ، لأنى تعودت
ألا أتلقي عما أفعل شكرا ولا تقديرا .

وهكذا تطور إحساسى نحوك ، ولم أعد أرى منك مجرد ساكن أو مستأجر
غريب ، وقد لا أكون مبالغة إذا قلت لك إننى بدأت أحس أن عملى الأساسى
وواجبى الأول ، هو خدمتك أنت وقضاء حاجاتك ، فلشدهما كان يسعدنى أن
أسمع منك شكرا أو أتلقي منك بعض تلك الهدايا البسيطة التى بدأت تهديها إليّ .
ولم لا أكون أكثر صراحة فأقول إننى بدأت أحبك ؟

وماذا يكون الحب أكثر من هذا الذى كنت أحس به نحوك ؟.

لقد بدأت أجعل نفسى مسئولة عنك وعن راحتك ، وعن طعامك ، وبدأت
أنصب من نفسى محاسبا لك على تأخرى ليلا ، أو على عدم تناول الغداء فى بعض
الأيام ، ولم تعد عينى تغفل حتى أطمئن على عودتك ، وكنت أصحو من النوم
فجأة وأذهب إلى حجرتك لأتأكد من أنك قد أغلقت النافذة حتى لا تؤذيك

رطوبة الليل ، وهكذا أصبحت على مرّ الأيام شغلى الشاغل ، وأخذت أتصرف حيالك دون أن أدري كما لو كنت زوجتك .

وتقبلت منى ذلك التصرف بالرضا ، وأخذت تبادلنى اهتماما باهتمام ، وعناية بعناية ، وهل أكون واهمة أو مخدوعة إذا ما قلت حبا بحب ؟
والواقع أنى أخذت المسألة بسهولة ، إلى حد أننى لم أفكر قط أننى قد أحبك ، بل كنت أعتقد أن إحساسى بنحوك إحساس طبيعى وأن كل ما أشعر به بنحوك ليس مبعثه إلا طيبة فى نفسى .

إنى لأذكر كيف بدأ مرضك وكيف ذهبت إلى حجرتك ، فإذا بك ما زلت راقدًا فى فراشك وكان وجهك يبدو عليه بعض الشحوب فأقبلت عليك فى لهفة وسألتك : ما بك ؟

وهزرت رأسك يبطء وعلت وجهك ابتسامة فاترة ، وقلت فى صوت ضعيف : لا شىء .

ومددت يدى أتحسس جبينك ، وأحسست أن هناك تيارا خفيا سرى بيننا ، فأصابنى منه رعدة ، وظننت ما بك علة طارئة وبردا خفيفا سرعان ما تبلى منه .. ولكنك ازددت سوءا فى الليل ولم يصبح اليوم التالى حتى كانت سطوة المرض قد ألحت واستفحل الداء ، وأنى الطبيب لعيادتك فأنبأنا أنك مصاب بالتهاب رئوى شديد وأنت فى حاجة إلى عناية كبرى .

وبدا الامتناع على عمى والتبرم ، وحاولت أن تلقى عن نفسها عبثك بأن ترسل إلى ذويك ، ولكنك رفضت أن تدعنا ننبئ أحدا وتشاورت وابنها فى التخلص منك بنقلك إلى أحد المستشفيات . وأحسست بقلبى يغوص بين جنبى ، فما كان لى عزاء عن مرضك سوى أننى بجوارك .

وأسرعت إلى الطبيب فخلوت به على السلم ورجوته والبكاء يخففنى أن يأمر عمى أن تبقيك كما أنت لأن فى نقلك خطورة على حياتك وأنها ستكون مسئولة عما يصيبك من جراء النقل .

وهكذا استطعت أن أبقيك إلى جوارى حتى أتولى وحدى السهر عليك .
وبدأت أخوض المعركة ضد المرض الذى أمسك بخناقك .
مرت بي الليالى وأنا لا أذوق النوم ، حتى فى تلك الهنيهات التى كنت أذهب
فيها إلى فراشى لأستلقى عليه خوفاً من عمى ، كنت أنام مفتحة العينين .
كم جلست إليك فى ظلمة الليل أتخس شعرك ، وأغرق وجهك وجبينك
بالدمع والقبل . دمع عين ما جفت مآقيا ، وقبل شفاه ما كفت لحظة عن
الابتهاال إلى الله لكى ينقذ حياتك .

وفى ساعة هذيان من هذيان الحمى علمت أنك متزوج .
لست أدري ! لم صدمنى هذا الخبر ؟ ولم أحسست منه بطعنة أدمت
قؤادى ؟

إنك لم تخدعنى لأننى لم أسألك عن حياتك ولو سألتك لما ترددت فى إخبارى
بأنك متزوج بدليل أنك أنبأتنى بعد أن أبللت من مرضك أنك متزوج فعلا .
فماذا كنت أريد منك ؟ وماذا كنت آمل من ورائك ؟ أكنت آمل أن أكون
زوجتك ؟ أنا نفسى لم أكن خالية . وكانت عمى مصرة على أن أتزوج ابنها ؟..
ماذا كنت أريد إذن ؟

الواقع أنى لم أفكر قط ما بغيتى منك ؟ ولم أحاول أن أسأل نفسى ماذا يمكن أن
تكون نهايتى معك ؟

· إن الإنسان عندما ينجذ نفسه وقد اكتنفته السعادة وسار به زورق الحياة هادئاً
مسترسلاً .. لا يحاول أن يسأل نفسه عن بغيته أو مقصده .. إنه يكتفى بأن
يسير قرير العين ناعم البال ويكتفى بأن يغمض عينيه فى راحة واستسلام ، ويترك
الأمر — كما يقولون — تجرى فى أعنتها دون أن يجهد نفسه بالتفكير فى غرضه أو
نهايته . إنه لا يحاول أن يستبقي الحاضر حتى لا يفقد بهجته .. بل هو دائماً يعيش
للحظته .. « لا يضيق هما بأمس أو غد » ولا يحاول أن يشغل نفسه عما هو فيه
من هناء ومتعة .

كذلك كنت معك .. ما حاولت أن أتعدى اللحظة التى نحن فيها ، وما حاولت أن أعرف من أنت ومن أين أتيت وإلى أين تذهب ؟. بل ما حاولت أن أزعج نفسى بمجرد التفكير فى أنك لا بد أن تذهب ، وأنى لا بد أن أفقدك . ولم أحاول أن أفكر فى هذا بل اكتفيت بالحال الواقع ، وهو أنتى معك ، وأنى أمتع برؤيتك والعيش بجوارك .

لم أفكر فى أن تكون متزوجا أو غير متزوج ، ولا خطر ببالى أن أبحث عن صلتك بالناس أو صلتهم بك . لم أحسست إذا — بعد كل هذا — بلوعة مضية عندما علمت أنك متزوج ؟

لم أحسست أنى فقدت أعز ما أملك مع أنى لم أحاول من قبل أن أقنع نفسى أنى أملك هذا العزيز الذى فقدته ، وأن لى عليه حق الحزن إذا ما فقد .. وحق اللوعة إذا ما ضاع ؟

لقد تملكنى يأس شديد ، ومع ذلك لم يقلل يأسى من الجهد الذى كنت أبذله من أجلك ، فلقد كانت نظرات الشكر التى توجهها لى فى صمت خير مشجع لى على المضى فى سببى ، وكان خير معين لى على احتمال اليأس .. هو تلك اللحظات التى كنت تتناول فيها يدي فتجذبها برفق وتضعها على شفتيك الملتهتين الجافتين وما كنت أريد جزاء خيرا من هذا .. وأخيرا .. وبعد طول جهد وسهر .. بدأ الداء يجلو .. والعلة تنقشع .

وكان أول ما فهمت به .. اعترافك بصنيعى ، وتقديرك الجميل .. علام الشكر ؟ وأنا لم أفعل ما فعلت ، إلا بدافع من قلبى .

وكان ثانى ما فهمت به أنك تحبنى .. وأنت أصبحت تحس أننى جزء منك ، وطلبت منى ألا أتزوج من ابن عمتى . وقلت لى إنك متزوج ، ولكنك ستفترق عن زوجتك .. فما أشعرتك قط بعطفها أو حبها ، وما رعت أمرك بل هى امرأة مظاهر وحفلات ، امرأة برّاقة زائفة ، ليس فيها سوى جمال الطلاء . ولم أجد فى طلبك منى ألا أتزوج من ابن عمتى أمرا عسيرا فقد كنت على

استعداد لأن أفعل من أجلك كل شيء . ولكن العسير حقا ، هو أن تنفصل أنت عن زوجتك .. وأن أختطفك منها .

أنا لا أدعى أنى مثالية ، ولكنى مع ذلك لا يسعنى أن أقاوم رغبة القدر .. إنك لست لى ، ولن يصيبني تعلقي بك إلا الندم والحسرة .. إنك على استعداد لأن تهجر الآن امرأتك من أجلى ، لأن حرارة صناعى ما زالت تلهب نفسك . وغدا .. أو بعد غد .. عندما تفتقر هذه الحرارة ، وينسى الصنيع . ماذا يكون من أمرك ؟ إنك لا شك ستندم على ما فعلت من طلاق امرأتك وتزوجك إياى .

فما أنا إلا فتاة يتيمة ، تكاد تكون خادمة ، التقيت بها فى بنسيون ذات صيف وأنت غاضب من امرأتك ، فمرضتك فى مرض ألم بك .

فهل تستحق أن تتزوجها وتهجر من أجلها امرأتك ؟ لا .. لا .. يجب ألا أنتهر فرصة ضعفك فأكون سببا فى شقائك .

إلى راحلة من أجلك .

إنى أحبك .. وبودى لو تسلت ورقدت إلى جوارك .. وقضيت عمرى بين ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى أعلم أن هذا ليس مكانى ، بل مكان امرأة أخرى .

وبودى أن أقبلك .. ولكنى أخشى الضعف .. وأخاف الانهيار ، والاستسلام .. فيجب أن أقسو على نفسى فأذهب بسرعة !

« المخلصة »

ملحوظة : وصلت الآن بريقة باسمك .. إننى أخشى أن أفتحها فيكون فيها شيء خاص بك ، لا تود أن أطلع عليه . وأخشى أن أوقظك من نومك الهادئ ، وأنت فى حاجة إلى الراحة . سأتركها على المنضدة حتى تفتحها عندما تستيقظ .

أمسك الرجل بالخطاب ، وقد تملكه الذهول .. أتراها حقا قد ذهبت ؟
يا للفتاة المجنونة .. إنه يحبها كما لم يحب من قبل .. ولا يستطيع العيش بدونها ..
كيف تصوّرت أنه لم يسألها الزواج إلا بدافع من الاعتراف بالجميل ؟
يا للحمقاء ! أتركته لأنها لا تود أن تختطفه من امرأته ؟ امرأته البرّاقة النافهة ،
التي لا تكاد تحس به .. والتي لا يعينها سوى الظهور في الحفلات والمجتمعات !
وقفز الرجل من فراشه واندفع إلى العمة يسألها عن الفتاة ، وبحنوا في الدار ،
فإذا بالفتاة قد رحلت .. ثم بحثوا خارج الدار فلم يجدوها ، أو على الأصح
وجدوها قد رحلت إلى دار أخرى .. فقد عثروا على جثتها غارقة في أحد
البلاجات .

وعاد الرجل إلى حجرته وقد تملكه اليأس ، واستبد به الضيق ، ونظر إلى
المنضدة فوق بصره على البرقية التي حدثته عنها الفتاة في خطابها . وفضها الرجل
فوجد لها من أخيه ، ينبئه فيها أن امرأته توفيت في حادث عربة !
وتنقلت عينا الرجل بين الخطاب والبرقية ، وأرتج عليه ، فلم ينبس ببنت
شفة . لقد كانت البرقية سخرية بسيطة من سخریات القدر .

دائمًا معي

هل عرفت من أنا ؟ ولم أتسلل في جنح الليل لأجلس
وحيدة في هذه الدار الموحشة .. إن الدار يا سيدى ليست
موحشة . وإلى لا أجلس قط وحيدة .. إنه دائما معي .

كانت ليلة من ليالى الشتاء ، قارسة البرد ، عاصفة الريح ، حالكة
الظلمات .. لم تترك حجب السماء المتكاثفة في سمائها منفذا لشعاع .. فبدا .
الكون وقد اتشح بسواد أخفى معالمه ، ولم يد سوى أشباح معتمة صامته .
ووقفت وراء زجاج النافذة أرقب الطريق المقفر المظلم ، وقد تناثرت فيه
مصاييح الغاز التى لم تستطع أشعتها أن تنفذ خلال الظلمة الحالكة فبدت خاوية
مترنحة ، ووصل إلى أذنى صفير الريح كأنه عويل وأنين ، وأحسست برجفة
تسرى في جسدى عندما وقع بصرى على ضوء يلوح من نافذة تبدو خلال
الأشجار المتكاثفة في حديقة الدار المقابلة .

واشتد الصفير ، وبدأت أستعيد في ذهنى تلك الخرافات التى تروى عن الدار
المهجورة ، وما يشاع من أنها مسكونة بالأرواح ، وكيف استمرت الدار خالية
خاوية لا يقربها السكان ولا تمتد إليها يد التغير والتبديل .

ولم أحاول قط أن أصدق شيئا عما يشاع عن الدار المسكونة ، فما كنت
لأؤمن بوجود العفاريت والأشباح ، وما كنت لأرى فيها إلا ضربا من ضروب
الأوهام والخيالات ، وزاد من يقينى أننى من اليوم الذى انتقلت فيه إلى دارى
هذه وأنا أراقب الدار المسكونة جيدا فى أوقات مختلفة من النهار والليل دون أن
أبصر فيها شيئا غير عادى ، فما لاح لى منها قط جن ولا عفريت ، ولا رأيت فيها

(مكي العشاق)

إلا ظلمة فوق ظلمة وصمتا على صمت ، حتى كانت هذه الليلة عندما أبصرت ضوءا يشع من إحدى النوافذ خلال الأشجار المتكاثفة المحيطة بالدار .
ولم أستطع أن أمنع تلك الرجفة التي سرت في جسدى — رغم سخريتى الشديدة بكل ما يقال عن الأشباح والأرواح — وتملكنى إحساس مبهم بالخوف ، ووجدت صفير الريح وقفر الطريق والضوء المتسلل من النافذة وسط الظلمات المتكاثفة قد أحاطنى بجو من الرهبة ، ودفعنى إلى توهم وجود الشبح الذى يقطن الدار المهجورة ، وإلى تصوره وقد أضاء النور وأخذ يتنقل فى ردهاتها .

ولم يستمر هذا الشعور أكثر من ثوان معدودات عدت بعدها إلى نفسى . وطردت من ذهنى ذلك الوهم الذى فرضته عليه الظلمة والوحشة وعصف الريح ، خرافات الناس .. وحاولت أن أجد سببا — غير الأشباح والأرواح — لذلك النور المنبعث من الدار .

وكان أول ما خطر لى أن زائر الليل لن يكون سوى لص يحاول سرقة الدار فقد كان أثاثها ما زال مفروشا كما هو منذ تركه صاحبه ، ووجدت أن من واجبى أن أسرع فأقبض على اللص .. أو على الأقل أنبئ الشرطة .

وترددت برهة ، فقد خشيت إن أنا حاولت إبلاغ الشرطة أن يضيع الوقت سدى ويفر اللص وقد لا يكون هناك لص أصلا ، فأضع نفسى موضع السخريّة . وهكذا صممت على أن أذهب وحدى إلى الدار لأرى جلية الأمر فإن كان الزائر لصا قبضت عليه ، وإن كان شبحا ..

وضحكت لنفسى فى سخريّة . ماذا يضيرنى من أن يكون شبحا ؟ لم لا أجرب لقاء الأشباح ؟

وسرعان ما تناولت مسدسا صغيرا دسسته فى جيبي ، ثم هبطت إلى الطريق واجتزته متجها إلى باب الحديقة الحديدى ، ولم يستعص علىّ فتحه ، فقد كان مغلقا من الداخل بمزلاج يسهل لليد الوصول إليه .

ودلفت إلى الحديقة المقفرة الموحشة . ووقفت برهة أنصت في الظلمة ، فلم يصل إلى أذنى سوى صوت الريح تعصف بأوراق الشجر .. فأخذت أتجه إلى مصدر الضوء ، حتى وصلت إلى نافذة في الطابق الأول لم يحكم إغلاقها ، فتسلل من خلالها الضوء الذى استرعى بصرى فى أول الأمر .

ومددت يدى ببطء ففتحت أحد مصراعى النافذة .. ووقفت على أطراف أصابعى وأطلت برأسى فى حذر ، فلم يقع بصرى إلا على أثاث قد علته الأتربة ، وجدران قد خيمت عليها العناكب . وبدأ لى باب الحجرة يؤدى إلى صالة بهو رحب استطعت أن أميز فيه وقع أقدام تغدو وتروح .

وقفزت من النافذة إلى الحجرة ، وسرت أسترق الخطى .. حتى وصلت إلى الباب المؤدى إلى الصالة ، ومددت عنقى فى حذر شديد حتى أرى اللص وآخذه على غرة .

ورأيت اللص ، وانتابتنى حيرة شديدة ، وتملكنى الدهش . فما كان هذا الذى رأيته يمكن أن يكون لصا .

لقد رأيت امرأة تشع بالسواد ، تجلس فى هدوء على إحدى الأرائك أمام المدفأة التى تتأجج نيرانها وقد بدا لى ظهرها ، وانساب شعرها على كتفها ، وأمسكت بكتاب أخذت تقلب صفحاته ببطء .. دون أن تظهر عليها بوادر خوف أو عجلة ، بل كانت فى جلستها بادية الطمأنينة كأنها ربة الدار .

ومرت برهة وأنا ثابت فى مكائى ، حائر ، دهش .

من تكون المرأة ؟ وللمرة الثانية أحسست برجفة تسرى فى بدنى ، وعاودتنى — على غير إرادة منى — فكرة الأشباح .

أية امرأة تلك التى تجازف بالجلوس فى هذه الدار المهجورة المسكونة ، وحيدة فى هذه الساعة من الليل ؟. ولم ؟. لكى تتسلى بقراءة كتاب ؟.

ووجدت كل سخرىتى من الأشباح قد تبددت ، وحل محلها خوف شديد . لا شك أن هذه المرأة شبح .. إنها هى الروح التى تسكن الدار . وبدأت أفكر فى

أن أعود من حيث أتيت .. حقيقة أنى لست جباناً ، ولكنى مع ذلك لم يكن بى شديد لهفة على لقاء الأشباح ، حتى ولو كنّ نساء .
وهملت بالتراجع .. عندما عصفت الريح فقرعت النافذة وأبصرت بالمرأة تنتفض فى ذعر ، وتلتفت وراها .. فيقع بصرها على .
ومضت برهة وكلانا يحملق فى الآخر فى خوف ودهشة حتى استطعت أن أتمالك وأتماسك . وأستعيد بعض شجاعتي ورباطة جاشي . وأطرد من ذهني كل ما تسلل إليه من أوهام عن الأشباح والأرواح وأقنع نفسي بأن المخلوقة التي تنتفض أمامي من الخوف لا يمكن أن تكون سوى آدمية من دم ولحم .
وهكذا بدأت أستمّد الشجاعة من خوفها ، فقد أوحى إليّ منظرها المرتعد المرتجف بأنها دخيلة على الدار ، وأنها قد تسللت إليها فى بهمة الليل ، وأن ظهورى أمامها فجأة قد أفرعها ، وأظهرها كمجربة ضببطت متلبسة بجرمة .
ولكن أية جريمة ؟ جريمة الدخول فى دار مسكونة مهجورة لا يجرؤ على أن يدخلها إنسان ؟ .

جريمة الجلوس فى دعة وطمأنينة ؟ .. جريمة قراءة كتاب ؟ ..
ماذا تفعل المرأة ؟ .. ومن هى ؟ . وما صلتها بالدار ؟ وما .. وما ؟ ..
وأخذت الأسئلة تتراحم فى رأسى ، وانطلق أولها من بين شفتى ، فسألتها فى حيرة ودهش :

— ماذا تفعلين ؟

ولم تجب المرأة على سؤالى ، بل أخذت تسألنى بصوت خفيض مبحوح :
— من أنت ؟ .

— خيرينى أولاً .. من أنت ؟ وماذا يدفعك إلى التسلل إلى هذا المكان الموحش فى هذه الليلة العاصفة ؟ . أهو مجرد الرغبة فى قراءة كتاب ؟
وكانت لهجة السخرية بادية فى سؤالى ، ومع ذلك فقد وجدتها تهز رأسها بالموافقة ، كأنما قد جاءت حقاً لقراءة كتاب .

وساد الصمت برهة . ثم وجدتها تتسائل مرة أخرى بصوتها الخفيض المرتعد :

— من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟.

ووجدت في لهجتها لكنة غريبة ، لا توجى بأنها مصرية صميمة ، وكأنها من أحد الأقطار الشقيقة .

وبدأ شعوري بالعطف عليها يتسرب إلى نفسي ، وأيقنت أن مثلها لا يمكن أن يضمم شرا ، وأن الإنسان لا يملك أن يوجس منها خيفة . فأجبتها في رقة ظاهرة محاولا طمأنيتها :

— إنى أقطن في الدار المقابلة ، وقد استرعى انتباهي ضوء يشع من إحدى النوافذ ، وأنا أعلم أن الدار مهجورة لا يقطنها أحد .. اللهم إلا ذلك الشبح الذى يزعمون أنه يسكنها ، فلم أشك في أن زائر الليل لص .. أو .. ثم أردفت ضاحكا :

— أو شبح .. فلما تسللت إلى الدار وجدتك أنت ! فأيهما تكونين ؟. ولكن المرأة لم تضحك .. بل هزت رأسها ببطء ، وأجابت في صوت خافت :

— أنا لم أكن قط لصة ، أقول إنهم يزعمون أن الدار يسكنها شبح ؟. — أجل .

— إذن أنا لاشك ذلك الشبح !.

وأطرقت برأسها برهة ، ثم أردفت قائلة :

— أجل .. لا أظن أن هناك شبحا في الدار سوى .

واقتربت منها وتأملتها فوجدتها امرأة صغيرة .. خير ما توصف به هو أنها رقيقة ، رقيقة في كل شيء ، رقيقة الوجه ، رقيقة الجسد يبدو في قسماتها حزن دفين ولوعة مكبوتة ، ويلوح على محياها شيء من الشرود والذهول . وعادت الأسئلة تتراحم في ذهني مرة أخرى .. إنى لم أعرف بعد من تكون

المرأة ؟. وما سبب زيارتها للدار خفية ؟.

وعدت أسأل :

— ولكنك لم تقولى بعد من أنت ، وماذا تفعلين ؟.

— أما من أنا ؟. فلا أظن أن مجرد ذكر اسمي سيعنى لديك شيئا ، إلى امرأة غريبة ضالة ، أما ماذا أفعل ؟. فإننى لا أفعل أكثر مما رأيت ! أزور الدار خلصة ، لأجلس على الأريكة ، وأقرأ .. وأفكر .. ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك !. هذا هو كل ما تبقى لى منه ؟.

وبصرت بسحابة ألم خيمت على وجهها ، ووجدتها تضغط على شفثيها كأنها تقاوم البكاء ، ولحمت فى عينيها طبقة لامعة من دمع متحجر . وازداد شعورى بالعطف على المرأة ، ووجدتنى أنسى كل ما أتيت لأجله . وأنسى الظروف المحيطة بى ، ولم أعد أذكر سوى أنى أمام امرأة منكوبة تتألم ، تفيض نفسها بالمرارة والحزن . فأمسكت يديها وقدمتها برفق فأجلستها على الأريكة كما كانت ، وقلت لها فى عطف شديد :

— لا تخشى شيئا .. حدثينى عما يحزنك ويوجع قلبك ؟ نبئينى لم تتسللين فى جنح الظلام لتجلسى وحيدة فى هذه الدار الموحشة . أخرجى بعض ما فى صدرك فقد أستطيع معاونتك .. ثقى بى .

ومضت برهة والمرأة صامتة ، وقد أطرقت برأسها وأخذت تقلب صفحات الكتاب ، وبدأ عليها ذهول شديد .. حتى لقد خيل لى أنها أصيبت بجنون . وأحسست بالرجفة مرة أخرى تسرى فى بدنى ، فأنا أخاف المجانين أكثر مما أخاف الأشباح .

ولكن الخوف لم يطل فقد زفرت المرأة زفرة حارة ورفعت لى وجهها حزينا ، وقالت فى صوت خافت :

— لم تريد أن تثير الحزن الدفين ، وتوقظ الذكرى الهاجعة ؟ أنا لا أعرفك ، وأنت لا تعرفنى ، لم تريد أن تسمع قصة مجهولة ؟. لقد كنت مجهولة دائما ،

حتى منه كنت مجهولة .

أجل .. إنه ما كتب إليّ إلا قائلاً « أيتها المجهولة » . لقد كان كل منا مجهولا من صاحبه ، فما رأى أحدنا الآخر قط ، ومع ذلك فما عرفت إنسانا في حياتي كما عرفته !.

كنت أعرف كل شيء عنه : هذه الدار .. كنت أعرفها قبل أن أراها ، قطعة قطعة .. كنت أعرف موقع المدفأة . ومواضع الصور .. كنت أعرف جلسته على هذه الأريكة في سكون الليل . لقد كتب لي عن كل هذا .. لقد وصف لي الحديقة ووصف لي الطريق ووصف لي ما حوله ، بالتفصيل والدقة .. لقد عشنا معا ، رغم أننا لم نلتق .

كتب لي عن نفسه .. عما يحب ، وعما يكره ، وعما يأمل . وعما يرجو .. كتب لي عن طباعه وخصاله ، وعن محاسنه ومساوئه .. كتب لي عن حبه .

أجل يا سيدى .. حبه لي .. أو كما كان يسميه : حب المجهول .

كيف بدأ الأمر بيننا ؟ وكيف تطور ؟

من كان يتصور أن هذا شيء يمكن حدوثه ؟ . من كان يتصور أن هذا الحب العميق يمكن أن يحدث بيننا ؟ .. بين اثنين لم يلتقيا قط ، ولا كانا يأملان في لقاء .. اثنين تمزقت بينهما أسباب الوصال وبعدت بينهما الشقة ، ونأى المزار !! من كان يصدق أن الأمر بيننا سينقلب إلى هوى جارف وقد كان أحدنا في القاهرة والآخر في بغداد !.

بدأ الأمر من جانبي ، أنا الفتاة الشرقية المحافظة المنطوية في عقر دارها ، التي تعرف أكثر مما ترى ، والتي تحس فتكبت لإحساسها وتطوى مشاعرها .. بدأ الأمر بلقاء بيني وبينه ، أنا وحيدة في حجرتي وهو يطل على من سطور إحدى قصصه .

أجل .. لقد التقيت وإياه في عالم الوهم ، عندما بدأ يهز مشاعري بإحساسه المرهف ، ويتسلل إلى نفسي بما لم يستطع إنسان من قبل أن يفعل .
كنت أقرأ له ، فأحس كأنه يكتب لي .. لي وحدي .
لقد أحبيته من كتابته ، حبا لا أمل لي فيه ، ولا رجاء لي منه ، فما كنت أطمع قط في مجرد رؤيته أو لقائه .

وأنا واحدة من بين آلاف قرائه .. بيني وبينه مئات الأميال .
وبدأت أنتظر كتابته كصناد في الصحراء بتلهف على قطرة ماء ، وبدأت أنطوى على نفسي ، وأصابني مثل ذهول العشاق وشرودهم ، دون أن أجسر أن أفضي لأقرب الناس إلَيَّ بشيء من مشاعري خشية أن أتهم بالجنون .. كيف أجسر على أن أقول لهم أني أحب إنسانا لم أره ، ولا يحس هو وجودي ؟
ودفعني طيش الشباب أن أكتب إليه مرة ، ومرت بي الأيام ، وقد تملكني قلق شديد .. أنتظر في لهفة وخشية كما ينتظر السجين حكما بالإفراج أو بالإعدام .. حتى وصل إلَيَّ ردّه فكان فيه شفاء نفسي ، وبلسم روحي .
كان ردّه رقيقا عطوفا زادني تعلقا به ، وحبا له ، وأشعل في نفسي جذوة الأمل فيما لا أمل فيه .

وكتبت له مرة أخرى ، ورد عليّ ، وثالثة ، ورابعة . حتى وصل إلَيَّ رده ذات مرة يقول فيه :

« أيتها المجهولة .. من أنت ؟ كيف أنت ؟ .. لم تقولين إن حبي شرّد ذهنك وحطم قلبك ؟ .. لم تتحدّثين عن اليأس ؟ .. لم لا تجعلين من حب المجهول نبراسا يهديك سواء السبيل ، هذا الحب الذي لم تلتقي به الأجساد ، بل تلاقت فيه الروح بالروح ، ما أقدره على أن يضئ لنا ظلمات الحياة . » أيتها المجهولة .. اكتبني إلَيَّ كثيرا ، إني أحب كتابتك وأحب حبك .

ومرت بي الأيام وأنا أرى الحياة مشرقة باسمّة ، لا عمل لي إلا التفكير فيه ..

أو قراءة رسائله أو كتبه .. أدخلوها في حجرتي ، أو أقف في النافذة فأرقب الأفق البعيد وقد أمسكت أحد كتبه في يدي ، وقد شردت في الذهن وأخذت أتصوره مقبلاً عليّ من العالم البعيد المجهول ، ويقترب حتى يصل إليّ فيحتويني بين ذراعيه ، ويضعني إلى صدره .. ثم يلصق بشفتي شفتيه .. يا للأمل الخلو والأماني العذبة !

وبدأ طمع العشاق يشقيني ، ولم أعد أقنع منه بمجرد الرسائل ، بل بت أتوق شوقاً إلى لقائه .

وعصف بي الحنين ، وأقضى الشوق مضجعي .. دون أن تلوح لي بارقة أمل ، حتى ولو كانت كاذبة ، أعلل بها نفسي !

كنت يائسة من لقائه ، ولست أشك في أن اليأس نوع من الراحة .. راحة الاستقرار على حال والاطمئنان إلى وضع مهما مرّ مذاقه وملح طعمه ، ولكني مع ذلك لم أشعر قط براحة اليأس ، فإن يأس المحبين لا يحمل راحة ، لأنه لا يكون قط حازماً قاطعاً ، فإن جنون الحب لا يفتأ يبعث في نفوس المحبين نوعاً من الأمل .. الأمل المستحيل والرجاء غير المعقول ، فإذا بهم يتشبثون بأوهى خيط ، ويتعلقون بأضعف بارقة .. ويتعللون بما هم أدرى من سواهم بمبلغ خداعه ومدى زيفه .. ويأبون إلا أن يحرموا نفوسهم راحة اليأس .

وهكذا كنت أمني النفس بلقاء .. مع علمي بأنني من لقائه على مدى الجوزاء ، ومن يقيني بأن كل ما بيننا لا يمكن أن يتعدى بحال من الأحوال مجرد حب على ورق . وغرام في السطور . وظللت أطوى حبي في الجوانح ، وأحبسه بين الضلوع ، أمني النفس بلقاء المجهول .. وأدعو الله أن يرسل من لدنه معجزة تتيح لنا اللقاء .

وفي ذات يوم بسم القدر وحدثت المعجزة ، وتحقق ما سميت به بالأمل المستحيل والرجاء غير المعقول .

— ٢٣٤ —

وإذا بأبى ينقل للعمل في المفوضية العراقية في القاهرة ، ووجدت نفسى
أوشك أن أجن من فرط الغبطة .
ومرت بى الليالى ، قبل أن نرحل إلى القاهرة وأنا ساهرة لا يغمض لى جفن ،
فقد كانت أعصابى مرهفة ناثرة .
لا أكاد أصدق أنى حقا سأذهب إلى القاهرة .. بل كان يحيل لى أن المسألة
كلها من صنع الأوهام .

* * *

وصمتت المرأة برهة ، وسقط رأسها على صدرها ، ومرت فترة سكون بدت
كأنما تحاول أن تستعيد فيها أنفاسها ثم أردفت قائلة :
— ووصلنا إلى القاهرة ، وأنا أكذب نفسى فى كل ما أرى وأسائل من حولى
فى نزق وطيش : أحقا قد وصلنا إلى القاهرة ؟
كان كثيرا على أن أجدر أحلامى الهوجاء المجنونة تتحقق فى غمضة عين
فتضحى حقائق ملموسة ، وأن أجدر نفسى قد أصبحت على قيد خطوات من
الحبيب المجهول .. الذى كنت أتخيله فى أقصى العالم ، وراء المريخ أو تحت القمر .
وأحسست بالشوق يزداد وبالحنين يتضاعف .. بعد أن أصبحت على مقربة
منه .. لا يفصلنى عنه سوى دقائق معدودات .
وانتهزت أول فرصة للخروج وحيدة .. فذهبت لزيارته فى داره التى لم
يصعب على الوصول إليها من فرط ما وصفها لى ، وعزمت على مفاجأته بقاء
لا يخطر له على بال .
وعادت المرأة إلى صمتها مرة أخرى .. وطال الصمت فى هذه المرة .. حتى
لقد رحت أستعثها بقولى :

— ثم ماذا حدث ؟

فقالت وكأنما تفيق من سبات عميق :

— ٢٣٥ —

— لقد فاجأني هو ببقاء قبل أن أفاجئه . لقاء لم يخطر لي على بال قط .. لقاء
ما أقساه وما أمره .. لقد وصلت إلى الدار .. فوجدته خارجا منها ... ناديته فلم
يسمع .. صحت به فلم يأبه لي .. لقد كان يا سيدى محمولا على الأعناق ..
مسجى في نعشه .. لا يسمع لأحد ، ولا يسمعه أحد .
لقد أصابه مرض لم يمهلته حتى أراه .
كان هذا يا سيدى هو أول لقاء بيننا ، وآخر لقاء .
هل عرفت من أنا ؟ ولم أتسلل في جنح الليل لأجلس وحيدة في هذه الدار
الموحشة ؟
إن الدار يا سيدى ليست موحشة ، وإنى لا أجلس قط وحيدة .. إنه دائما
معى .

نهاية شقاء

كلهم يريدون الثمن .. من شفتى ، ومن جسدى .
كلهم ينظرون إلىّ بأجسادهم .. لقد تعاون بهاتى مع
شرودهم على الإيقاع بى .
لا تنكر قولى .. فأنت أولهم .

كانت الفتاة حديثة العهد بتعلم السواعة ، وكانت لا تفتأ تقرع الكلاكس
كلما لاح لها عابر طريق على بعد مئات الأمتار ، ولم تكن تعترف بأن الكلاكس
يستطيع وحده أن يقوم بواجب الإنذار ، فكانت تقدم إليه المعونة بصوتها ،
صارخة في المارة أن يحذروا وأن يحاسبوا ، وأن يأخذوا بالهم ، ويفتحوا أعينهم ،
لاعنة أباهم إذا استدعى الأمر . وكانت لا تفتأ تجذب الفتى الجالس بجوارها من
ذراعه بين آونة وأخرى سائلة إياه في كل تقاطع مرور : « أين العسكرى ؟ » ..
وهل الطريق مفتوح أم لا ؟ .

وسلم الله ، واستطاعا أن يجتازا زحام البلد بسلام ، ووصلا إلى كوبرى قصر
النيل ، ولفحت وجهيهما موجة من نسيم الليل رطبة ندية ، فأحسا منها بشيء من
الانتعاش ، وأزال عنهما بعض ما أحدثه ضجيج المدينة من توتر وإرهاق .
واجتازا كوبرى الجلاء ، ولما حول الميدان ، ثم دلفا في الطريق الموازى للنيل
وسمعا تقول ضاحكة :

— هذا طريق العشاق دعنا نجتازه بسرعة ، حتى لا أتهم فيك .
ومدّ ذراعه فلفه حول كتفها وأخذ يتحسس بأصابعه ذراعها العارى ،
ووجدتها تحاول التخلص من ذراعه فأبعده عنها وهز رأسه قائلا :

— ٢٣٧ —

— أنت مخلوقة عجيبة ، ألم أقل لك إنك قلب حُول وإنك لست فقط إنسانة مزدوجة الشخصية ، بل متعددها . إنك عشر نساء في امرأة .. هل تذكرين تلك الليلة التي كنا ننطلق فيها في طريق الهرم . وقد جلست بجوارك صامتا ساكنا ، فإذا بك تسألينني في صوت يفيض رقة وحنوا أن أحيطك بذراعى ؟ . كنت يومذاك مرهفة الحس صخابة الحشا . كنت خير ما يمكن أن تكون امرأة ولهى عاشقة . كنت تمثال أحاسيس ومشاعر .

— واللييلة ؟

— اللييلة ! ليس بك من امرأة اللييلة الماضية صلة ولا شبه ، فإني أراك اليوم كتلة شر وأذى .. فتاة عجريية « شرانية » . أبعد ما تكون عن الحب والوله . وانطلقت منها ضحكة عالية وأدارت رأسها ومدت شفيتها إليه ، وقالت
أمره :

— خذ ! ..

ولم تكن هذه الطريقة في التقبيل لترضى خياله العاشق فهم بأن يرفض منحها ، ولكنه فكر في أنها خير من عدمها ، فأسرع في اقتناصها قبل أن تدبر وجهها لتلتفت إلى الطريق .

واجتازا زحام الجيزة ، وعبرا النفق ، وبدأت العربة تنطلق في شارع الهرم وأخذ يقترب منها ملصقا جسده بجسدها فقالت محدرة :

— وبعدهذ ؟

ونظر إليها في ضيق ، وأدهشه منها هذا الجمود ، ثم مد شفتيه فألصقهما بشفتيها ، ولم يحس فيهما حرارة القبل .. فانتزعهما بسرعة وقال متبرما :

— ما بك ؟

— لا شيء .. أولابد من التقبيل ؟

— إذا كنت لا أقبلك وقد ضمتنا وحدنا عربة في طريق الهرم . فمتى أقبلك

إذن ؟

— لا تكن كصبية المدارس ، دعنا نكن أعمق من ذلك .. أصدقاء .
 وأحس الفتى بخجل من قول الفتاة ، وابتعد عنها ، وقال كأنما يحدث نفسه :
 — أنت لا شك بلهاء ، تريد أن تستبدلي بالعشق صداقة ! إن الأصدقاء
 كثيرون .. تستطيعين أن تحصلي عليهم في كل وقت وفي كل مكان .. أما
 العشاق ..

وندت عن شفتيها ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية وقاطعته متسائلة :
 — الأصدقاء كثيرون ! أنت واهم .. كلهم عشاق . كلهم مثلك يريدون
 القبل .. وما بعد القبل .. ما رأيت منهم صديقا قط .
 ولم يجب الفتى ، فقد بدا عليه الوجوم والإطراق فأردفت قائلة :
 — ألم أقل لك .. ها قد نأيت عني لأني أرفض أن أعطيك شفتي ،
 يا للرجال ! كلكم كذلك !

وكانت ظلال أشجار الكافور والبانسيانس تنعكس على العربة من أضواء
 الطريق ، الواحدة تلو الأخرى .. وأخذت الظلال تتباطأ ، حتى استقر أحدها
 على العربة ، وأوقفت الفتاة الماكينة ، وساد من حولها سكون عميق .
 وهمست الفتاة متسائلة :

— وبعد ؟

واقترب منها وأحاطها بذراعه برفق وحنان ، فأسندت رأسها على كتفه ،
 وندت عنها تهيدة حارة عميقة بدت كأنها انطلقت من أعماق صدرها .
 وألصق خده بخدها ، وأحس بنفسه تتسامى ، ومشاعره ترهف وبتيار
 جارف من الحنين يطويه بين أمواجه ، وسألها في رفق :
 — ما بك ؟ أنت الليلة حزينة ؟

— الليلة فقط ؟

— على الأقل .. هذا ما يبدو لي !
 — أنا ، هو أنا ، الليلة ، وغير الليلة ، دائما حزينة .. كل ما في الأمر أن

الحجب الزائفة من المرح التي أكسوها نفسى ، تعجز أحيانا عن سترها ، فتبدو على حقيقتها . والليلة أحسن أن الحجب قد هتكت . لقد أجهدنى اصطناع السعادة والمرح .. دعنى أطلق نفسى من إسارها الزائف برهة ، دعنى أتمتع بالحزن .

— أنت تقولين هذا ؟

وتذكر قولها .. لنكن أعمق من ذلك ، دعنا نتحدث ، ولنكن أصدقاء .. وخيل إليه أنها بدأت تكشف نفسها على حقيقتها .

إن الفتاة تبدو كأنها تترجح تحت أعباء حزن مرير .

واعجبنا ! ماذا يمكن أن يحزن مثلها .. هذه الفتاة السطحية المرححة الضاحكة كيف يحوم حولها الشقاء وهى ترتع فى بحبوحة من الحياة التافهة : سينا ، ومرح ، وضحك ، وجرونى ، وهيلتون ، وسهرات راقصة ، وأحضان ، وقبلات .. ماذا يريد مثلها من الحياة أكثر من ذلك ؟

ولم يشعر إلا وهو يوجه إليها هذا السؤال :

— ماذا تريد من الحياة ؟ ما هدفك الذى تبغين الوصول إليه ؟

وهزت رأسها فى حيرة ولم تجبه . فعاد يقول :

— هل تريد بيتا وزوجا وأولادا ، وحياة مستقرة هادئة ؟ لا يبدو لك أنك

من النوع الذى يهدف فى الحياة إلى مثل هذا !

وأجابته فى صوت خافت :

— ما هدفت إلى هذا قط . إن تجارى فى الحياة ، تجعلنى لا أتعلق بهذه

الأوهام ، فإنها تبدو لى مجرد سراب ، من العبث التعلق به .

— ماذا تريد من إذن ؟ وماذا يحزنك ؟

— يحزننى أن الحياة تفرض علينا أشياء لا نستطيع إلا الخضوع لها ، يحزننى

أن تجعل منى الحياة هذه المخلوقة التى تراها أمامك ، وآلا أجعل من نفسى

ما كنت أتمنى أن أكونه .. ما حيلتنا فى الحياة ، ونحن نتخط فيها كريس فى مهب

الريح لا سيطرة لنا على مصيرنا ، ولا سلطان لنا على أنفسنا .. هل تفهمنى ؟
— أفهمك تماما .

قالها على غير إرادة منه . فما كان في الواقع قد فهمها بعد وإن كانت به رغبة جارفة في فهمها ، ولهفة على أن يسمع منها حديثها عن نفسها .. وأردفت الفتاة قائلة :

— إني في حاجة إلى صديق يفهمنى .. صديق أسرّ له بخبئية نفسى ، وألقى إليه ببعض ما يعتل في صدرى ، صديق لا يريد لصداقته ثمنا ، ولا يبغى بإخلاصه مقابلا من الأحضان والقبل .. هل فهمت ؟

وسرى إلى نفس الفتى إحساس عجيب بالحنج من نفسه ، لقد بدت له الفتاة أعمق كثيرا مما يتصور . إنها تبغى منه أكثر مما تبغى من سواه ، تبغى شيئا أسمى مما يستطيع الإنسان منحة بسهولة ، تبغى الصداقة في حياة خلت إلا من تجار العشق .

وأمسك يدها فضغط عليها ضغطا خفيفا ، وقال :
— استمرى .

وتركت الفتاة يدها في يده ، وساد الصمت برهة وأطرقت برأسها واجمة . وبدت كأنما قد شرد بها الذهن وراحت في تفكير عميق . وعاد صاحبها يستحثها الحديث :

— تكلمى ، حدثينى عن نفسك كثيرا . أفرغى ما في صدرك وأشر كينى في حملك علة يخف عنك بعض الشيء ، جربى صداقتى ، فقد أفلح في أن أكون صديقا ، بعد أن فشلت في أن أكون عشيقا .

— إن العلة في نفسى ، أو على الأصح ، في ذلك التناقض بين طريقة خلقي وبين الظروف التى أحاطت بى . والتباعد بين حقيقتى ومظهرى .. إن العلة كائنة فى أن التجارب التى مرت بى جعلت منى أكبر مما أبدو .. أنى لا أريد ما أستطيع الحصول عليه ، ولا أستطيع أن أحصل على شيء مما أريد .

إلى حائرة أتخبط في دنيا حالكة الدياجير .

إني أقوم بدور في الحياة لا أجد ولا أحذقه ، دور فرض على فرضا ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع رفضه ، فنحن على مسرح الحياة لا نملك الرفض فإما الامتثال وإما الخروج ، ولكنى لم أجد لدى الجرأة الكافية لذلك . وممرت الأيام ، وأنا لا أملك سوى الصبر والاستسلام .

وأحسن الفتى كأن نفسه تذوب وتحلل ، ورفع يد الفتاة في يده ، فتحسسها بشفتيه كأنه عابد متبتل ، ومر على شعرها برفق وحنو كأنه أب يحنو على ابنته ، وهمس في أذنها :

— استمرى .. تحدثى .

— عم أتحدث ؟ وأنا لا أعرف كيف أبدأ الحديث .. إن الأفكار في نفسي مهوشة مختلطة ، وصور الماضي مزدحمة متلاحقة . إني أبصر إحداها ، صورة باهتة شاحبة ، تطل من الماضي البعيد .. صورة طفلة بائسة . ولدت في جو مملوء بال بغض والكراهية ، والشقاق والخصام . كان أول ما وعته في حياتها هو انفصال أمها عن أبيها ، فحرمتم في طفولتها حنان الأم ، وعصفت بها ريح البغضاء ، وفقدت أمها وهى ما زالت على قيد الحياة .

وتختفى الصورة لأبصر بعدها صورة أخرى ، أشد من الأولى ظلمة ووحشة .. صورة الطفلة وقد فقدت أباه ووقفت في يدياء الحياة وحيدة ضالة بلا عائل ولا معين ، حتى امتدت إليها يد أمها بعد طول فرقة .

وتتعاقب الصور على ذهني ليس بإحداها شيء يسر ، إن الطفلة قد شبت فأصبحت صبية ، تعيش في بيت أمها مع الرجل الغريب ، الذي أبغضته منذ أن وقع عليه بصرها .

لقد كنت في الدار غريبة عن كل إنسان حتى عن أمى ، ومع ذلك فما كنت أملك سوى البقاء ، إذ أن لا بد لي من أن آكل وأنام ، فلك أشياء لا بد أن يفعلها الإنسان ليحيا .. ومع ذلك فما أحسست قط أنني أحيا فعلا .. أجل .. إن

الإنسان لا يحيا لأنه يتنفس ويتحرك .. هذه ليست مظاهر الحياة . إن الإنسان لا يعتبر حيا إلا إذا شعر به من حوله ، وشعر هو بمن حوله . وإلا إذا أحبوه وأحبهم ، وهذا لم يتوافر لى . فما كان هناك من يحس بى ، وما كنت بدورى أحس بأحد .

ومن سخرية الحياة أن تفجع الإنسان بمصائب فيظل يروح تحت عبئه ، ويتمنى لو رفعت عنه ، فإذا ما رفعت عنه ، رفعت بطريقه يتمنى لو أبقته له ، ويشعر أن بقاءه خير من زواله ، وأن المصائب كان نعمه من نعم الحياة . لقد قلت لك إن مبعث شقائى هو شعورى بأننى لا أحيا وأنه ليس هناك من يحس بى . حتى كان ذات يوم وجدت فيه أن هناك من بدأ يحس بى فتمنيت لو أفقد نصف عمرى ، وأبقى كما كنت لا يحس بى أى إنسان .

كان أول من أحس بى ، ذلك الرجل البغيض الغريب ، رب الدار وولّى نعمتنا : أمى وأنا .. ولقد بدأ إحساسه بى عندما دخلت فى دور النضج فاستوى منى الساق وبرز الصدر .

وبدأت أحس من نظراته المختلصة أنه أحس بى ، وكنت أكره نظراته ، رغم أنها كانت تحمل ذلك الشيء الذى طالما افتقدته وهو الشعور بأنى مخلوقة يحس بها الناس .

ومرت الأيام وأنا أحس بإقباله علىّ يزداد وكنت أشتم فى الجور رائحة الخطر ، ولكنى لم أملك له ردا .. وماذا تستطيع عاجزة مثل أن تفعل أمام هذا الوحش البغيض ؟ وزاد الموقف حرجا ، مرض أمى ، واضطرابى إلى أن أتخذ فى الدار مكانا يقربنى إليه ، ويتيح له كثيرا أن يخلو بى .

وفى ذات يوم كنت أضطجع على إحدى الأرائك عندما أحسست به يتسلل إلى الحجرة ، وتبينت فى عينيه شيئا .. لا يصعب على المرأة أن تتبينه فى عيني الرجل ، وجلست فى ركن الأريكة ، فاتخذ مجلسه بجوارى ، وبدأ يتحسس يدى وذراعى ، وأنا أحس بقشعريرة تسرى فى جسدى ولا أدرى كيف أصده

وأردعه ، وأخيرا امتدت يده إلى وجهي مقتربا فمه من فمي وودت لو صفعته ، ولكنني كنت أخشى العواقب ، فجذبت ذراعي برفق وأشحت بوجهي . وبدأ عليه الغضب ، وسمعته يزمجر بكلمات مهددا ، وغادر الغرفة نائرا . ولم يكن هذا نهاية الأمر ، بل كان بدايته . لقد أصّر الرجل على أن يبلغ ما في نفسه ، ووجدتني في مأزق شديد الحرج ، وخاصة أن أمي أضحت طريحة الفراش ، وكان الرجل هو كل عمادنا في الحياة ، وبدأ يهددني بأنه سيطردني وإياها إن لم أخضع له ، أو على حد قوله إن لم أعقل . وأخيرا عقلت .. واستسلمت له .

لا تهمني بالضعف ولا بالجنون ، لقد فكرت كثيرا وقلبت الأمر على كل وجه من وجوهه .. فلم أجد خيرا من الاستسلام ، ووجدت فيه — كما قال الرجل — عز العقل !

فكرت في أن أنبئ أمي ، وفي أن نترك الدار معا ، ولكنني خشيت عليها من وقع الصدمة وخشيت أيضا أن يقنعها الرجل بأنني حاولت التفرير به ، وأنني — لا هو — أصل الشر ومنبع الفساد .

فكرت في الهرب ، ولكنني خفت أن يثار الرجل لنفسه من أمي . ثم ما فائدة الهرب وأين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟ لقد أقنعتني التجارب بعد ذلك ، بأني لو هربت لكنت أكثر الناس جنونا .

إن الحياة كلها ذئاب .. ما فائدة أن أهرب من ذئب لألقى نفسي بين أحضان غيره من الذئاب ؟.

كلهم يريدون الثمن من شفتي ومن جسدي . كلهم ينظرون إليّ بأجسادهم .. لقد تعاون جمالي مع شرورهم على الإيقاع بي . لا تتكر قولي .. فأنت أولهم .

سل نفسك : لم آتيت بي إلى هنا .. وما مرادك مني ؟ . وماذا تشتهي ؟ . وممن تمنى نفسك ؟ .. بالقبيلات والأحضان ! والتمتع بذلك الجسد الناضج الفاتر !

أو تنكر هذا ؟.

إني أحيا حياة بغیضة .. حياة تكرهني على خيانة أمي .. مع من ؟ . مع إنسان
أتمنى قتله .. إن الناس يفعلون المنكر لينالوا منه متعة .. ويرتكبون الإثم ليفيدوا
منه لذة .. أما أنا .. فإني آتی المنكر لأجني المرارة والحزن والألم .
هذا هو الدور البغيض ، الذي أكرهتنى الحياة على أن أقوم به على
مسرحها .. ليتني أستطيع أن أغادرها .
وساد الصمت .

* * *

ونظر إليها الفتى فلمح في عينيها طبقة لامعة تترقرق ، ووجدتها تضغط على
شفتيها . وبعد برهة كانت العربية تشق طريقها عائدة ، وقد شملهما صمت
عميق .

* * *

ومرت بضعة أيام . وليس هناك في رأس الفتى إلا فكرة واحدة . هي إنقاذ
الفتاة ، وتخليصها — على حد قولها — من ذلك الدور البغيض الذي أكرهتها
الحياة على أن تقوم به .
وقلب الأمر على وجوهه . فأنتهى به التفكير إلى أنه ليس هناك سوى حل
واحد .. يستطيع به أن ينقذ الفتاة .. وهو أن يقدم على زواجها .
قد يكون في فعله حمق وجنون .. بعد كل ما أنبأته به الفتاة .. ولكن
ما فائدة التضحية ، وإنكار الذات ، إن لم نقدم على مثل هذه الأمور دون أن نعبأ
بالتقاليد الموروثة . والتقى بها .. وأسر إليها بما أضمر .. ونظرت إليه نظرة تقيض
بالشكر .. وهمست في رفق .

— شكرا .. لا داعي لأن تقدم على مثل هذه التضحية . إن مجرد عرضك
إياها فيه كل الكفاية .. فلقد أشعرتني أن الحياة لم تعدم الخلاء ، وأنه ما زال
فيها شيء اسمه الصداقة والوفاء .. ولكن ما دخلك أنت تقحم نفسك في دور

لا أنت ترضاه .. ولا الحياة أجبرتك عليه ؟ .. ما ذنبك تشرك نفسك مع ثلاثة أشقياء ؟ .. نحن ثلاثة تعساء تمثل على مسرح الحياة مأساة مريرة .. لن تستمر قصتنا إلى ما لا نهاية فلا بد لأحدنا أن يخرج من المسرح .. فينبى خروجه المأساة .. إن أمتى تزداد عليها وطأة المرض .. وقد يكون فى خروجها من الحياة خير حل للمشكل .. من يدري ؟

وافترقنا بعد ذلك .. بعد أن رفضت أن تقبل منى .. ما سمته تضحية ، وبعد أن أصرت على ألا تشركنى معهم فى مأساتهم الأليمة منتظرة أن تختم المأساة بخروج أحد أبطالها الثلاثة .. متوقعة أن يكون موت أمها .. هو الخاتمة .

وعجبت فى نفسى لهذا التعقيد من القدر .. وتساءلت أين هى الحرية التى تركت للبشر تقرير مصيرهم .. واختيار الطريق السوى ونبد المعوج ؟ هذه الفتاة التعسة .. لم يكن لها قط حق تقرير مصيرها ولا كان لها حق الخيار فيما سارت فيه .. على النقيض .. لقد دفعت فى طريق لم ترده .. وما ودت على أن تكونه .

لقد علمتها التجارب .. أو التجربة الوحيدة التى لقتها لها الحياة .. ألا تتعلق بما يجب أن تتعلق به كل أنثى .. بل بما خلقت له كل أنثى .. وهو الزوج والبنون والحياة المستقرة ، وآمنت بأن كل هذا أوهام لا يجب التعلق بها . ثم وجدت نفسها مضطرة إلى أن تنزلق إلى أسوأ ما تنزلق إليه أنثى دون أن تعرف لها خلاصا ولا تستطيع فككا ، وانتهى بها الأمر إلى الاستسلام والانتظار بعد أن فقدت كل أمل فى النجاة من دورها البيغض إلا أملا واحدا هو موت أمها العليلة .

أى هزء هذا من القدر .. وأية سخرية ؟ وعلام كانت التضحية .. وعلام كان الانزلاق .. إذا كان قد انتهى بها الأمر إلى أنها لا تأمل لشقاها نهاية .. إلا بنهاية أمها .. وخروجها من مسرح الحياة ؟

ومرت الأيام دون أن تسنح لنا فرصة لقاء .. وشغلتنى عنها ظروف الحياة ..
وإن كنت لم أكف قط عن التفكير فيها والتساؤل عما يمكن أن يختم به القدر
مأساتها .. وكيف يمكن أن ينتهى شقاؤها إذا كان قد قدر أن يكون لشقاها — كما
لكل شيء — نهاية ..

وفى ذات يوم . علمت فجأة أن المأساة قد انتهت بخروج أحد الثلاثة .. تماما
كما تنبأت الفتاة .. لم تختلف نبوءتها عما حدث إلا فى شيء واحد .. وهو أن
الذى خرج كانت هى .. ولم تكن أمها .
قد أصابها داء لم يهلهلها سوى بضعة أيام .. خرجت على أثره من مسرح
الحياة .

يا للفتاة الشقية .. أترى السماء ستعذبها على ما أئته من منكر فى الأرض ؟
أم تراها ستقنع بعذاب الأرض ؟

آه ...

آه منك ، ومن طعتك الدامية . كنت أستطيع أن
أنتظر حتى آخر العمر .. ما دامت لي فيك بارقة أمل
تعينني على الانتظار . أما الآن فماذا أفعل وسط تلك
الدياجير الحالكة من اليأس الميت ؟

آه يا حبيبي آه .
وماذا أملك غير آه ، أنفوس بها عن ألم في الجسد ولوعة في الفؤاد . آه منك
ومن داء أضنيت به القلب .
آه من علة سرت في الجسد فأنهكته وحطمته ، وتركته كأنه عود ييس أو
ورق جف . آه ! آهة حارة ملتهبة عميقة .
إني أحس بعد كل آهة بشيء من الراحة والهدوء ، ولكنها راحة عاجلة الزوال
وهدوء سريع الأفول كومض البرق ، سرعان ما يعقبها ألم مستحكم ولوعة
مستبدة ، فأبعث من صدرى الآهة تلو الآهة . إني أرقد على الفراش أتقلب
وأتململ ، لاهثة الأنفاس مكروبة الصدر ، لست أدرى موقفى بين الحياة
والموت . إني أمل في الحياة ، وإني حنين إلى الموت ؛ إني رغبة عن العيش وخشية
من الفناء ، وكل ما إني أمل وحنين ورغبة وخشية ، منبته أنت ، ولا أحد
سواك .

أنت وحدك المحرك لكل عاطفة تهب في صدرى ، أنت وحدك كل ما أحس
وكل ما أرى ، ما شرد الفكر إلا فيك وما فتحت العين إلا على صورتك ،
أتوهمها في السقف أو على الجدران ، وفي النوافذ وفي الأبواب ، وفي كل طيف

وكل شبح . ما وعت الذاكرة إلا . ذكراك ، فهى تحفظ عنك كل شيء ، كل كلمة وكل حركة .. كأنها مرآة تعكس لى عنك كل ما أبصرته منك .

إنى أمد يدى تحت الوسادة فتلمس رسائللك ، ويسرى منها فى جسدى برودة تندى على وتبل حرارتى ، وأحس أنها فضلة متاع الحياة وبقية نعيم بائد ومتعة منصرمة ، إنى لأتعلق بها تعلق غريق فى لوح من حطام السفين ، إنى لأراها ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى وسط الأمواج الطاغية .

إنى أتعلق بالحياة ، لجرد وجودك فيها ، وما دمنا أحياء ، فقد نلتقى يوما ، ويشدنا الهوى الغابر ، فيجرى فى النفس الذابلة ماء الحياة ، ويحييها بعد طول موات . الهوى الغابر ! أهكذا يا حبيبى أضحى هوانا غابرا ، نتحدث عنه كأنه شيء من التاريخ ؟

هذى رسائللك قد أخرجتها يدى لتشرها أمام عيني .
دعنى أنثر لك منها أحاديث الهوى الغابر .. الهوى الذى ثوى ، فاتخذت له من الصدر قبرا ، أسقيه دمع العين ودمع القلب ، حتى نمت ورود الذكرى على جوانبه ، فجعلت منه زينة القبور ، كما كان حينا زينة الحب .

آه يا حبيبى ! هل تسمع آهتى ؟ ما بالك إذا لا تحيب ، إنى أبصرك ، وإنى أتحنس وجهك . أجل والله هذا وجهك . لم لا تبتمس ؟ لم لا تقبلنى ؟ هل نسيت شفتاك القبل ؟ ما بالك لا تذكر ليالينا معا ، ليالى أبعد فيها الهوى عنا الكرى فنعمنا بيقظة الحب النقى الطاهر .

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى

يلفننا الشوق من فرع إلى قدم

ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا

وفى بواطننا برء من التهم

أتذكر يا حبيبى ليلة ضممتنا كرمة الحديقة ، ليلة تسللنا من الدار خفية فاتخذنا من أوراق الكرم ستارا يحجبنا عن ضوء القمر حتى لا يكشف أمرنا . أتذكر كيف

كان الشماع الماكر يتسرب من بين الأوراق فيمسنا في لين ورفق ، وكأن القمر يمسح بكفه الندى على وجوهنا .

كان أول ما عرفته في الحياة هو أنني أحبك ، فقد نشأت وحبك في دمي ، كنت أشبه بشجرة صغيرة تروى بماء حبك ، فلما نمت وترعرعت كان حبك يسرى في عصارتها ويتغلغل في عروقها وأوراقها ، كنت لها الروح وكنت الحياة ، فكل ذرة في جسدي تعلقت بها ذرة منك ، فلست أراي إلا خليطاً مني ومنك ، كيف يمكن إذاً أن تنتزع مني وأن أعيش بدونك ؟

منذ عشر سنين وأنا أحبك .. كنت وقتذاك طفلة في الثانية عشرة ، ومع ذلك فقد كنت أحبك كما لم تحب امرأة من قبل . كنت أحبك كما أحبك الآن ، وكما سأحبك حتى نهاية العمر .

كانت دورنا متجاورة ، وكانت تجمع بين عائلتنا صلة ود قديم وصداقة وثيقة فكنا أشبه بالأقرباء ، وكنت صديقة أختك الصغرى وزميلتها في المدرسة ، وأتاح لي كل ذلك أن أكون قريبة إليك كنفسك ، وأن أعرف كل شيء عنك كما أعرفه عن نفسي .

هل تعرف أول يوم طرق فيه حبك باب قلبي ؟ هل تذكر ذلك اليوم الذي كنت أعدو فيه على سلم الدار فسقطت على ركبتي وسالت منها الدماء ؟ بالطبع لا تذكره ، فلا أظنه يعينك شيئاً ، أما أنا فأني أذكر كل ما حدث فيه بالضبط ، كان يوم خميس وكنت آتية لزيارة أختك ، وأخذت أقفز على الدرج كما تعودت أن أقفز دائماً ، ولكن قدمي زلت فهويت على ركبتي ، وسالت مني الدماء ، وكنت تطل من النافذة ، فنزلت تعدو إليّ وحملتني بين يديك ، فغسلت ركبتي وربطتها بمنديلك ، وحنوت عليّ في عطف وحنان ثم قبلتني .

ماذا كان أثر ذلك اليوم في نفسك ؟ لا شيء ، فما كنت عندك أكثر من طفلة سقطت على الدرج ، فجرحت ركبتي ، وما كنت تحس نحوى أكثر مما تحسه نحو أختك الصغرى .

وماذا كان أثره في نفسي ؟ أما عن القبلية ، فما زلت أحس حلاوتها حتى الآن . وأما عن المندبل ، فقد انتقل من ركبتى إلى صدرى ، لقد ضمدت به جرح ركبتى فيما مضى ، أما الآن فأنى أضعه على صدرى ، على أضمد به جراح قلبى ، لقد كان ذلك اليوم بداية حياة جديدة ، أو قل إنه بداية حياتى ، فما أذكر أننى كنت أحييا قبل ذلك ، لم أكن خلال تلك الفترة السابقة أكثر من جنين لم ير ضوء الحياة بعد .

هل الحياة هى أن نأكل ونشرب وننام ونستيقظ ؟ ما الفرق إذا بين الإنسان والحيوان ؟ إن الإنسان يحيا بقلبه وغذاء القلب وهوأوه هو الحب ، فإذا لم يحب الإنسان ، فقد هواء الروح وغذاء القلب ، وأضحى هو والعدم سواء . منذ ذلك اليوم — وقد أضحت رؤيتك غذاء نفسى — لا أحتمل أن يمر بى يوم يدون أن أراك ، ولم تكن رؤيتك بالأمر الشاق ، إذ كنت أقضى عند أختك جل وقتى .

كم تسللت إلى غرفتك في غفلة منهم ، فجلست إلى مكتبك وضممت كتبك إلى صدرى ومستتها بشفتى ، لأننى أعلم أن يدك قد مست صفحاتها وكنت أشم بين أوراقها عبق أنفاسك وأسمع بين سطورها همس شفتيك . كم اختلست اللحظات لأتحسس فراشك ، وأدفن وجهى في وسادتك ؛ وأقبل كل ما تمسه يدى من أمتعتك ، كأننى عابدة في هيكل مقدس .

ومرت بى الأيام وأنت لا تحس بى أو تحس بى كأنك لك ، وأنا راضية قانعة أرقبك من بعد ، لا يزور الكرى عيني إلا إذا نمت أنت . كنت أرقب حجرتك من نافذتى ، أطلع إليها كما يطلع المؤمن إلى السماء ، لا يرى ربه ، ولكن ملء نفسه بالإيمان به .

وفي الليالى التى كانت غيبتك تطول ، والثى كنت لا أبصر فيها ضوءا في حجرتك ، كنت أجلس في انتظارك ، وكأنى من فرط القلق على جهر اللظى أو شوك القتاد ، وكلما سمعت وقع أقدام في الطريق مددت رأسى من النافذة فإذا لم

أتبينك تملكني الخذلان وعدت إلى الانتظار ، وهكذا أظل حتى تحضر وأطمئن فأذهب إلى النوم .

وأخيرا يا حبيبي ، بدأت أسمع لحيى صدى في نفسك .
كيف ؟ لست أدري . وما حاولت قط أن أدري . لقد كان حبي منك ومن الحياة مجرد الإحساس بأني قد أضحييت عندك ذات موضوع وأنتك بدأت تهتم بي ، وتختلس إلى النظرات ، وتترقب المواعيد ، وتطيل من أوقات بقائك في الدار .

إني لم أدع قط الذكاء ، وقوة الملاحظة ، ولكني كنت في اكتشاف حيك لي من أشد الناس ذكاء ، وأقواهم ملاحظة . كنت تحاول أن تجعل لقاءنا مصادفة ، ولكني كنت أعلم أنه كان وليد تديرير ، وكنت أحس أنك ترقبني دون حاجة إلى أن أنظر إليك .

أية سعادة تلك التي كانت تغمرني وقتذاك ؟ لقد بدأت تتطوع لمساعدتنا أنا وأختك في الاستدكار وعمل الواجبات . وأخذت تقضي الساعات الطوال معنا في الحجرة ، ترسم لي رسما أو تكتب لي واجبا ، وأنا أنظر إليك صامتا للسان صحابة الحشا .. يكاد ينوء كاهلي بما يحمل من صنوف السعادة وألوان الهناء ، وهكذا بدأ بيننا دور الحب الصامت ، ثب الضلوع للضلوع ، ويخفق القلب للقلب ، وتهفو الروح للروح وتبض المهجة للمهجة ، وتشتمل العين من العين ، أما الشفاه فلا تنطق . حتى كان ذلك اليوم الخالد يوم لقائنا تحت الكرمة قلت لي هامسا إنك تريد أن تسر إلي شيئا ، وطلبت مني أن ألقاك في كرمة الحديقة عندما يسقط الظلام وأحسست أن قلبي يكاد يقفز من بين أضلعي ، وعرتني إذ ذاك هزة وتملكني الارتباك ، ولم أستطع أن أنبس بينت شفة .. وانطلقت هاربة لا ألوى على شيء ، وعندما سقط الظلام ، كنت أسترق

الخطى إلى هناك .

آه .. آه يا حبيبى من حلاوة الذكرى ومرارتها .. آه من جرح يدمى ، ومن قرح ينكأ .. آه من ليلة لم تنسها النفس ولم يسلمها القلب .. ليلة تساقينا فيها الغرام ومزجنا الروح بالروح . ليلة لم يبق لى منها إلا حسرات وآهات .
لكأنى بالقدر وهبنا لنا خلسة فلشد ما كانت متعتنا فيها سريرة المسترد ، إذ عرفت فى اليوم التالى لها أنك ستسافر فى بعثة إلى الخارج .

ولقد أصابنى هم شديد ، برغم أنى كنت أعرف أن فى السفر تقديرا لك وازدهارا لمستقبلك ، ولكنى كنت أخشى الفقرة وأوجس منها خيفة ، ولقد صدق حدسى فحدث ما حدث . بعد بضعة أشهر من سفرك أنبأتنى أمى أن ابن خالتى تقدم لخطبتي ، ووقع على النبأ وقوع الصاعقة ، وأجبتها بأنى لا أريد الزواج ، ولكن المسألة لم تكن من السهولة بحيث يكفى أن أرفض الزواج فينتهى الأمر .

لقد ظنوا قولى بادئ الأمر تدللا وخجلا ، ولكنى عندما اتضح لهم لإصرارى تملكهم الدهش ، فلقد كانوا يرون فى ابن خالتى نموذجا للزوج الكامل من كل ناحية ، وزاد إلحاحهم علىّ ، وأخذوا يضيّقون علىّ الخناق ، حتى اضطرت فى النهاية إلى أن أنبئهم والدتى أنى لن أتزوج سواك .
وهنا بدأ دور النصيح وأفهمونى أن من العبث أن أحاول انتظار الغد المجهول ، وأن عصفورا فى اليد خير من ألف على الشجرة .

أجل يا حبيبى لقد أخذوا يذمون لى فيك ويوازنون بينك وبين ابن خالتى ، رافعيه إلى الذرى خافضيك إلى الحضيض ، ولكنهم كانوا كناطحى الصخر ، فما وهنت قط أمام أقوالهم ، وصممت ألا أتزوج سواك حتى كان ذات يوم ، وهنت فجأة وتهاويت وتخاذلت بل خررت أمامهم صريعة ، عندما أخبرونى

أنك تزوجت !

آه منك ومن طعمتك الدامية . كنت أستطيع أن أنتظرك حتى آخر العمر
ما دامت لى فيك بارقة أمل تعيننى على الانتظار ، أما الآن فماذا أفعل وسط تلك
الدياجير الحالكة من اليأس المميت ؟

مضت فترة وأنا لا أأكلم أحدا ولا أسمع لأحد ، عافت نفسى الأكل وهجر
عيني الكرى ، حتى بدأت أتمالك وأتماسك وأتجلى على هجرك وأتصبر ،
وأخذوا هم يلحون علىّ فى قبول ابن خالتي حتى تمت الخطبة . ماذا يضيرنى أن
أتزوج ، هو أو سواه ؟ إن كل الناس عندى سواء بعد أن فقدتكم ، ولم تمض بضعة
أيام على الخطبة حتى رقدت طريحة الفراش .. أرزح تحت أعباء المرض .

إنى أحس بالداء ينخر فى جسدى ، ويتأبى أحيانا شعور بأن أيامى فى الحياة
قد أضحت معدودات برغم أنهم يحاولون أن يبعثوا الطمأنينة فى نفسى ويخففوا
أمامى من خطورة حالتي .

إن أكثر ما يشغل علىّ فى محنتى ويوجع نفسى ، هو أننى مخطوبة لغيرك . كم
تتملكنى رغبة شديدة فى أن ألقى بالخاتم من النافذة لأنى أحس أنه يحز فى إصبعى
وفى قلبى .. أجل . كان يجب علىّ ألا أقبل غيرك ، إما أنت أو لا أحد سواك .
كان يجب علىّ أن أنتظر .. أنتظر حتى نهاية العمر ؟ من يدري ؟ إننى أحس
بالندم يحز فى نفسى .. إننى لا أحتمل هذا الخاتم الثقيل ، سأقذف به من النافذة
وسأمرهم أن يفسخوا الخطبة وليفعلوا بى ما يشاءون .

* * *

وطويت المفكرة بعد أن انتهيت من قراءتها ، ومددت يدى بها إلى صاحبى
وسألته هامسا .. وهل فسخت الخطبة ؟

فأجابنى صاحبى ، وقد شرد ذهنه وتاه بصره :

— ٢٥٤ —

— أجل .. لأنها ماتت . لقد عدت من الخارج فوجدتها قد ذهبت ،
وأعطتني أمها المفكرة وهي تنشج باكية ، وقالت لى : « إنها لك كما كانت
صاحبتها لك » ، غفر الله لها ولهم ، لقد اتهموني كذبا بالزواج ، وعلم الله أنى
ما نسيتهما لحظة واحدة وأنى كنت أعد الدقائق واللحظات لأعود إليها .
أطرق صاحبى برأسه ولاحت فى عينه عيرة تترقرق .. وخرجت من صدره
— حارة ملتبة عميقة مريرة — كلمة « آه » .

للمؤلف

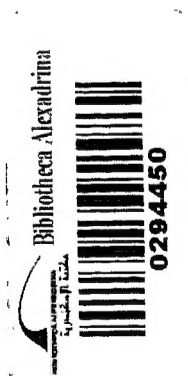
(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١٩٤٨)	خبايا الصدور
(١٩٤٨)	يا أمة ضحككت
(١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١٩٤٩)	من العالم المجهول
(١٩٥٠)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(١٩٥١)	بين أبو الريش وجنيّة ناميش
(١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالي
(١٩٥٢)	الشيخ زغرب
(١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك ياليتي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(١٩٥٨)	من حياتي
(١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(١٩٦١)	أيام وذكريات
(١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	إتسامة على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٥

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٢٨٢ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كائن صدق - البجالة



الشمس ٦٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
بيروت - لبنان